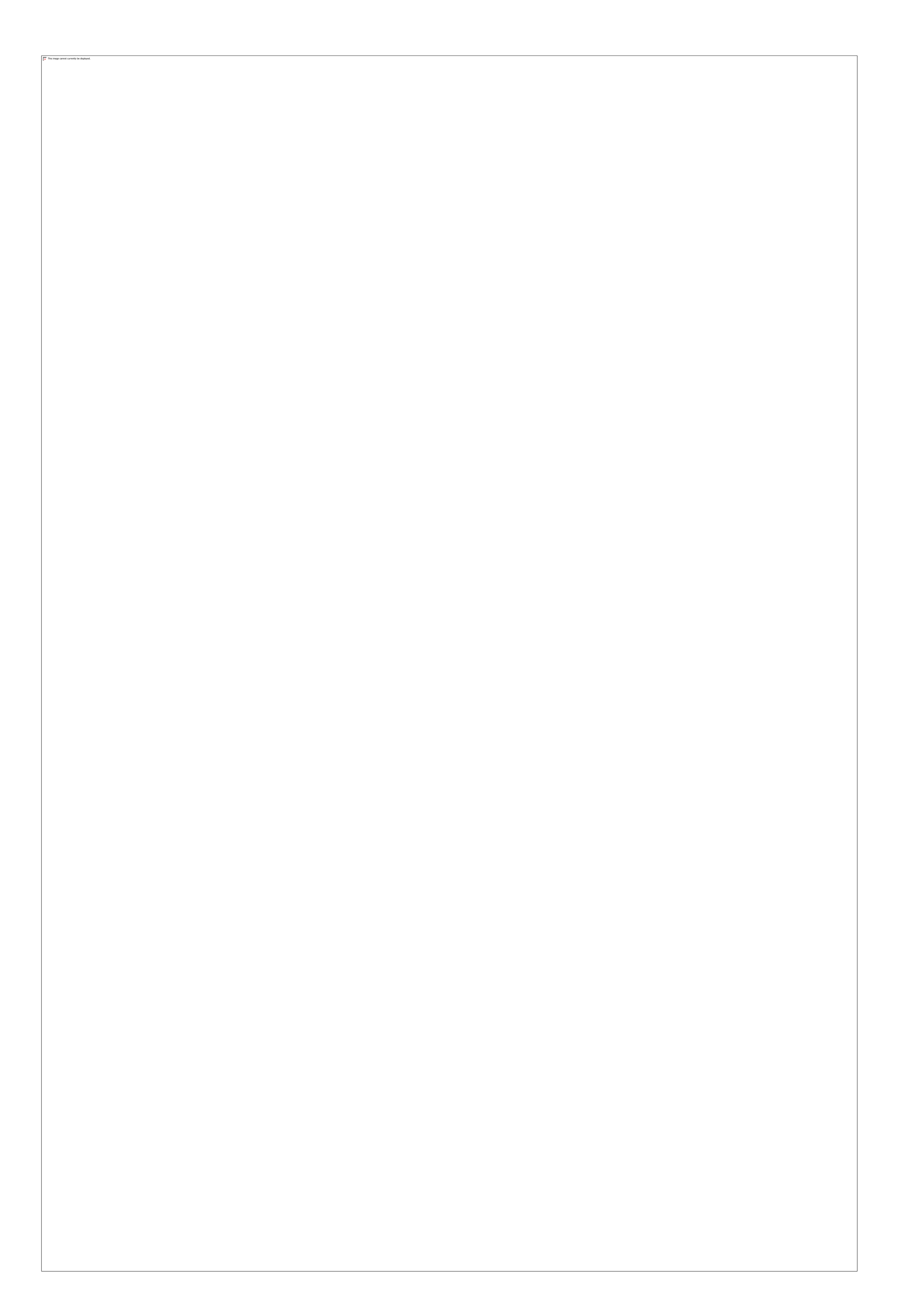
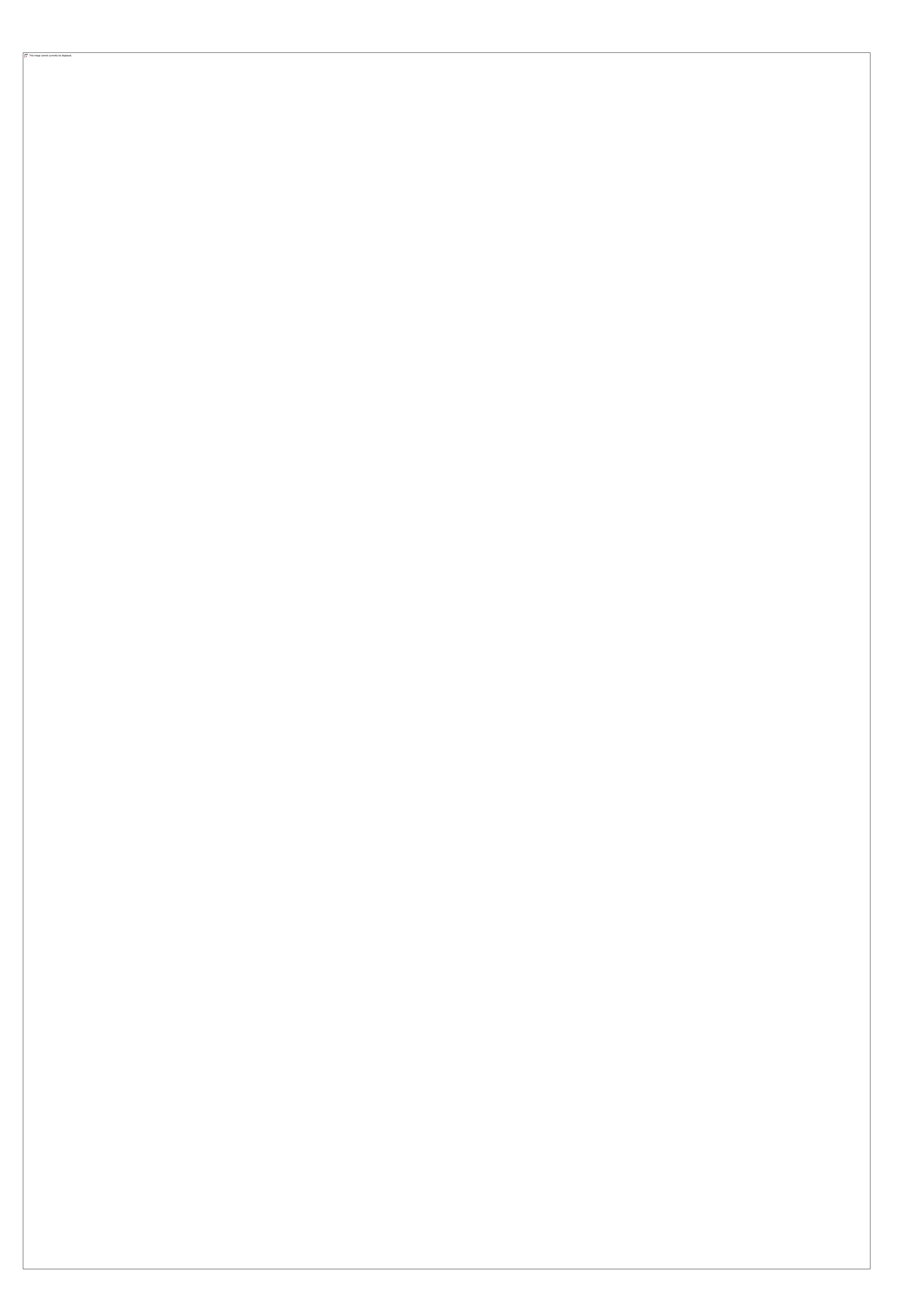
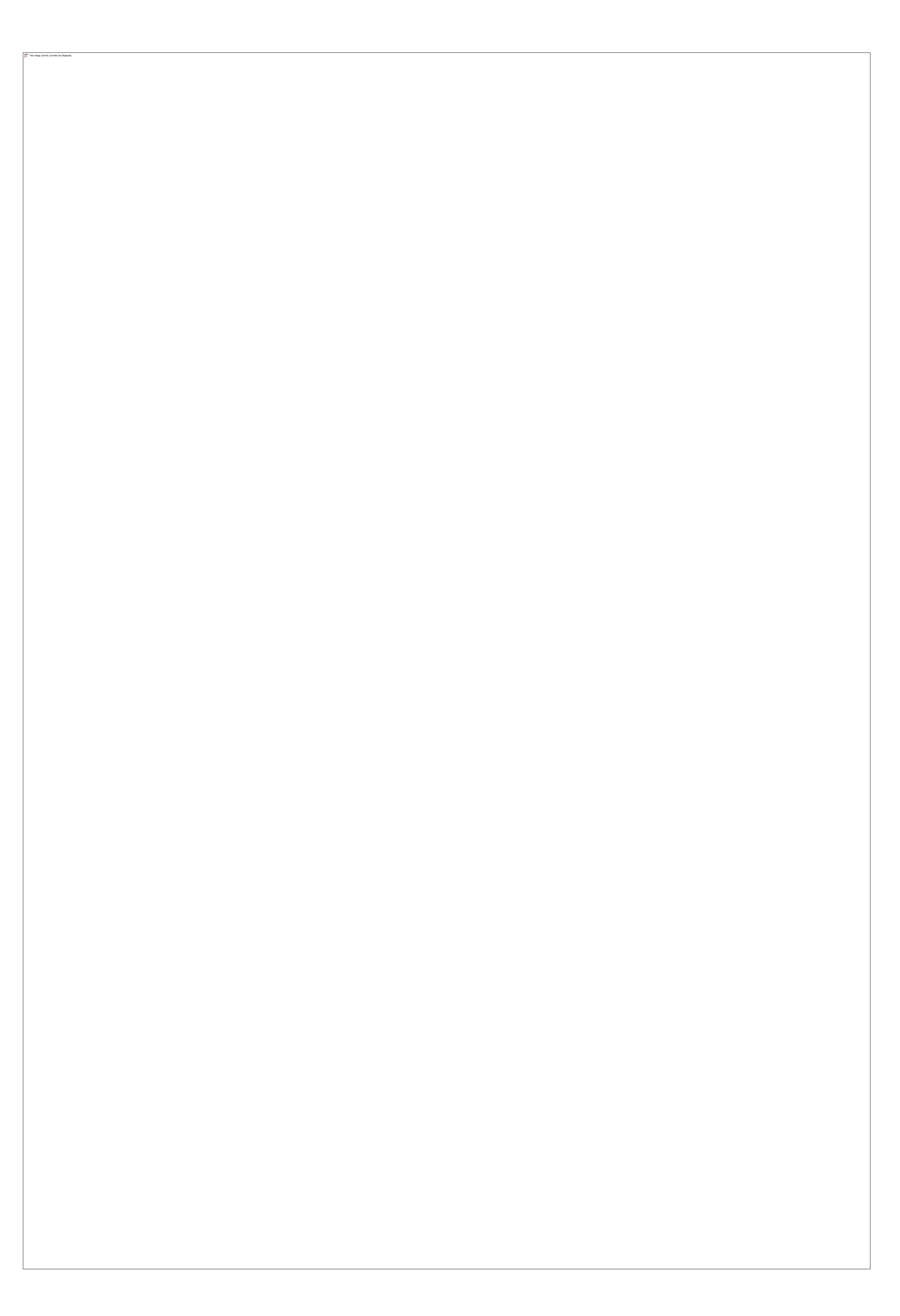
This image cannot currently be displayed.

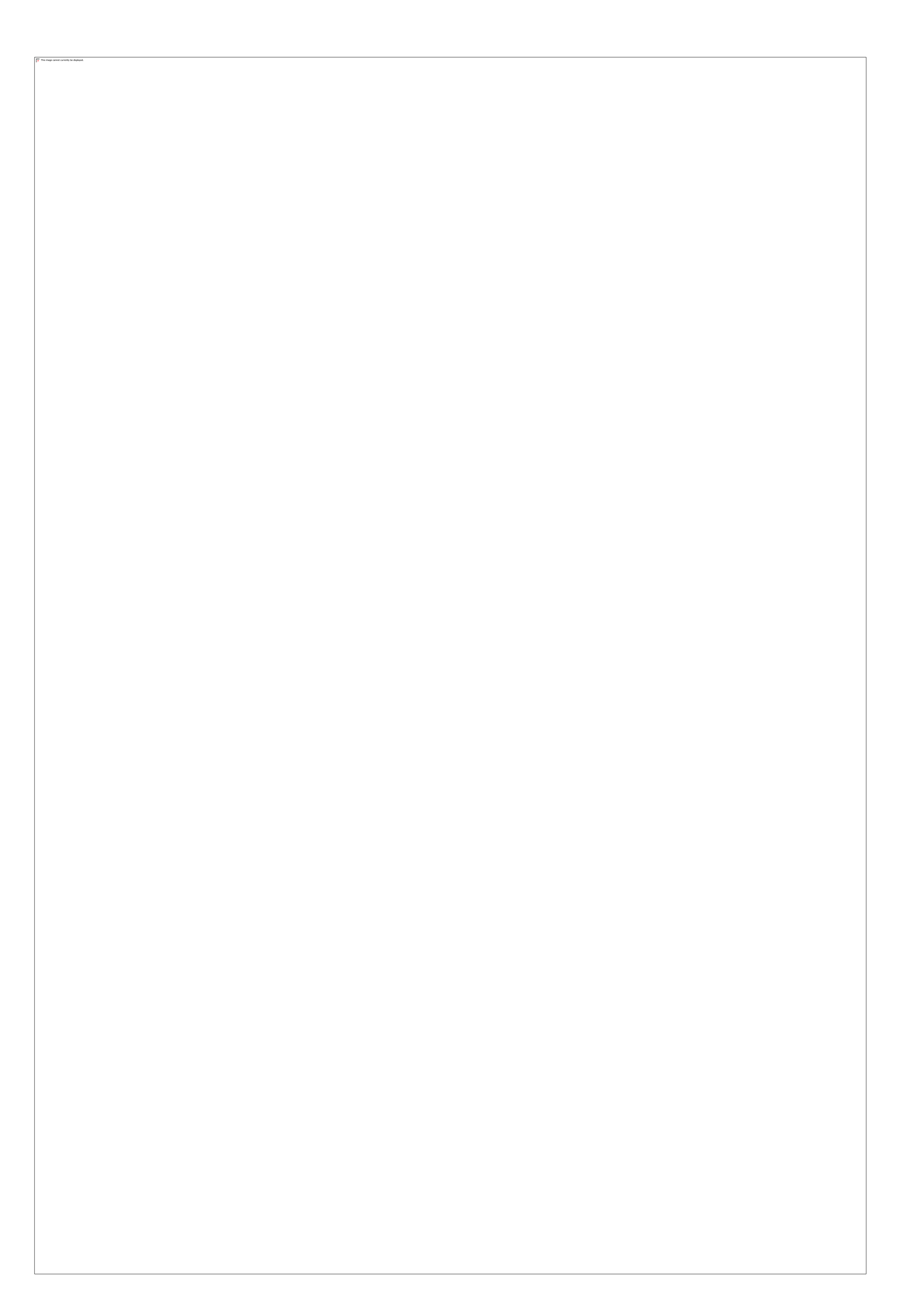


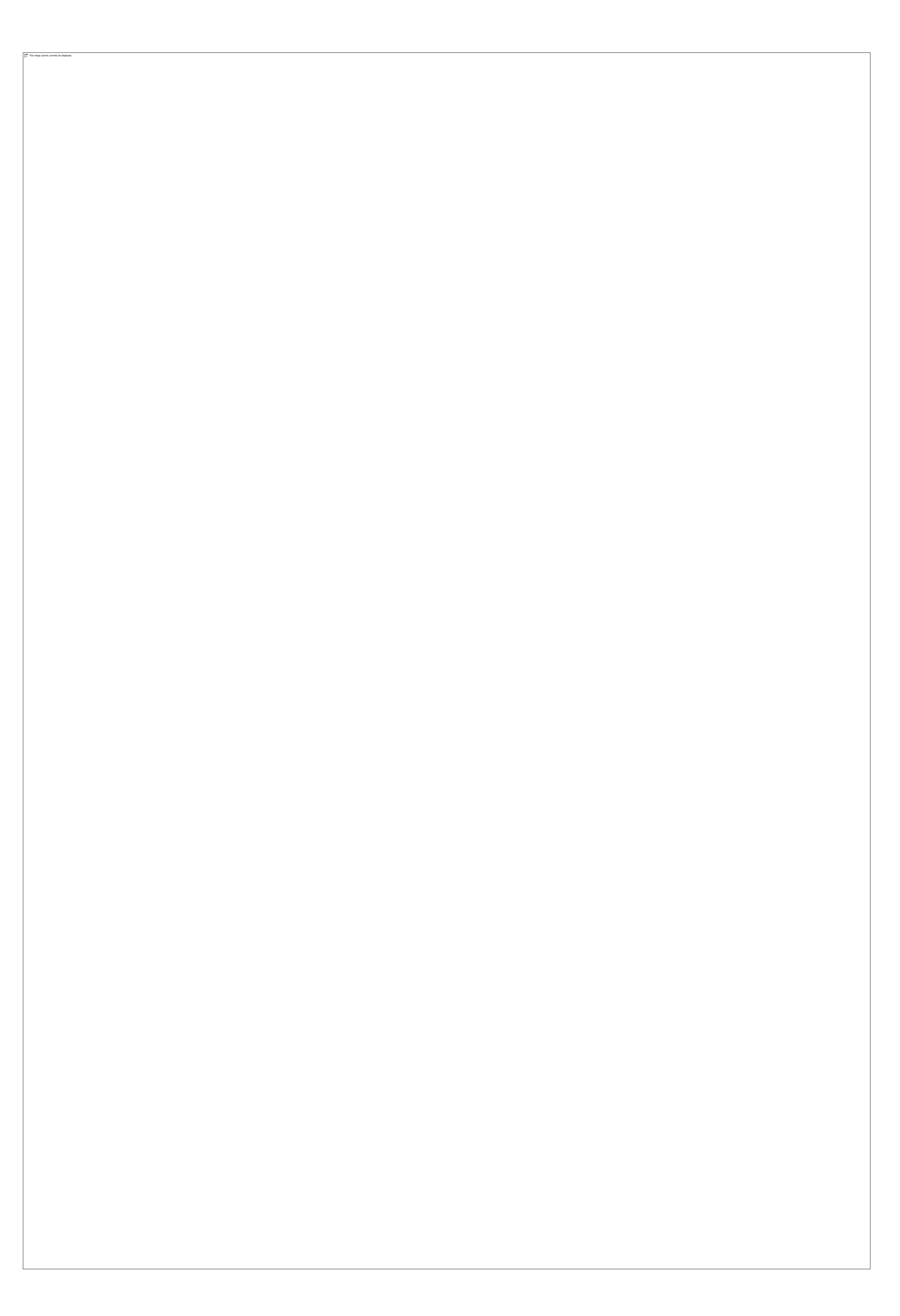
182.png

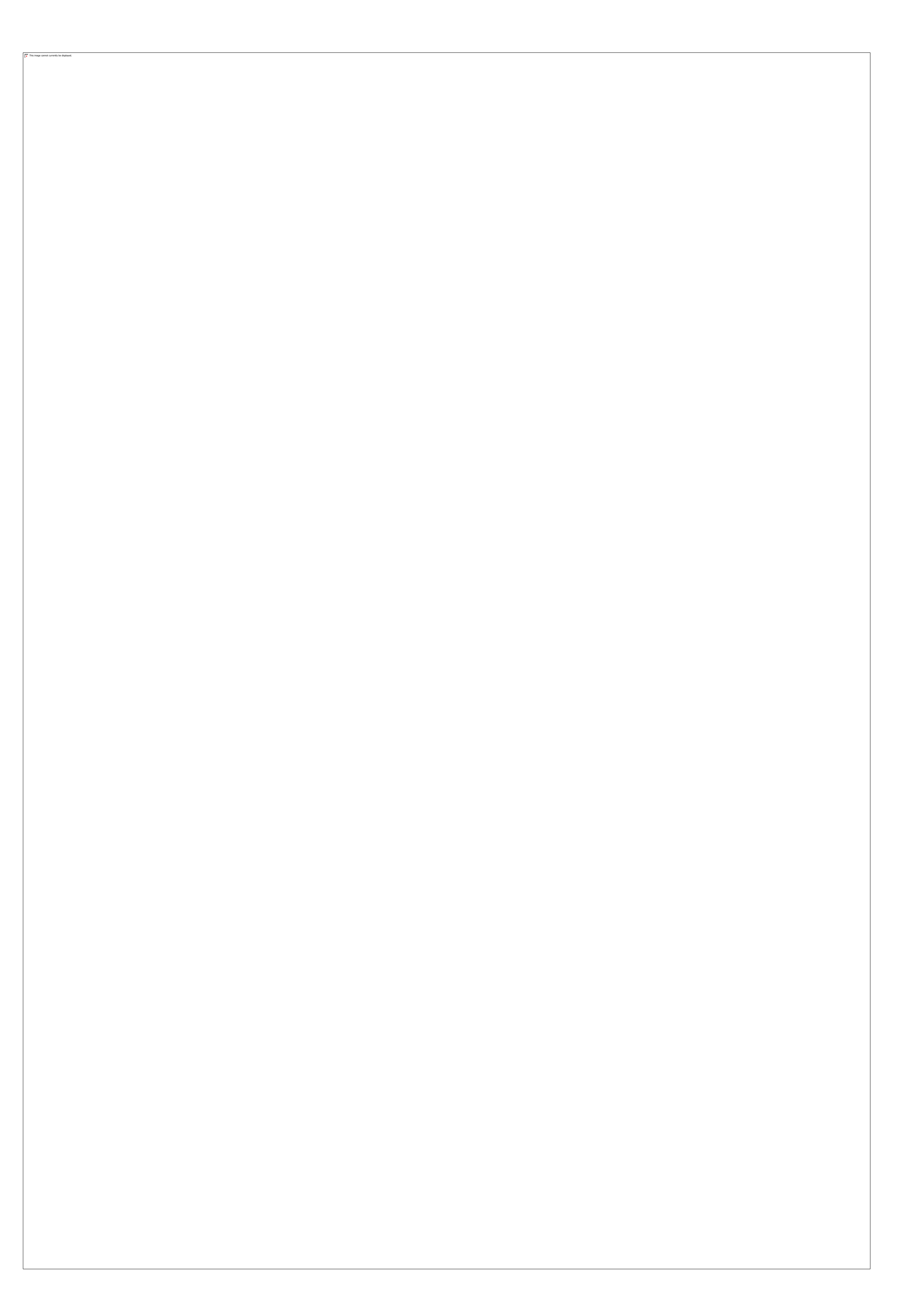


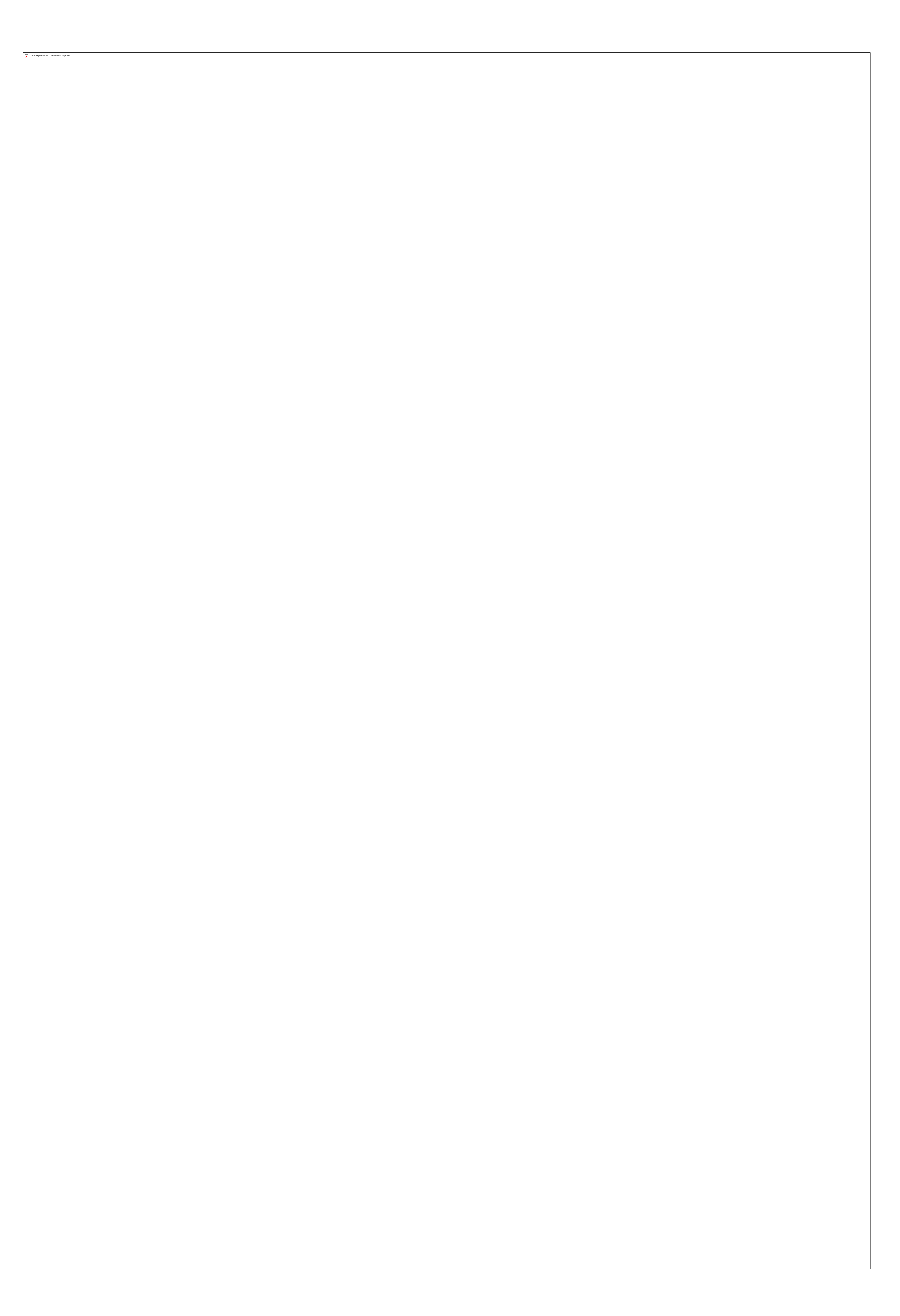


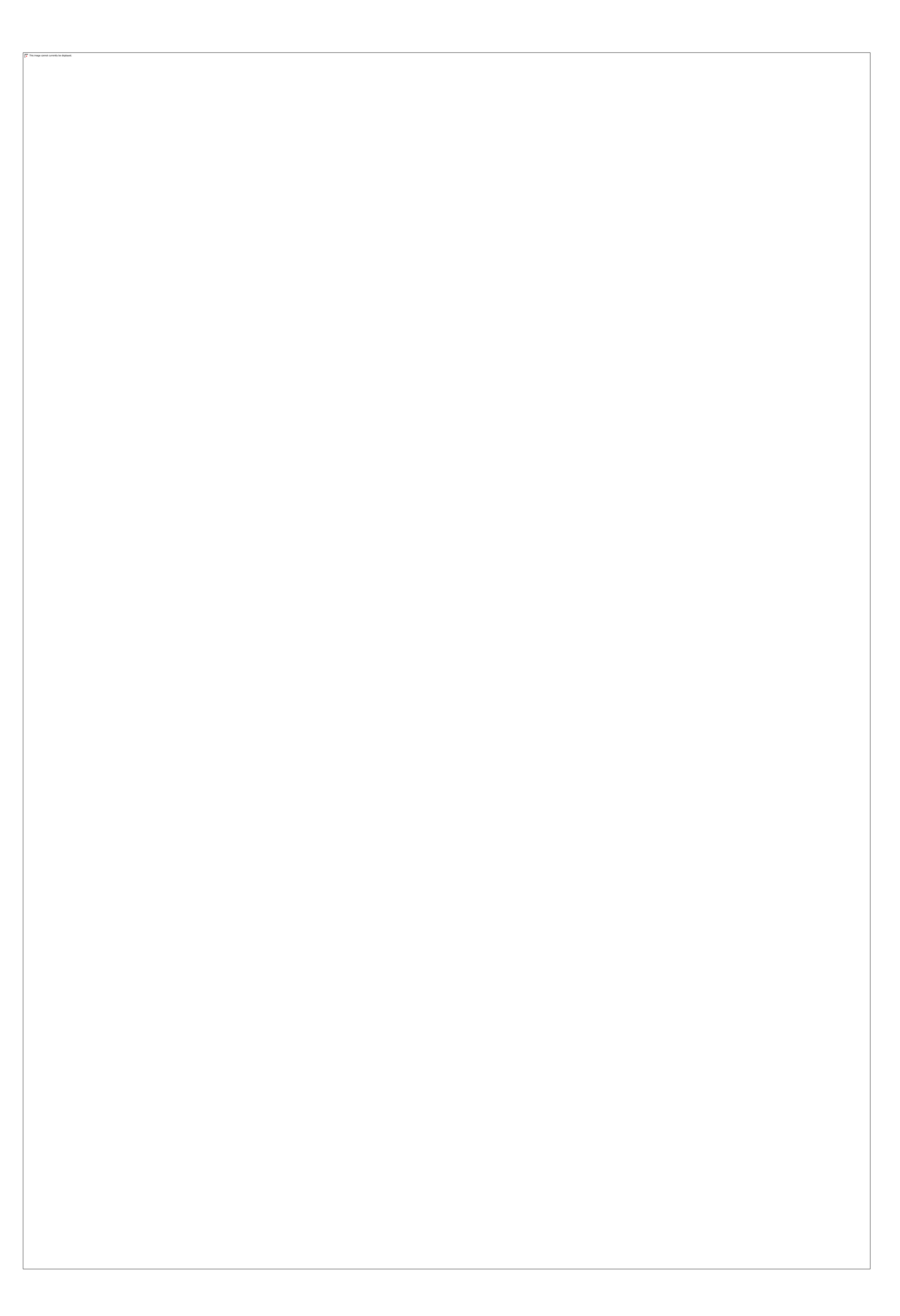


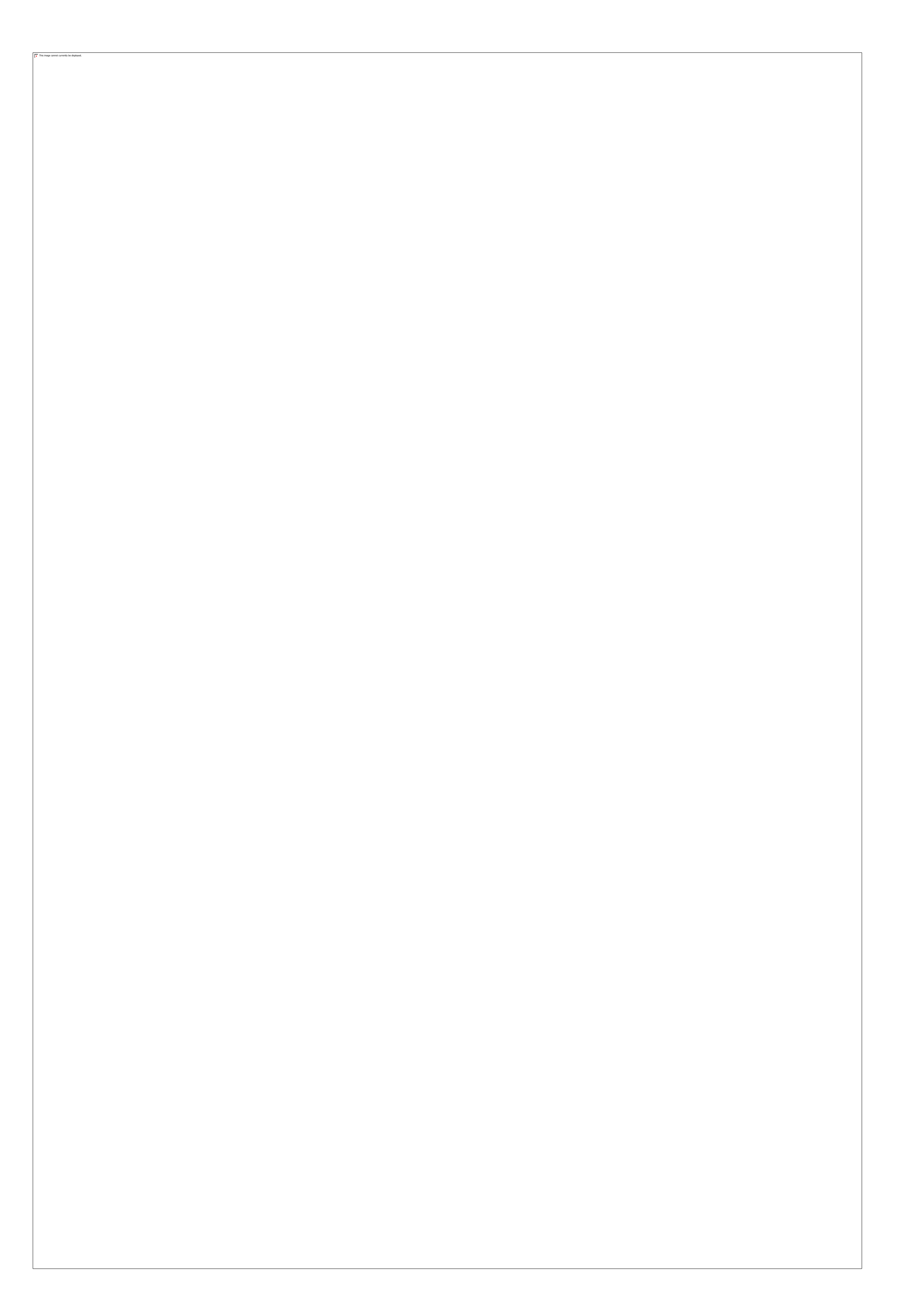


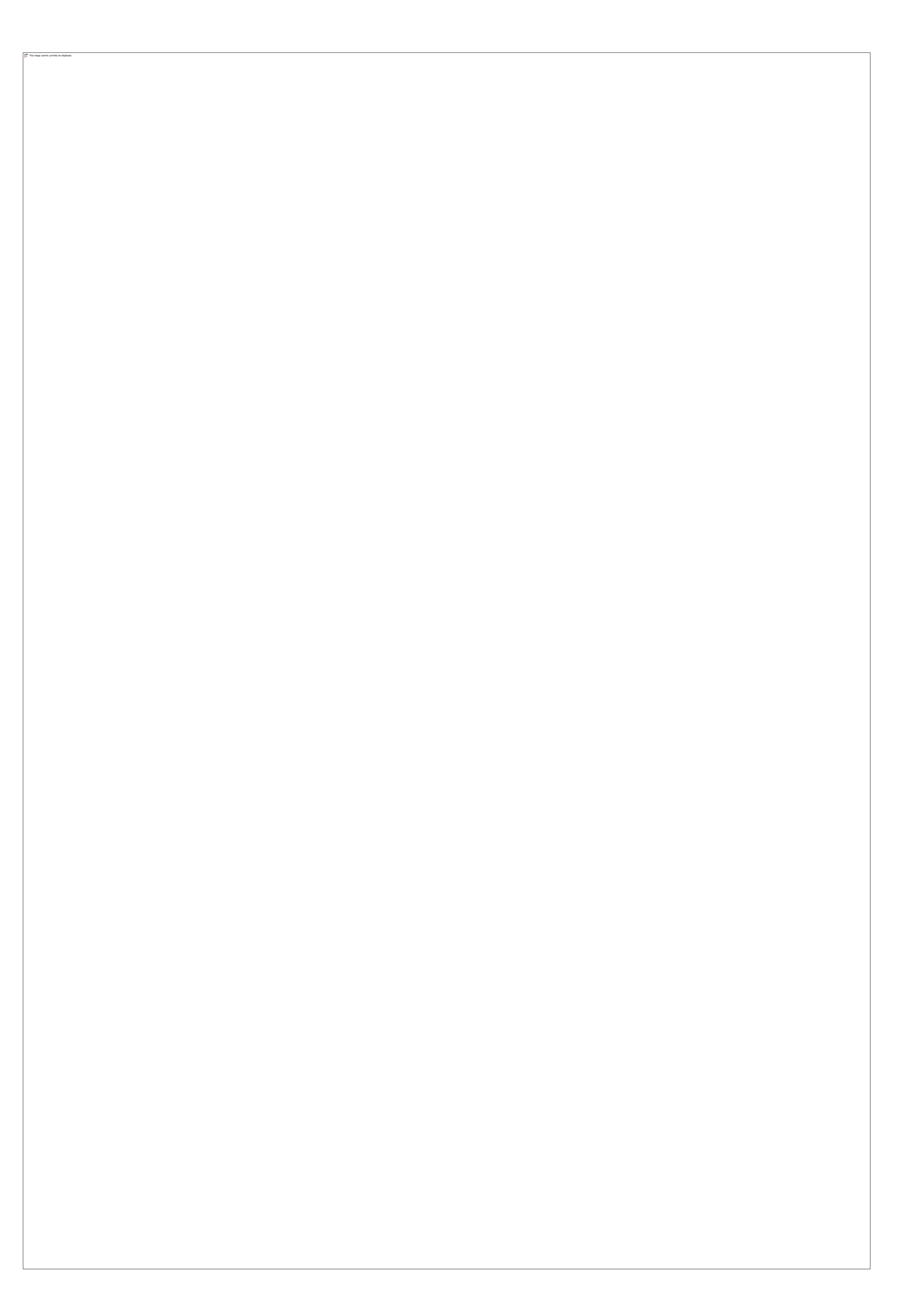


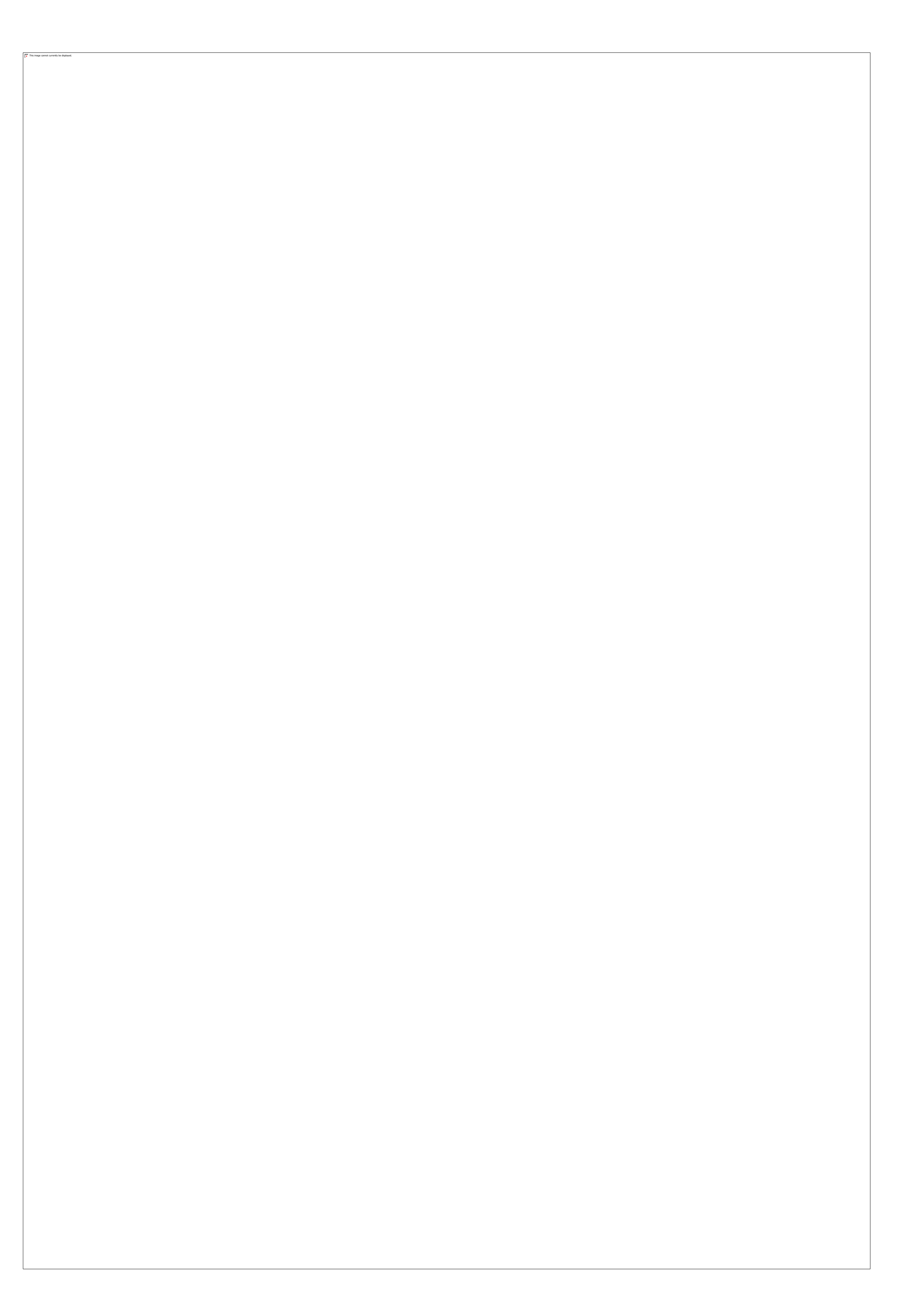


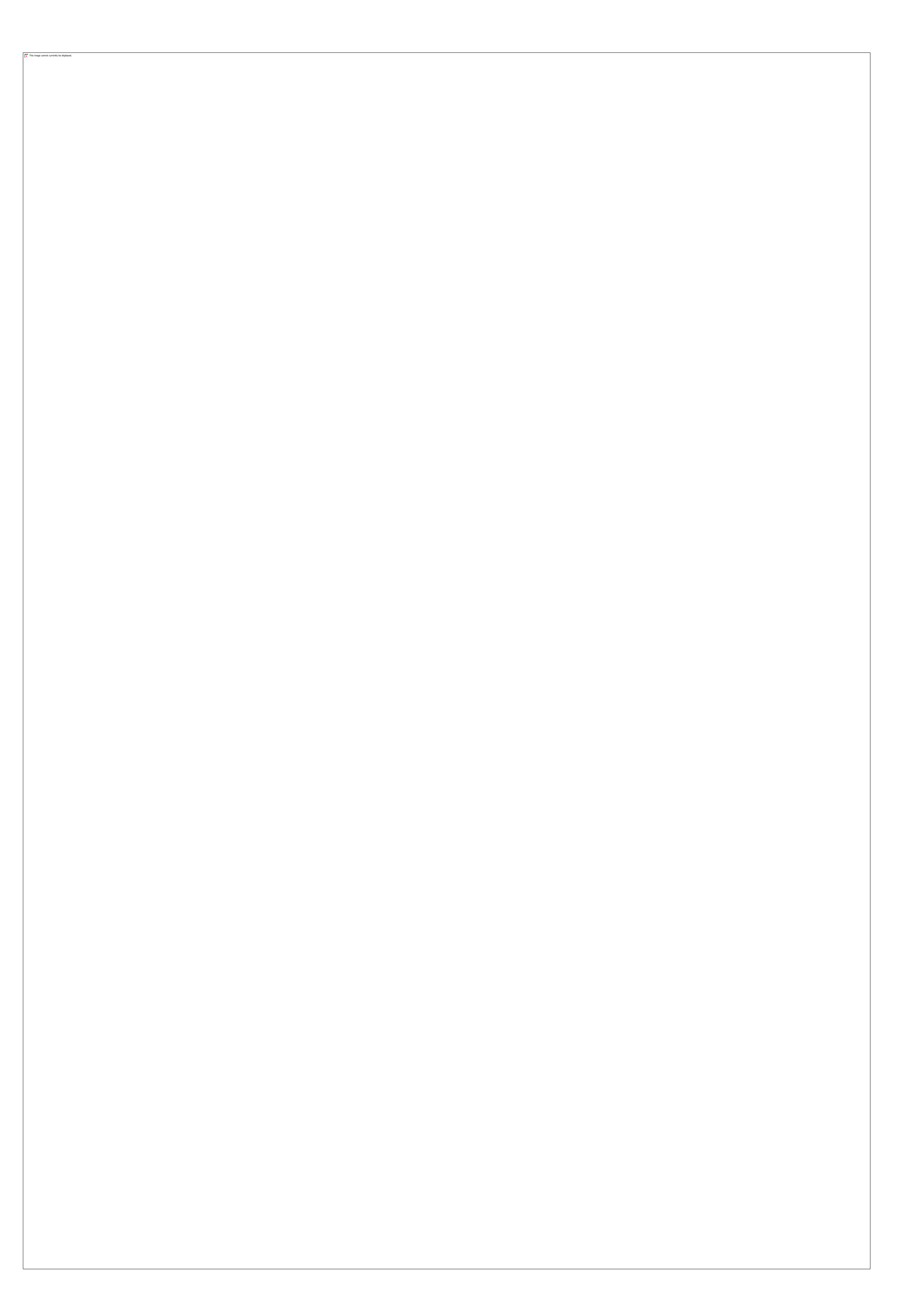


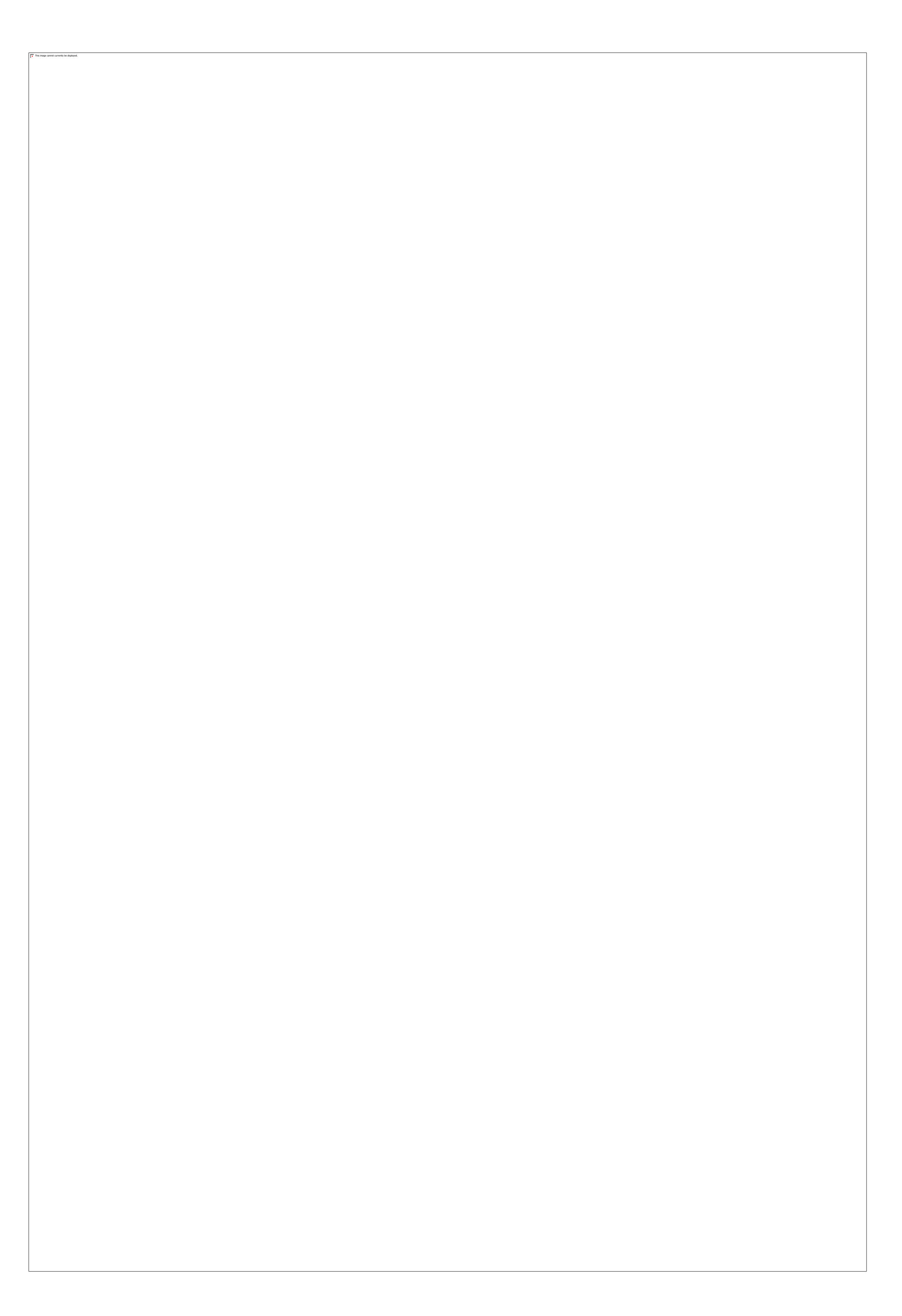


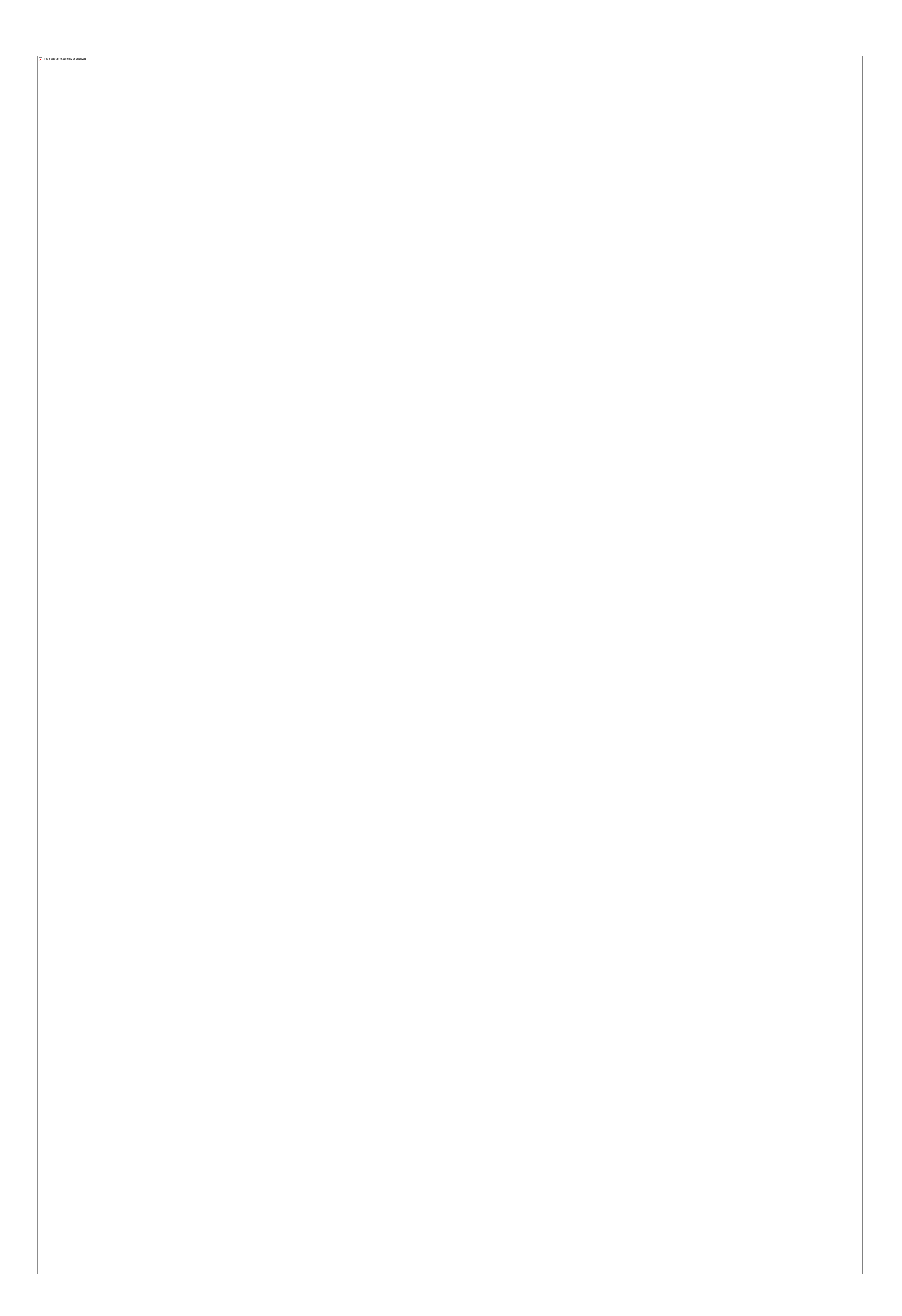


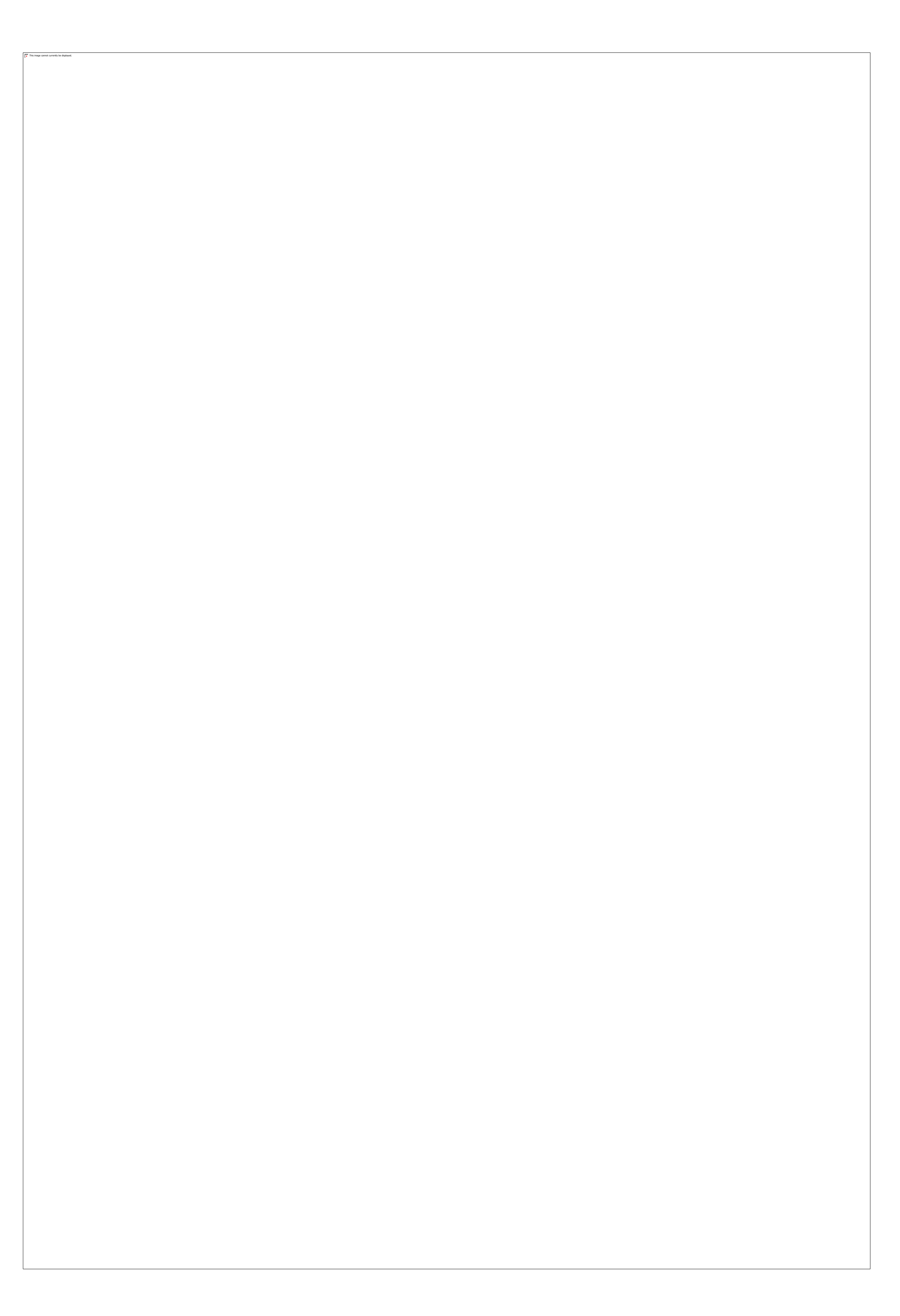


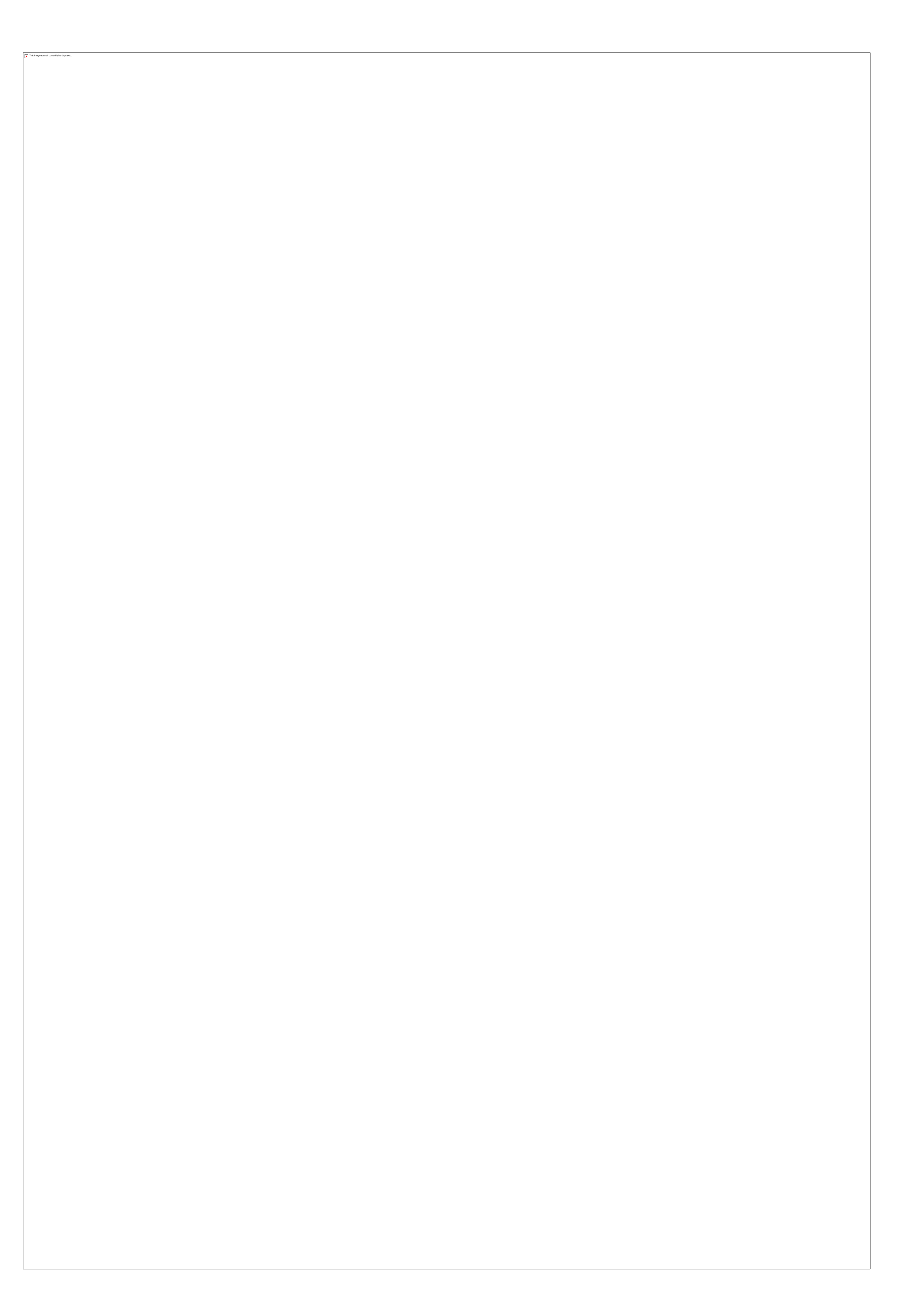


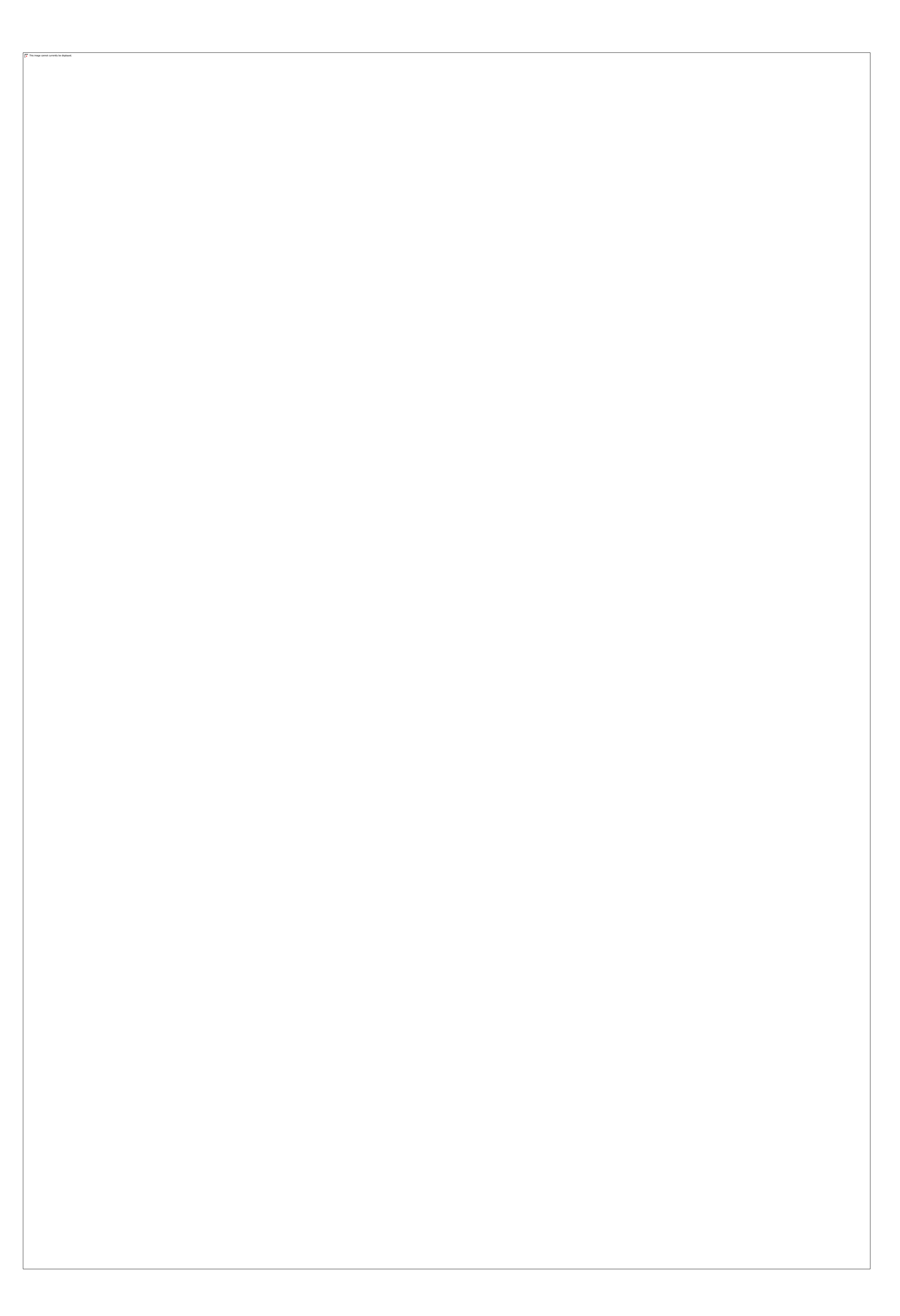


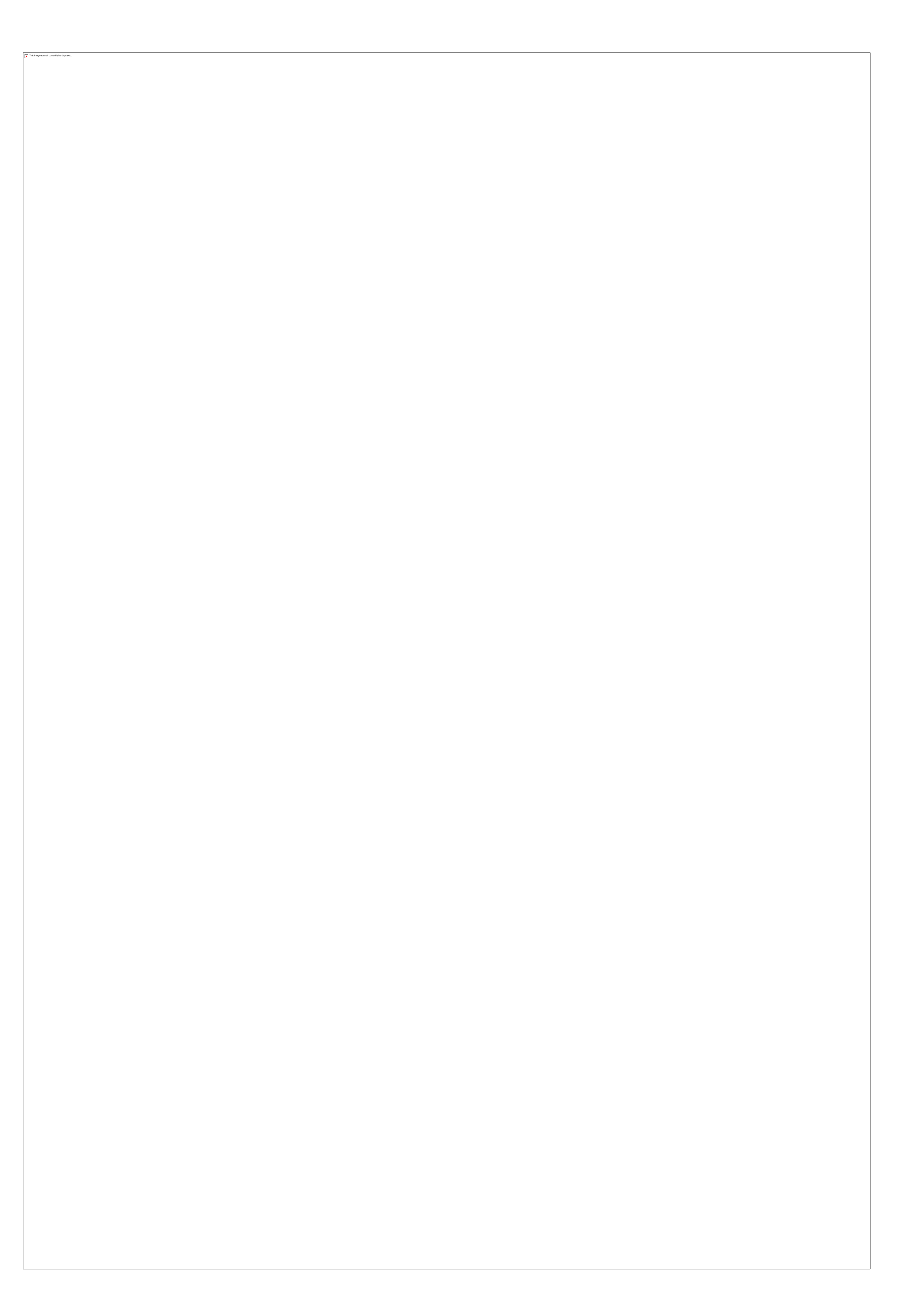


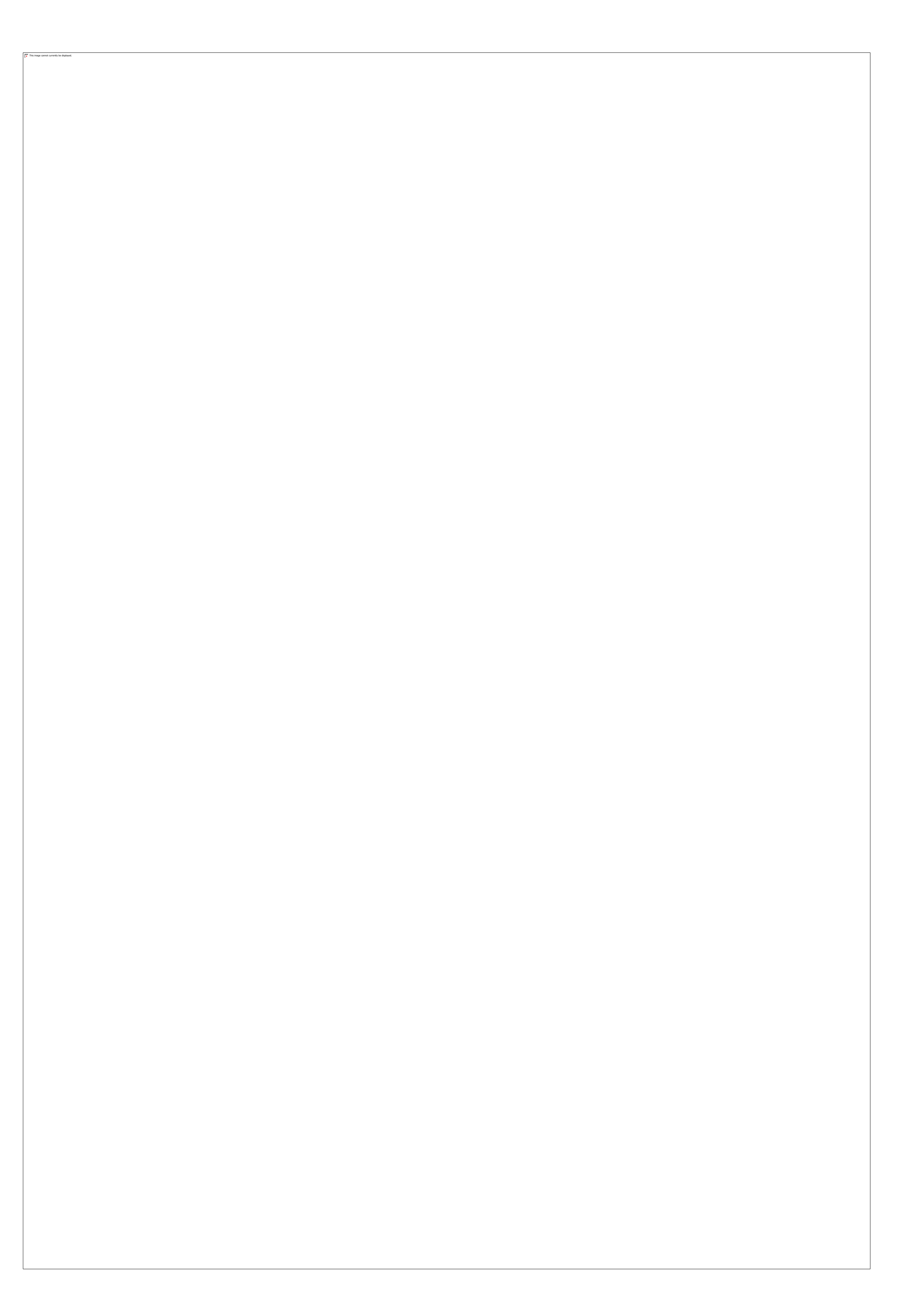


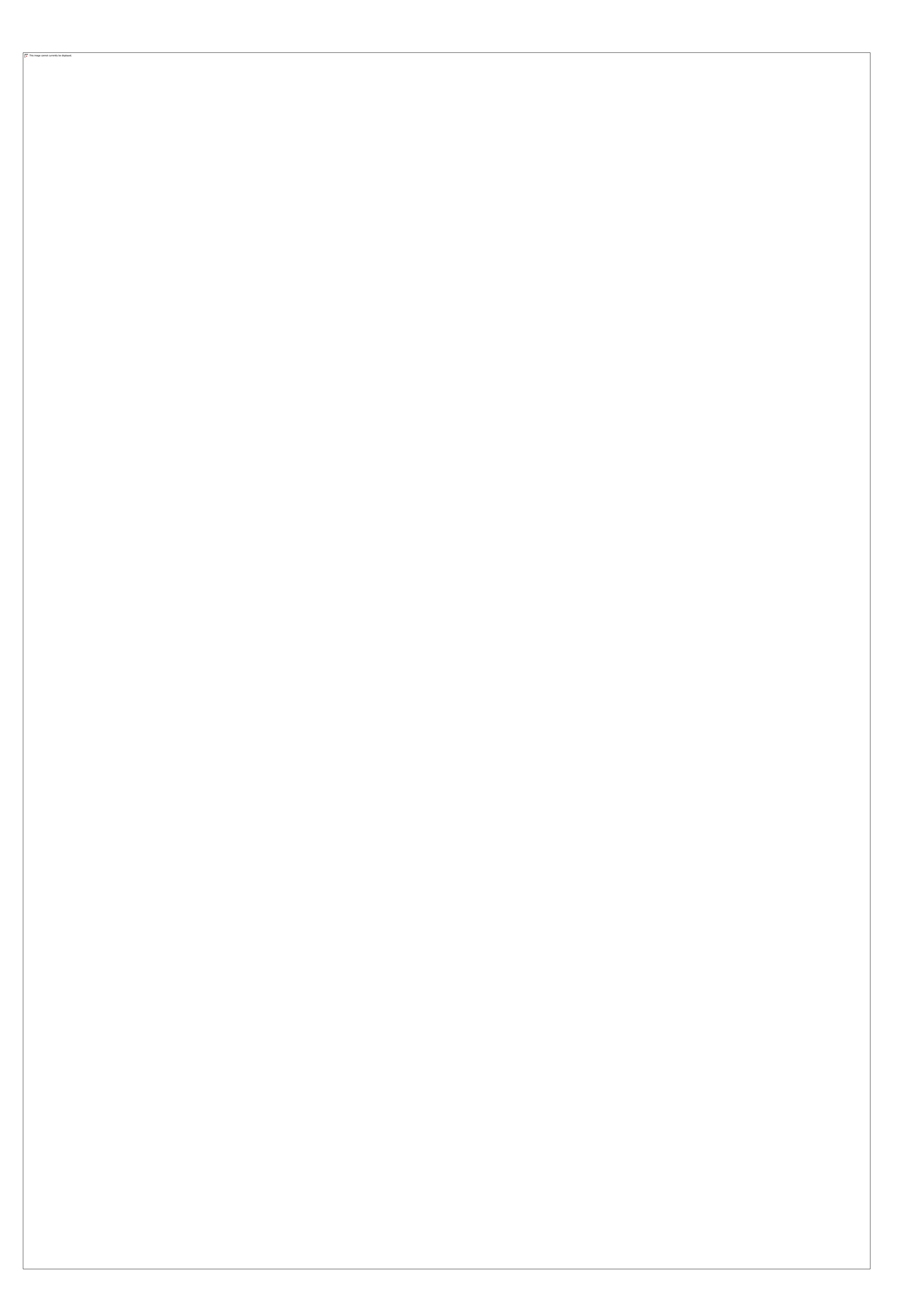


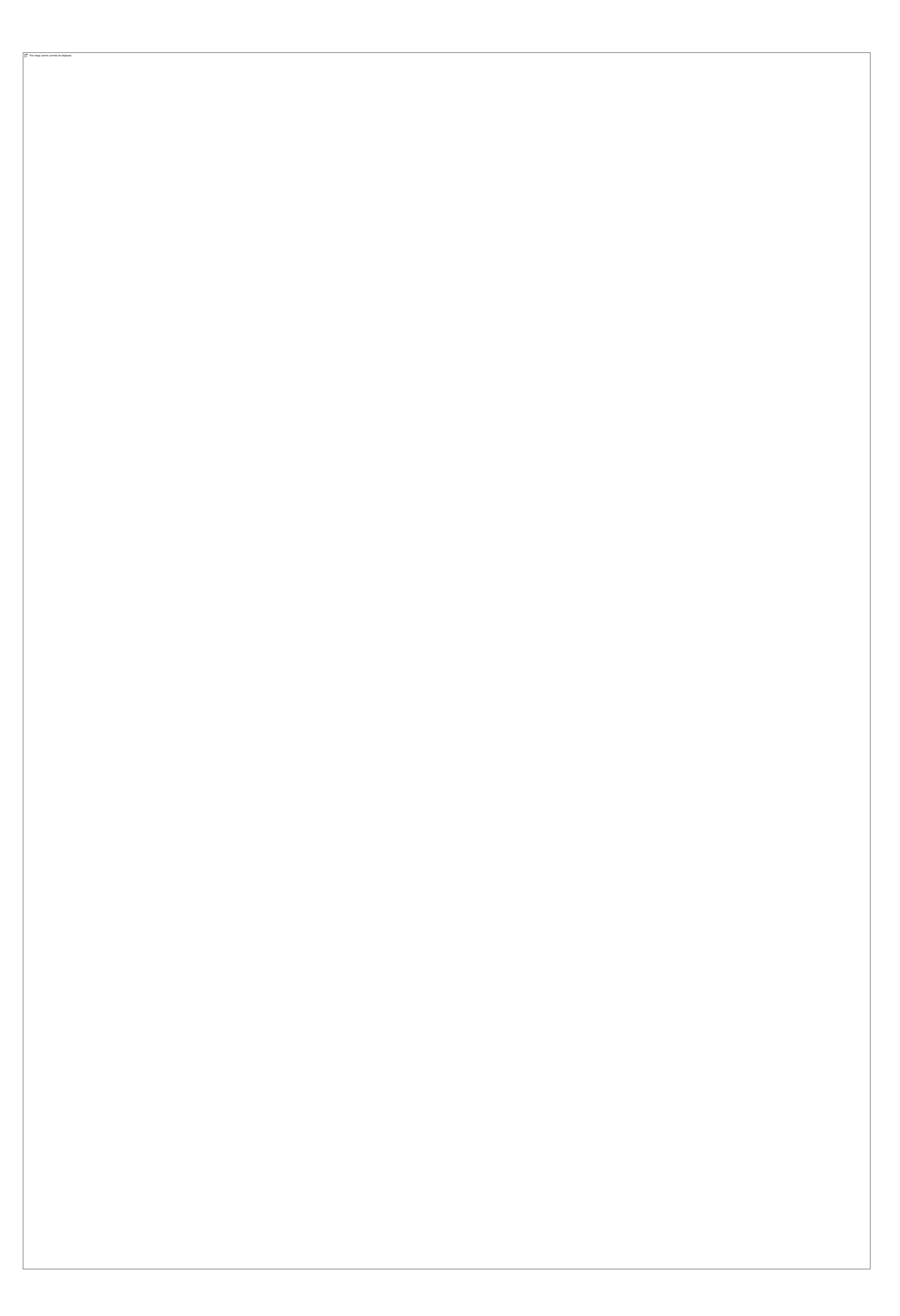


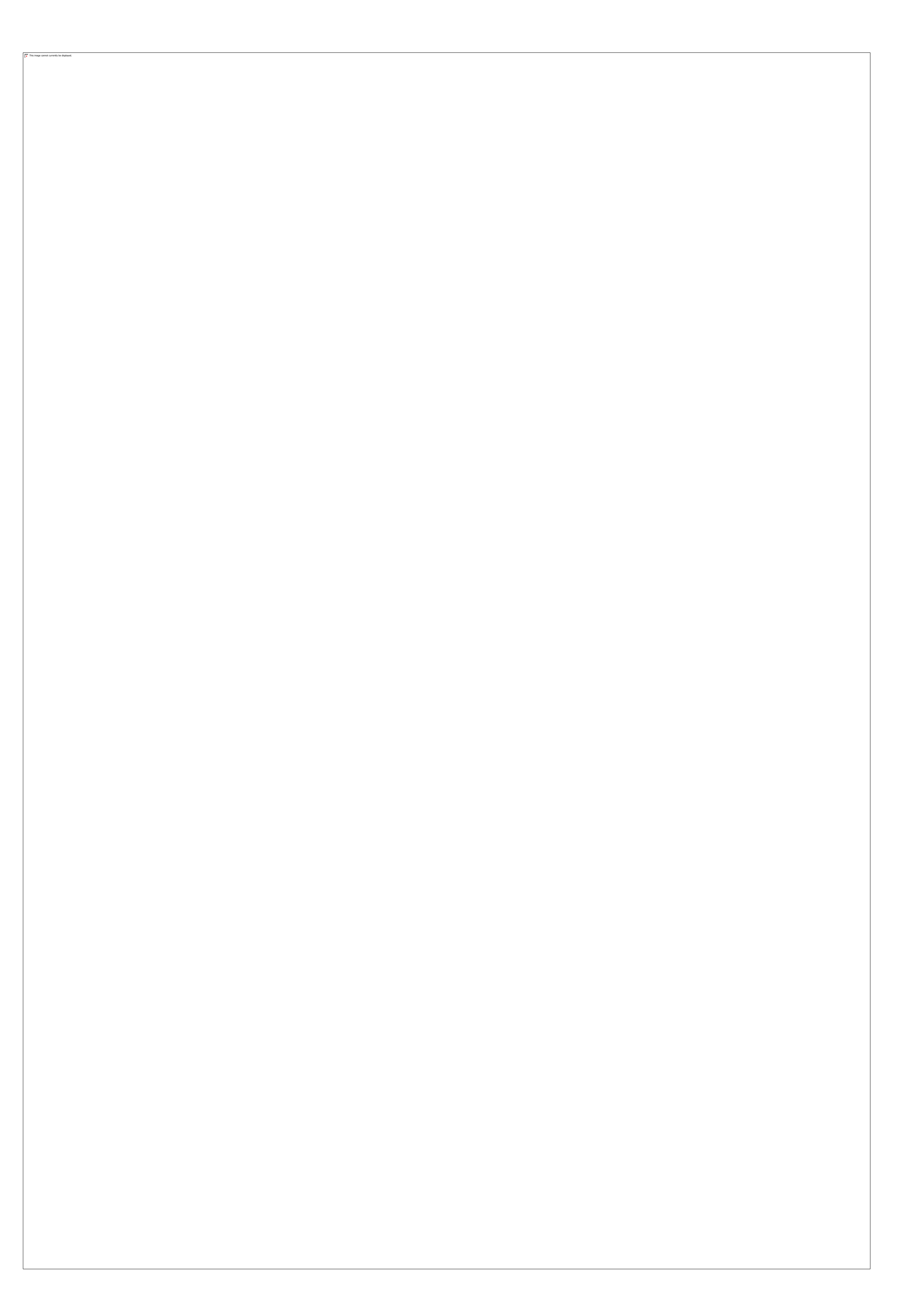












ودولة محمد: شورى . . كان بلال واليًا على المدينة . . وفيها عظماء الصحابة، وكان مهران الفارسى واليًا على اليمن .

رأى عمر رجلاً يزنى ، فجمع أصحابه وقال لهم : ما رأيكم فى أمير المؤمنين لو رأى . . قال علىّ : يأتى بأربعة شهود ، وإلا أقيم عليه حد القذف !!

تخرج من المسجد . . . فتتحرك . . وتتكلم . فتنشر ـ طاقة الإيمان .

وإذن . . فأنت فى حاجة إلى « شحن البطارية » فعد إلى المسجد . .

مسؤولية الأسرة : تهرب « دجاجة » ، فيخرج الجميع فى طلبها ، ويؤذن للصلاة . . فلا يخرج أحد !!

الصلاة : نفعها يعود عليك وحدك .

أما الصِّلات : فينتفع بها غيرك .

مثل الصدقة . . لماذا ؟ لأنها مجموعة عبادات :

لأنك تشارك الفقير فى عبادته ، التى قوّتها الصدقة من دون نقص فى أجر الفقير المتصدق عليه .

قال شاعر فى جارية حسناء تسمى « مظلومة » :

مملوكة تملك أربابها

ما شانها ذاك ولا عابها

قد سميت بالضد مظلومة

وهى التى تظلم أصحابها

﴿ **أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى** ﴾ : لا تخف . فالكريم إذا بدأ أكمل !

قال أعرابى لابن عباس : من يحاسب الناس يوم القيامة ؟ قال : يحاسبهم الله تعالى ، فقال : نجونا إذن ورب الكعبة !

فقيل له : وكيف ؟ قال : إنَّ الكريم لا يدقق فى الحساب .

لا تحقرنَّ جارة :

لماذا . . الجارة . . ولم يقل : الجار .

١ ـ الزوجة أكثر وجودًا فى البيت ، فهى مأمورة أولاً بحسن الجوار . . لأن أمرها آكد .

٢ ـ ثم لأنها عاطفية . . ويعنى هذا أنها :

سريعة الغضب .

سريعة الفرح . أعنى : متقلبة .

وإذن . . فالخوف منها بسبب هذا التقلب داع إلى التركيز عليها .

ثم . . فيما يتعلق بالجارة الآخذة : فهى خائفة من تقلب جارتها . . فلا تأخذ ومعنى هذا أن الحديث متجه للاثنتين : المعطية والآخذة ؛ لأن المعطية تحب البهرجة والجمال و « فرش الشاة » لا جمال فيه . ولا جدوى منه . فأمرت ببذله إذا لم تجد إلا هو .

« إديسون » المخترع : قيل له وقد بلغ الثمانين أرح نفسك ! فقال : إننى حتى الآن . . لم أبلغ من الكبر عتيًا .

ومن صبره ومثابرته : أنه فشل مائة مرة فى تجاربه ، فقيل له : وما فائدة ذلك ؟ قال : عرفنا مائة طريقة لا تؤدى إلى المطلوب !

وهو مثل لأناس اليوم بلغوا سن الشيخوخة ومع أنهم حققوا كل آمالهم . . إلا أن الملل قاتلهم . . لأنهم لا يجدون ما يعملوا والإسكندر الأكبر الذى فتح الدنيا . . قتله الملل .

كلام مثل : سلاسل الذهب ، وقلائد الدرر ، وعقود العقيان ، وحبال المرجان .

سأل الطالب شيخه : ماذا ألبس من الثياب . . ؟قال : ما لا يشينك عند العلماء ، ولا يحقرك عند السفهاء .

ما هى البلاغة : البلاغة الإيجاز . . والإيجاز : أن تقول . . فلا تخطئ . وتسرع . . . فلا تبطئ .

حاسيــة الشاعر : لو نــظر إلى سعيد .. أحــس بأنه أسعد منــه ، ولو نظر إلى شقى.. لأحس بأنه أشقى منه !

لا ضرر [غير مقصود] .

ولا ضرار [مقصود] .

الرجوع فى الهبة : يرجع الوالد . ويرجع الجد ، أمـا غيرهما . فقد اختلفوا ، اشترط البـعض : القبض ، أو الإيجاب والقـبول ، وبعضهم قال : يـكفى الإيجاب فقط ، ولا يشترط قبول المهدى إليه .

تهنئة بمولود : بارك الله فى الموهوب ، والحمد والشكر للواهب سبحانه ، أسأل الله تعالى أن يبلغ أشده ، وأن يرزقك بره .

(تطبخ الـعقيقـة .. ولا توزع نيئة .. ولا يـكسر عظمـها .. تفاؤلاً بسـلامة الوليد) .

رثاء الولد : رثى والد ابنه فقال على قبره :

يا بني : شغلنا الحزن لك ، عن الحزن عليك .

سامحته فيما قصر فيه معى .. فسامحه .

وهب لى ثواب تربيتى له ..

ورثى أبو العتاهية ابنه فقال :

بكيتـك يا بني بدمـع عينـي

فمـا أغنـى البكـاء عليـك شيًّا

وكانت فى حياتك لى عظات

وأنت اليـوم أوعظ منــك حيًّا

قال المعزِّى فى قتل ولدَ لوالده : أحمد الله أن جعل منك القتيل !

الكلب :

إذا شبع الكلب .. قوى ..

وإذا قوى .. أمّل ..

وإذا أمّل .. تبع المأمول .

وإذا جاع . . ضعف . .

وإذا ضعف . . أيس . .

وإذا أيس . . ولّى عن المتبوع .

قال أبو حاتم . . دليلاً على أن البذل لمن يبغضك . . أحسن من تركك من تحب . . بلا بذل .

الصحف :

الصحف قلاع من الورق : ولكنها من القوة . . بحيث لا تؤثر فيها المدافع . . ولا الصواريخ !

قال المتعلم لأخيه الفلاح : محراثك من حديد . . ومحراثى من قصب ، وحقلك من تراب . . وحقلى من ورق ! فكلانا زارع .

وما الفرق بيننا . . إلا أنك تبذر من كفك . وأنا أبذر من قلبى .

قال الوالى (لأبى عبيدة بن القاسم « مؤلف غريب الحديث ») لا أريد أن تصحبنى . . لأننى ذاهب إلى القتال ، ولا أريد أن أتعبك . . ولكن خذ هذه الدراهم . . نفقة لك . . واستبقاه فألف الكتاب .

وكان كلاهما مجاهداً : هذا بالقلم . . وذاك بالسيف !

زيادة العقل :

ثلاثة تزيد العقل : مجالسة العلماء ، والصالحين ، وترك الكلام فيما لا يعنى .

ومن هؤلاء الصالحين ذلك القائل : اللهم ما رفعتنى من درجة . . فأنزلنى درجة فى نظر نفسى . اللهم اجعلنى فى عين نفسى صغيراً وفى أعين الناس كبيراً .

إنه يحمى نفسه من الغرور . . راغبًا فى حسن الذكر .

الأبد : وجود . . لا نتصور فيه الحركة .

والزمان : وجود . . لا نتصوره بغير حركة !

كان ﷺ شاهداً (حاضراً) ثم دخل « قائف » وكان « زيد » و « أسامة » رضى الله عنهما مضطجعين . . فقال القائف : هذه الأقدام بعضها من بعض . والأقدام من أظهر مواضع التشابه بين الأقارب .

وكان زيد « أبيض » وكان أسامة « أسود » .

وتقول الرواية : سُـرّ رسول الله ﷺ ، بل برقت أسارير وجـهه ، بل خف . . ليخبر عائشة بهذا النبأ السار . ولم يكن هناك مجال لغامز فى بنوة أسامة .

من أخلاق السيادة :

كان عثمـان رضى الله عنه يلى وضوء الليـل بنفسه ؛ فقيـل له: لو أمرت بعض الخدم . . كفَوْكَ . . فقال : لا .

إن الليل لهم . . يستريحون فيه .

وحمل علىّ فى ملحفته تمرًا . . فلما عُرض عليه حمله قال : لا .

أبو العيال أحق أن يحمل !

اقترب رجل من « سلمان » وظنه « حمّالا » (شيّالاً) وفعلا كلفه بحمل متاعه، فحمله حتى باب داره والرجل لا يدرى !!

قال أنس : كنت أصب على يد رسول الله ﷺ فقال : « **أوصيك بثلاث :**

إذا لقيت أحدًا من أمتى .. فسلم عليه . يطل عمرك .

وإذا دخلت بيتك .. فسلم على أهلك .. يكثر فرحك .

وصل صلاة الضحى .. فإنها صلاة الأوابين »

الخال والعم :

الخال : أشد عطفًـا . . من العمّ ؛ لأن الرجل ينافس أخاه بـأبنائه ، ولا ينافس أخته بـهم . والعمّة أشد عـطفًا من الخالة ؛ لأن المرأة تنـافس أختها بأبـنائها . . ولا تنافس أخاها .

لما طلب أبو ذر الولاية ضرب ﷺ على منكبـه . . ولم يضرب على منكب عمه العباس .

قال عمر بن عبد العزيز لأبى حازم : إنى أخاف من هذا الأمر الذى دخلتُ فيه، فقال له : لا أخاف عليك . . أن تخاف ، وإنما أخاف من ألا تخاف !!

من بلاغة السنة :

رمى صلى الله عليـه وسلم بحصاتين : حصاة . . على بُـعد ، وحصاة . . عن

قرب ، ثم قال للصحابة : « **هذاك الأمل ، وهذا الأجل** » .

عبَّر فى الأمل بكاف الخطاب . . . فلهم حضور معه . . لأن الحديث عن الأمل الذى هو متوهج فى وعيهم .

ثم إنَّ اسم الإشارة هنا أطول من الثانى ، وهو : هذا . . والذي عبَّر به فى جانب الأجل لقد عبر عنه بدون « كاف » الخطاب . . فليس له حضور عندهم . . مع أنه أقرب من الأمل .

كلمتان .. عظيمتان : « سبحان الله .. والحمد لله » :

« **كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن** » .

الخفة : يسر العمل .

الثقل : مع عظم الجزاء .

وأعظم من الجزاء : حب الله سبحانه وتعالى الموصوف بما يشجع ، وهو : الرحمن .

والتسبيح : تنزيه عن صفات النقص .

والتحميد : إثبات صفات الكمال .

ولا ينفرد التسبيح . . . بل هو أبدًا مشفوع بالتحميد .

الورع فى حياة الأوزاعى :

سئلت زوجته يومًا : هل بال الصبى على الحصير الذى يصلى عليه ! فقالت : بل هى دموع الأوزاعى .

وبهذا الإحساس المرهف أتعب الناس معه ، فحرم حتى ما قد يتسامح فيه عادة، فقد سئل عن . . . . بائع البصل ، ينادى : أحلى من العسل . . . . . يا بصل : [يغيظ زميله بائع العسل !] ، فقال : ألا يظن أن ذلك من الكذب ، [الشيطان نفسه نأى بنفسه عن الكذب فيما حكى عنه ﴿ **إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ** ﴾ فقد علم أنهم سيؤمنون ، وخاف على نفسه من تهمة الكذب لو لم يستثن] .

استأذن من « المنصور » ألا يلبس الأسود ـ وهو شعار العباسيين ، فأذن له . .

ولما خرج أرسل ليعرف السبب ، فقال : لم أجد أحدًا أحرم به ، ولا ميتًا كفن فيه ، ولا عروسًا زفت به !!

وكان الأوزاعى يكره السواد . . فلما سئل قال : لم أر أحدًا أحرم فيه ، ولا عروسًا زفت فيه ، ولا ميتًا كفن به .

ومن تيسيره فى الفتوى : أنه أفتى بجواز التيمم من الجليد انطلاقًا من الآية الكريمة : ﴿ فَتَيَمَّمُوا ﴾ ، وهى نفس الآية التى انطلق منها مَنْ منع ذلك ؛ لأن الصعيد هو الغبار فوق الأرض .

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ... ﴾ [الحديد : ٢٥] .

أساس التكليف : فعل ما ينبغى فعله ، وترك ما ينبغى تركه .

والأول : [وهو المقصود لذاته] قسمان :

ما يتعلق بأحوال النفس والقلب . . من المعرفة والإيمان : ﴿ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ ﴾ .

والثانى : ما يكون من المكلف فى معاملته مع الآخرين أخذًا وعطاء : ﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾ .

أما دفع الشر : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ ﴾ .

فذكر الكتاب أولاً . . لتعلقه بأشرف المقاصد .

ثم الثانى : لتعلقه بأحوال الناس .

ثم « الحديد » لتعلقه بآخر المقاصد .

وهو : ترك ما ينبغى تركه .

قرآنيات :

يرى بعض الأئمة : عدم إمامة القارئ [من القراء] .

لأنه لو أخطأ فى آية . . لتهيب الناس ، ردّه . . . فيحسبه الجاهل مصيبًا . . وأنَّ الآية هى كما قرأ .

من أساليب القرآن :

التلقين . . ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ﴾ [الأنعام: ١٤] .

والتقرير : ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ ﴾ [الأنعام: ١٣] .

بعد الحروف المقطعة أوائل السور . . . لوحظ أن القرآن يذكر بعدها باسم الإشارة للبعيد ، فكأنه يقول لهم : الحروف متاحة لكم . . ولكن بُعْدكم .

وأحيانًا : باسم الإشارة للقريب .

والخلاصة : الإتيان بمثله . . بعيد ، ولكنَّ الاهتداء به . . قريب !!

الرد الخالص :

قالت الممثلة للكاتبة : لقد قرأت آخر كتاب لك . . فَمَنْ ألّفه لك ؟

قالت الكاتبة : وأنا سعيدة بهذه الشهادة . . ولكن مَنْ قرأه لك ؟!!

اتحاد الشرط والجزاء :

اتحادهما من دواعي المسارعة إلى العمل . . بل وتجويده . . ما دام هو نفسه الذى سيلاقيك ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا ﴾ .

يضاف إلى ذلك : أن الله تعالى هو المجازى . . ووعده سبحانه حق ، فالثقة بوعده تعالى كاملة .

الذين يجاملون الأحياء ، وينسون الأموات :

المدين الذى يموت قبل الوفاء . . . محبوس بدينه على باب الجنة . . مرهون به .

إنه ممنوع الآن من دخول الجنة . . فى حاجة لا إلى نعى فى الصحف .

ولكن إلى من يحول مال « النعى » لفك إساره .

إسار هذا الرجل الذى دخل كل رفاقه الجنة . . وما زال هو وحيدًا على بابها !!

من أدب الضيافة :

استأذن ﷺ على فاطمة ـ وهى ابنته ـ قائلاً : « **أأدخل؟** »

قالت : نعم .

قال : «**ومَنْ معى**» ؟!!

قالت : ومن معك يا رسول الله !!

ومن آداب المائدة :

ألا يقوم أحد حتى ترفع ، وليتعلل من انتهى من الطعام . . حتى لا يُخجل غيره، ممن له حاجة إلى الطعام .

يقول الله عز وجل فى سورة البقرة (الآية ٢٠٤): ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ ... ﴾ .

إن لديه القدرة على التمويه ما يجعل كل من شاهده من الأغرار يروقه مشهده ، فيأخذ بمجامع قلبه ، ويعظم فى نفسه ، فى إطار من الخداع . . زاعمًا أنه الدرة اليتيمة . . التى لا نظير لها . . ولديه قدرة فذة على المراء ، وكلما واجهه خصمه بحجة غالبة تغلبه . . فى إطار حالة تغشى الإنسان عند إدراك كمال مجهول السبب ؟!

ثم يحاول تحسين قوله . . . ولكن فساد فعله ينقض ذلك .

ولاحظ من تبجحه: أنه يحاول أن يُشهد على ما فى قلبه ، وأنه مطابق للسانه الذى يغرف الحكمة من قلبه هذا . . والحال أنَّ واقعه غير ذلك . . ويستمر عدوه فى الخصومة موهمًا أنه الأحسن والأجمل !! موهمًا خصمه أنه مصلح اجتماعى .

ولكنه فى الواقع مفسد اجتماعى ؟!

وآية هذا الفساد التعبير بالفعل ﴿ سَعَىٰ فِي الأَرْضِ ﴾ [البقرة:٢٠٥] والذى يدل على :

١ ـ سرعته إلى الفتنة .

٢ ـ ومبالغته فيها (بفعله وقوله) .

المؤمن الحق :

هو العالم حقًا ، هو الذى يبحث عن الأعلم منه ، بل كان الرجل لا يتكلم إلا بإذنه . . كأدب من آداب الصحبة . . وهو المنصف .

لما اعترض عمر على أبى بكر فى قراره قتال مانعى الزكاة . . كان ابن عمر فى صف أبى بكر لما استشهد بحديث يؤيد أبا بكر رضى الله عن الجميع .

وسقى الله عهودًا . . . لا تطيش فيها الموازين ، ولا تضل المقاييس !!

من أساليب الدعوة :

إظهار عجز آلهتهم المزعومة ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ...** ﴾ [الشعراء :٦٩] .

والدليل على عجزها هو : ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ** ﴾ [الأنبياء : ٥١] .

ثم التحدى وإعلان التوحيد : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ** ﴾ [البقرة:٢٥٨] .

المحتسب :

وقد يتبادر إلى الذهن : انحصار مسؤولية « المحتسب » عن الأمور ذات الطبقة الدينية من حيث إن هذه الوظيفة تعنى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولكن المحتسب تتجاوز مسؤوليته عن الأمور الدينية . . ليكون له دوره المرموق فى الإصلاح الاجتماعى . . وحماية الناس من أضرار تلوث البيئة .

وقد ذكر « الشيرازى » فى كتابه : (نهاية الرتبة فى طلب الحسبة) : أن المحتسب كان يأمر بأن ترفع أسقف حوانيت الخبازين . . وأن تفتح أبوابها . . وأن يجعل فى « سوق الأفران » منافذ واسعة . . . لتصريف الدخان . . فرارًا من أضرار الدخان وآثاره على صحة الإنسان !

كما كان « المحتسب » يمنع فريق « أهل الصباغة » من وضع أفرانهم فى الشوارع لنفس السبب .

ولا يخفى ما فى هذه التوجيهات من حماية للمجتمع من الروائح الكريهة . . التى يتلوث بها الجو . . والأصل فى ذلك : قوله ﷺ : « **من أكل ثومًا أو بصلاً فليعتزلنا ...** » رواه البخارى .

وذلك مما يحملنا مسؤولية أن تكون مصانع « الأسمنت » خارج الكتلة السكنية حماية للإنسان من خطر التلوث وتغير الرائحة معًا .

وتلك واحدة من أهم مسؤوليات المحتسب . . الذى يحاول البعض حصر مهمته فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وربما جاز لنا أن نقول : إن تلويث البيئة أمر منكر : طبعًا وشرعًا ، ومن صميم مهمة « المحتسب » أن يتدخل لمنع ذلك . . ليكون له دوره الفاعل فى إصلاح الحياة مع كل من يفعل ذلك . . وحتى لا تنحصر مهمته فى صلّ . . وصم . . من كل ما فيه رائحة التدين . . . مما يزهد الناس فيه ؟

رسول الله ﷺ ضيفًا :

كان يزور « أم سليم » كثيرًا . . وهو المعنى المفهوم من قولنا : (كان يغشانا) .

ولما سئل فى ذلك قال : « **لأن أباها وأخاها قتلا معى .. وأيضًا : ليس لها أحد...** » .

وفيه زيارة الحاكم للمحكوم ، وما فيه من تبسط وحسن صلة بأهل الخادم الذين كان كثيرًا ما يمشى إليهم : كان يمشى الهوينا . . لا مسرعًا . ولا متحادثًا !!

وملاطفته للصغار : « **يا عمير : ما فعل النغير** »؟ !

وكانت زيارته غبًا . . . ليزداد حبًّا . أما إذا علم بأن المزور ينشرح صدره من كثرة الزيارة . . فلا بأس !!

ثم كان يصلى فى بيت المزور . . ولا حرج !!

وقد صلى فى بيت « أم سليم » على « فرش » ولم يُعلم أنه تقزز من فراش الصبى . . . بدليل أنه نقّط : رشَّ عليه ولم يغسله .

وكان ﷺ يقبِّل الصبيان . . . بل كان يشمهم . . وأكّد : أنَّ الأصل هو : أنُ كل شىء طاهر . . . حتى تتيقن نجاسته .

وكان يمزح ولا يقول إلا حقًّا ، بعيدًا عن الإسفاف ؛ ولأن المزاح الكثير يضيع الوقت . . ويسقط الهيبة .

إنه مزاح لا يكون للإنسان طبعًا . . . وإنما هو بقدر ما يخفف من صرامة الجِدّ.

وإذا جاز للإنسان أن يكون فى بيته على سجيته . . بخلافه خارج البيت ، فليس ذلك نفاقًا . . وإنما هى القاعدة التى تقرر : لكل مقام مقال !!

وهكذا كان زيد بن ثابت رضى الله عنه : كان فى بيته متبسطًا ، وكان من

مكانتهم عند الناس .

وقد كان من عنايته بالخدم : أن رآه يومًا حزينًا ، فسأله عن سبب ما يرى ؟ وهى « الفراسة » التى تتسع بها العقول . . . وهى « رزق » كما أنَّ المال رزق حتى إنَّ مجنون ليقول : لو كانت عقول الناس كعقلى . . . ما حدثت مشكلة فى الدنيا .

ومن فوائد هذا الموقف : الاستدلال بالظاهر على ما فى الباطن .

ثم هذا المبدأ الاجتماعى وهو : سؤال أخاك عن ماله . . . ولا يعد ذلك تدخلاً فى شؤونه الداخلية !!

والفرق هائل بين : قولك لأخيك فى مواجهته : ما لك ؟ واغتيابك له فى غيابه!!

ثم من أحكام الموقف : جواز حبس الحيوان فى القفص مع إطعامه .

ومما يؤخذ من الموقف : أن يرضى الزائر بالموجود : فالجود بالموجود ، بدليل أنه ﷺ نضح الفراش القديم ، ونعم الإدام : الخلّ !!

ثم ليس من حق الزائر أن يشيعه المزور إلى عتبة الدار.

وهكذا كان ﷺ : يعطى كل من له به صلة . . بل كل واحد فى المجتمع حقًّا من الإكرام .

فى الدعوة :

تتعدد أساليب القرآن الكريم فى الحوار . . بتعدد النماذج التى يحاورها . . وتنوع اتجاهاتها :

فهناك من يكفر بحقائق الإسلام مثل : النمروذ . . . وهناك من يتعجب منها كهذا الذى مرّ على قرية . . وهناك من يسأل رغبة فى العلم . . . والذى يتوّجه فى النهاية بالعمل به ، وهذا الذى سأل متعجبًا : ﴿ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ «فأماته » ليهيئه للعلم بها . . . بعدما تساءل مستبعدًا إعادتها كما كانت وبعد مدة الفناء هذه لتكون الإعادة أولى على القدرة .

ومن مظاهر القدرة :

١ ـ حفظ ما شأنه التغير .

٢ ـ تغير ما شأنه البقاء .

٣ ـ إعادة ما فنى وبلى .

ثم لفت نظره إلى أن هذا طعامك كما هو ، لم تغيره السنون على تطاولها وقوة تقلباتها وتأثيرها ، وتسكين الهاء فى « يتسنه » يعنى : أن الأمر جازم يقينى لاشك فيه . . « ولنجعلك » : لتصير أنت بنفسك دليلاً لمن جاء من بعدك على شاكلتك .

« ننشزها » : نعيدها كما كانت ، « فلما تبين له » بعد تردده بين ما كان يعتقده وما يشاهده فعلاً : قال « أعلم » : وهو اعتذار عن تعجبه السابق بما تنطق به فطرته فالله على كل شىء قدير : يحييك . . . ثم يعيدك .

الدعوة الفردية :

أهميتها :

١ ـ وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

٢ ـ فى غياب الوسائل الإعلامية .

وهى طوق النجاة . . . ولصاحبها أجره . . فى الدنيا . وفى الآخرة .

هؤلاء هم اليهود :

إنه لشىء جميل حقًّا أن يجد الداعية نفسه أمام مدعو :

طالب للحق . . راغب فيه . . ملتزم به .

بل واقف مع الداعى فى خندق واحد يدعو إلى نفس ما يدعو إليه ، وذلك هو المدعو المسترشد .

أما المعاند فهم : اليهود : الذين يُدْعَوْنَ إلى كتاب الله ليحكم بينهم . . . ولكنهم عاندوا : سألوا الرسول ﷺ كتابًا . . . ومن السماء .

وطلبوه جملة : دفعة واحدة . . . لا مفرقًا ؟ !!

وذلك بعض ما يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ **يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾ .

وهذا الموقف دليل علـى أنهم : غير مسترشـدين مع أنهم كانوا يستفـتحون على الذين كفروا قـائلين : سوف يبعث نبى نكون مـعه عليكم . . فلما جاءهـم ما عرفوا كفروا به .

وهنا نـقول : إن الحقـد وإن الحسـد كان من وراء هذا الجـحود ،وإذن . . فـما أصعب مهمة الرسول مع هؤلاء :

كل العداوات قد ترجو مودتها

إلا عداوة من عاداك عن حسد ؟!

ويجىء قوله عز وجل : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا ... ﴾ والمعنى :

أ ـ إنكم معترفون مقرّون بأنّ هؤلاء الرسل لـم ينزل عليهم الكتاب جملة واحدة ولم يقدح ذلك فى نبوتهم ، فكذلك محمد ﷺ .

ب ـ ثم إنكم معترفون بأنَّ الله تعالى كلّم موسى تكليمًا . . ولم يقدح ذلك فى نبوة من لم يكلمهم الله تعالى . . فكذلك محمد ﷺ .

جـ ـ ما هو المقصود من الرسالة ؟ !

إنه : البشارة والنذارة ، وذلك متحقق فى الحالين : نزل منجمًا أو دفعة واحدة .

د ـ بل إنَّ نزوله منـجمًا أدعى للقـبول . . بدليل : أنكم لم تـتحملوا مسـؤولية الكتاب لما نزل دفعة واحدة .

ولكنهم مع ذلك عاندوا معلنين رفضهم للشهادة .

ويجىء الرد الحاسم : إنَّ الله تعالى شاهد لك . . وسواء بعد ذلك شهدوا أم لم يشهدوا فكفى بالله شهيدًا .

ومن فحوى الآيات تبدو لأهل الحق دروس من شـأنها أن تربط على قلوبهم . . فى مواجهة من يُدلون عليهم بفوتهم . . ومنها : قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا ﴾ وما تدل عليه حتى ترى العظمة الشاهدة بأن الله تعالى يدافع عن الذين آمنوا ﴿ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ : فالمؤمنون فى حراسته عز وجل .

ولاحظ من مظاهر هذه الـعناية : أ ـ فى مخاطبتـه ﷺ . . والإعراض عنه . .

مما يفرض على قافلة الإيمان أن تمضى . . ولن يضرها نباح الكلاب !!

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ :

وإذا كان من واجبات الداعية أن يخاطب الناس على قدر عقولهم ، ولا يحملهم على عقله . . فإن هؤلاء بلا عقول . . وخطابهم ضائع لا ثمرة له . . وحسابهم على الله .

وكيف تكون لهم فى رؤوسهم عقول يفكرون بها . . . وهم يطلبون رؤية الله سبحانه جهرة ؟!! ويعترضون لا للاسترشاد . . وإنما هو العناد .

جاء ابن أم مكتوم للرسول ﷺ باكيًا لما نزل : ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى ﴾ قائلاً: وأنا رضيت بالعمى فى الدنيا . . لكن فى الآخرة ؟

فنزل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ ﴾ وهذا هو قدر المسلم الذى يغالى به الإسلام بمثل هذا الوحى الأعلى . . والذى طيب به الخالق خاطر المخلوق .

كنت أقوم بتدريس مادة الثقافة الإسلامية بكلية العلوم بجامعة المنوفية . . وافتقدت طالبًا متميزًا فلم أجده . . وبعد المحاضرة . . فوجئت به على حصير مسجد الكلية محمر الأوداج . . عالى الصوت وبين يديه طلاب جدد . . يلقى عليهم محاضرة فى كيفية صلاة التسابيح !! وقلت له على الفور :

كان المفروض أن تصحب . . هؤلاء المريدين لتسمع ما كنت أقوله فى قاعة الدرس تعليقًا على آيات كونية فى حاجة إليك الآن . . حتى إذا خرجت غدًا « فى سبيل الله » داعيًا إلى الله فى أوروبا أو أمريكا . . لم تكن قصاراك أن تصرخ فى البرية قائلاً : يا عباد الله . اتقوا الله . بينما عباد الله ليسوا معك . . لأنهم لا يفهمون لغتك ، ولو فهموها ما استجابوا لها . . وإنما هو العلم . . . الذى من بابه يدخلون إلى الإسلام !!

نفثة مصدور !! ، وليت شعرى : إننى أكتب هذه السطور وأنباء مذبحة الأقصر تترامى إلىّ . . وقلت : ربما كان بين هؤلاء السياح القتلى أمثال : « مريم جميلة » ، أو « محمد أسد » ، و « ناصر الدين » ، و « جوته » ، و « جرينيه » .

هؤلاء الذين أسلموا بعدما ناصبوا الإسلام العداء .. ثم هبوا للدفاع عن الإسلام عن طريق مؤلفات أحدثت دويًا هناك .. وأسلم بسببها خلق كثير .

ثم .. ماذا .. لو كان هؤلاء الإرهابيون تجارًا .. كتجار الهند هناك على نواصى الأقصر .. يعرضون مع بضاعتهم حقائق الإسلام .. يحملون البيان القرآنى.. وليس السلاح .. يفتحون به أعينًا عميًا ، وقلوبًا غلفًا .

ماذا لو جاسوا خلال المعابد باحثين عن أصدقاء من هؤلاء الوافدين ... يطارحونهم الفكر .. ويبادلونهم الخبرة ، بدل أن يحملوا السلاح .. يحصدون به الأرواح ؟

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ .

وليت شعرى ... أخيرًا .. وليس آخرًا : ماذا جنى الذى هدم المعبد على رأسه ورؤوس الآخرين ..

ماذا أفاد الثور الهائج فى متحف من زجاج ، سقط الثور .. يتشحط فى دمه ، وذهب عبق التاريخ ، ومات ناس .. ربما كان فيهم مسلمون بالقوة .. أوشكوا أن يكونوا مسلمين بالفعل .. فقتلناهم وقتلنا فى أصلابهم نطفًا . ربما صارت مسلمين يعبدون الله .

تأملات فى الآية الكريمة :

﴿ ... وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا ﴾ .

وسوف نصحب ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه القيم « مفتاح دار السعادة » ودورنا ينحصر فى :

١ ـ التبسيط ... والتوضيح .

٢ ـ وإثارة الشهية لما فى كتب التراث « القديم » من وسائل « جديدة » تأخذ بيد الحائرين إلى بر السلامة .

يقول ابن قيم الجوزية : الحكمة فى إخراج الأقوات والثمار والفواكه .

اقتضت حكمة الله تعالى أن تخرج هذه : متتابعة شيئًا بعد شىء .. ولم تخلق جملة .

لماذا التلاحق والتتابع :

١ ـ خلقت أولاً على السّوق والأغصان . فراراً بها من عفونات الأرض .

٢ ـ لو خلقت جملة فاتت مصالح كثيرة ، فالفصول فيها الحار . والبارد . والمعتدل ، وكل ثمر موافق لفصله تحقيقًا لمصلحة معينة .

٣ ـ وفيها منافع أخر : علف الدواب . . والخشب . . والورق . . والنَّوْر . . والسقف .

وأدوات الأبنية والسفن والأوانى والنوار : للأدوية والمنظر البهيج الشاهد بحكمته تعالى ولطفه .

وهذا النَّوّار الرطب . . والورق الأخضر كيف خرج من هذا الخشب ، وهذا الحطب ثم الثمار المتنوعة فى : أشكالها ، أحجامها ، ألوانها ، طعومها ، رائحتها ، منافعها ، وأصباغها ، وجعلت الشجرة كالأم لها .

وسخر لها الشمس . . . لتنضجها ، والرياح لواقح . . والمطر حياة .

ومن التتابع : أن تجىء الفاكهة فى أوانها صيفًا وشتاء إلخ ، ولاحظ أن المتأخر عن موسمه : مملول . . محلول الطعم ، والأشجار تحتاج إلى غذاء .

ولما لم يكن لها أفواه . . . ولا حركة . . جعلت لها أصول تمتص . . ثم توزِّعه حسب الحاجة . . . كل له شِربٌ معلوم .

دلائل الحضارة : للأطناب أوتادها . . كذلك للشجر أطنابه التى يصمد بها للعواصف . . وكلما امتدت الشجرة طولاً . . كلما عمُقت عروقها . . جذورها . . وفى كل الجهات . . لتبقى تؤتى أكلها .

النواة :

١ ـ كالعظم يكسوه اللحم . . . ولولاها لتفسخت الثمرة لطراوتها .

٢ ـ ثم النواة لبقاء النوع ، ففيها مادة الحياة . المستمرة ما بقى هذا النوى .

٣ ـ فيها : أدوية ، غذاء للحيوان ، أصباغ ، أدهان .

ثم جعل للثمرة الضعيفة غلافًا يحميها كالرمان والجوز واللوز .

الورقة الواحدة لها : عروق ممتدة .. مبثوثة .. وهى غلاظ [طولاً وعرضًا] كأنها الأعصاب الممسكة بها حتى لا تضمحل ، وبينها دقاق كأنها العروق التى تمد الورقة بالحياة والنضارة .

ولو حاول البشر بما استحدثوا من أساليب صنع ورقة بهذه الدقة لظلوا أعوامًا ، ثم فشلوا ... وسلموا الأمر لله تعالى .

والورقة : زينة للشجر ، وستر ، ولباس للثمرة ، ووقاية من الآفات ، ولو جردت الشجرة من ورقها .. فسدت الثمرة ، وإذا قُطعت الثمرة بقيت الورقة حامية الأفنان الصغيرة حتى تكبر وتستغنى عنها .

الحبوب : كالبر والشعير : الحب له قشور ... على رءوسها أمثال الأسنة حماية من الطير ... الذى عليه أن يأكل قدر حاجته ، ويبقى ما يكفى الإنسان الذى زرع وتعب. ولو خلت من ذلك لأفسدها الطير .

حَمْل الأشجار ووضعها :

سافرْ بفكرك فى عجائبها : فهى تحمل .. وتثمر .. وتقدم لك أولادها : زرعًا للآكلين . وزهوراً للناظرين .. تمتعك بأنفاسها ودواء للمرضى .

ومع ذلك : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ كيف ؟

١ ـ يشتغل بالنعمة ... عن المنعم سبحانه .

٢ ـ بل يستعين بها على معاصيه تعالى .

٣ ـ بل يجحدها بالمرة .

ولاحظ شجر البطيخ واليقطين لما كان حمله ثماراً كباراً .. زحف على الأرض.. لماذا ؟ لأنه لو انتصب قائمًا : ضعف عن حملها ، نقصت الثمار عن حجمها وفسدت .

النخلة :

كمثل المؤمن .. ووجه الشبه :

١ ـ ثبات أصلها .

٢ ـ طيب ثمرها . . وحلاوته وعموم نفعه ، كذلك كلام المؤمن . . . طيب مثلها .

٣ ـ دوام لباسها . . فلا يسقط أبدًا . كذلك المؤمن لا يزول عنه لباس التقوى .

٤ ـ سهولة تناول ثمرها . . كذلك المؤمن سهل لا بالغر . . ولا باللئيم .

٥ ـ ثمرها : طعام ، وفاكهة ، ودواء .

٦ ـ أكثر الأشجار صبرًا على الرياح والعطش .

٧ ـ كلها منافع .

٨ ـ كلما طال عمرها زاد ثمرها . . . وجاد أيضًا .

٩ ـ قلبها من أطيب القلوب وأحلاها ، وكذلك قلب المؤمن .

١٠ ـ لو تعطلت منها منفعة فلم تثمر عامًا مثلاً بقيت فيها منافع أخر . . كذلك المؤمن : لا يخلو من خير أبدًا .

بسم الله الرحمن الرحيم :

﴿ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْأَمُ الْإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩) ﴾ [فصلت: ٤٧ـ٤٩] .

المفروض أن يكون للمسلم وجود فى حاضره ينميه . . ويطوره .

مستفيدًا من تجارب الماضى . . متطلعًا إلى مستقبل أفضل ، أما الهروب إلى الماضى تغنيًا به . . فهو الانبهار ، وهو مجرد موقف سلبى . . عقيم .

من تدبير القدر الأعلى :

كان هناك قرار بعدم تولى الموالى الأمور السياسية . . . وقد كان ذلك القرار من حيث لا يحتسب صاحبه . . كان لمصلحة الدعوة ، فقد كان فى الموالى ذكاء . .

فاستعاضوا عن السلطان بالاستبحار فى العلم ، فكان أكثر العلماء من الموالى :

فكان منهم المفتون ، والخطباء ، والدعاة ، وبهم دخلت الدعوة عصر الازدهار :

١ ـ فقد دخل الموالى الإسلام راغبين (وكان من أسباب دخولهم عدل الحكام) .

٢ ـ وقد درسوا الكتاب والسنة بدقة .

٣ ـ ثم وازنوا بين ما كانوا عليه من ضلال وبينة . فربحت تجارتهم .

٤ ـ كانوا فى نفس الوقت تلاميذ للصحابة الكرام .

٥ ـ فبلغوا بذلك مرتبة نَفَسهم عليها العرب .

ونذكر هنا ما جاء فى العقد الفريد : [قال لى ابن أبى ليلى عيسى بن موسى وكان شديد التعصب للعرب :

فقيه العراق : الحسن بن الحسن وابن سيرين (موليان) .

فقيه مكة: عطاء . . ومجاهد . وسعيد بن جبير . وسليمان بن يسار (موالى).

فقيه المدينة : زيد بن أسلم . محمد بن المنكدر . ونافع بن أبى نجيح (موالى).

فقيه قباء : ربيعة الرأى . وابن أبى الزناد .

فقيه اليمن : طاووس . وابنه . وابن منبه .

فقيه خراسان : عطاء الخراسانى (مولى) .

فقيه الشام : مكحول .

فلما سأل مَنْ فقيه الكوفة : خاف منه ولولا الخوف لقال : الحكم بن عتبة، وعمار بن أبى سليمان (موالى) ولكن رأيته فيه الشر ، فقلت : إبراهيم النخعى والشعبى (عربيان) فقال : الله أكبر وسكت .

وأما الهروب إلى المستقبل فهو فرار من مسؤولية عمارة الحياة بالعمل الصالح . ومن هؤلاء : ذلك الذى سأله ﷺ عن الساعة فقال له : « **وما أعددت لها** » ؟!!

وهذه الآية ترد على هذا الصنف : فإليه . . وحده . . كما يفيد تقديم الجار والمجرور إليه ، فهو وحده العليم : بالساعة . . . متى تجىء .

ويعلم ما تحمل من أنثى . . ومتى تضع جنينها . كل ذلك لا يتم إلا بعلمه هو

سبحانه وحده ، كما يفيد الحصر (إلا بعلمه) .

سؤال : إذا كان الله تعالى عليمًا بكل شىء . . . فَلِمَ خص هذه الثلاث بالعلم؟

ربما كان ذلك لفتًا للأنظار إلى مافيها من إعجاز . . والذى يجب أن يكون موضع اهتمامنا . . . على الأقل كأسلوب من أساليب الدعوة فى عصر العلم . .

أى إنها : دعوة للهاربين إلى الماضى . . وإلى المستقبل ليعيشوا الحاضر متأملين، ما فى الكون من أسرار تغرى بالبحث والنظر فى : مملكة النبات . . ومملكة الإنسان.

وحبذا لو شغل طالب الزراعة . . وطالب الطب ، وطالب العلوم . . لو شغل نفسه . . بهذه الدراسة : سائلاً . . ومتأملاً ، فذلك أجدى مما يلجأ إليه هؤلاء الطلاب من خطب الجمعة التى يسجلونها لأنفسهم كدعاة هربوا من تخصصهم إلى ما لا يحسنون . . فكانوا كالمنبت : لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى .

أهمية هذه الدراسات فى الدعوة :

كان الدكتور « جرينيه » عضوًا فى مجلس النواب الفرنسى . . . وقد سئل يومًا عن سبب إسلامه ، فقال : (إنى تتبعت كل الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية ، والتى درستها في صغرى . . وأعلمها جيداً ، فوجدت هذه الآيات منطبقة كل الانطباق على معارفنا الحديثة . . فأسلمت . .

أسلمت : لأنى تيقنت أن محمداً ﷺ أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة . من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر ، ولو أنَّ كل صاحب فن من الفنون . أو علم من العلوم قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلّم جيداً . . كما قارنت أيضًا لأسلم بلا شك . . إن كان عاقلاً خاليًا من الأغراض) .

فأنت ترى واحداً أسلم كإخوة له من قبل : علماء . . . وأدباء . . . وشعراء .

أسلموا من بوابة العلوم الكونية . . وكان إسلامهم حجة أقامها الحق تعالى على من لم يؤمن من أقوامهم [1]. وإذا كان رجل مهم كالدكتور « جرينيه » فى بلد علمانى كفرنسا قد استطاع أن يصل .

---

(١) الوعي الإسلامي إبريل ١٩٩٤ .

مراحل تكوين الخطبة :

يقول الله عـز وجــل : ﴿ **الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)** ﴾ [الرحمن: ١-٤] .

من فيض رحمانيته عز وجل تعليمه إيانا القرآن : شفاء ورحمة . .

ومن عجائب البلاغة القرآنية : أن يذكرنا الخالق سبحانه بنعمة خلقه لنا سبحانه، ثم بنعمة أن علمنا البيان نترجم به ما استكن فى صدورنا .

وهذا البيان العجيب يقول لنا : تأملوا . . لتقفوا على مراحل تكوين الفكرة . أو الخطبة . . فإذا هى نفس مراحل خلق الإنسان والتى هى :

١ ـ الإيجاد (نطفة فى الرحم) .

٢ ـ ثم التجاوب أو الانسجام مع الفكرة (وذلك هو : تلقيح البويضة) .

٣ ـ ثم تجىء مرحلة التنسيق ، وهى : مراحل نمو الجنين فى بطن أمه .

٤ ـ وأخيرًا . . تجىء مرحلة الميلاد . . وهى نفس مراحل الخطبة التى هى :

١ ـ الإيجاد : بمعنى حضور الفكرة فى الذهن .

٢ ـ ثم استنباط المعانى .

٣ ـ ثم مرحلة تنسيق الأفكار .

٤ ـ وأخيراً يكون التعبير عن هذه الأفكار ، وهو مرحلة : الميلاد .

من وسائل الدعوة :

ربما كان هدف الداعية : أنَّ الجنة حق . وأنَّ النار حق . وربما كان هدفه : النهى عن تعذيب الحيوان الذى لا يملك الدفاع عن نفسه . . فماذا هو فاعل ؟

إنَّ الوعظ المجرد لن يحقق الهدف كمـا ينبغى . . ولذلك يلجأ الرسول ﷺ إلى المشاهدة إلــى ما تراه العين مضمـومًا إلى ما تسمـعه الأذن ، فلما قام يـصلى بهم : تباعد عن مـكانه . ثم عاد إليه ، فلما سـئل عن ذلك قال: « .. **لقـد جىء بالـنار . وذلكم حين رأيتمونى تأخرت .. مخافة أن يصيبنى من لفحها ..** » ثم ذكر الهرة التى

ربطتها المرأة ولم تطعمها . . ومن خـان فى الغنيمة . . ولقد مددت يدى وأنا أريد أن أتناول من ثمرها ـ الجنة)[1].

تمهيد :

ما هو دور التخصـيص من علماء المسلمين اليوم . فى الدعـوة إلى الإسلام بلغة العصر . . الذى يجدى مع الغرب المادى ؟

إنَّ القرآن الكريم قد نبه جماهير غفيرة إلى حقيقة الدين الإسلامى . . هكذا . . . بلا معلم ، فكـيف يكون الحال لو وجد من علمـاء المسلمين المتخصصين مَـنْ يتحمل مسؤولية الدعوة اليوم ؟

إنَّ النتائج سـوف تكون باهرة . . وسوف نجد الـناس ـ والعلماء منهم بـخاصة ـ يدخلون فى دين الله أفواجًا .

من وسائل الدعوة ... أحيانًا الخوف :

قال « الفضيل » رحمه الله :

رهبة المرء عـلى قدر علمه بـالله تعالى : فـمن لم يخف هانت علـيه الأوامر . والزواجر .

وقد يصبح الرجل الصالح نادمًـا . . . مع أنه يأتى نائمًا !! لأنه من قوم هم من الخشية على خطر عظيم !!

ونقرأ فى ذلك قوله عـــز وجـل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) ﴾ [المؤمنون: ٥٧] .

وإلى الأغنياء يتجه التحذير الخاص : فـقد يسول لهم غناهم أنهم فوق المساءلة ، ومن أجل ذلك قالوا :

أيها الأغنياء : أكثروا من الحسنات . . . فإن ذنوبكم قليلة .

ويا أيها الفقراء : أكثروا من حسناتكم . . . فإن حسناتكم قليلة !!

ومن الآفات هنا : الاعتـماد على العمل الماضى . . . والذى قـد يسول للإنسان

(١) رواه مسلم فى التاج ١ / ٣٣٧ .

لا يعمل مستقبلاً . . . ليكون علمه ما قيل (أزلّته نفسه عما كان فيه فأخرجته من الطاعة) .

من هو الخائف ؟ ليس الخائف الذى يبكى . ويمسح دموعه ، وإنما الخائف حقًّا من يترك ما يخاف : ما يُعذَّب عليه !!

ماذا يقول الذين لا يخافون ؟ :

يقول أهل الدنيا :

من عاش فى الدنيا بغير حبيب

فحياته فيها حياة غريب

وقالوا أيضًا :

ما تنظر العينان أحسن منظر

من طالبٍ إلفًا ومن مطلوب

وقال المتبجحون :

ما كان فى حور الجنان لآدم

لو لم تكن حواء . . من مرغوب

قد كان فى الفردوس يشكو وحدةً

فيها . . . ولم يأت بغير حبيب

فى إفريقيا : وهى القارة الفقير . . تقل نسبة الانتحار . . بينما نسبة الانتحار فى دول الغرب أكبر . . وفى أكثرها تحضراً !!

المطلوب هو : الترهيب . . وليس الإرهاب ، والرجولة . . وليست الفحولة !!

يقول الشاعر :

وحببتما لى سلوةً وتناسيًا

ولم ترشدا كيف السبيل إليهما ؟

وشاهد ذلك فى قصص تُروى . . ولا تطوى : من تاريخنا . . نؤكد كيف

استطاعت أمتنا بالقدوة الحسنة أن تحبب الناس فى الإسلام هذه القدوة التى كانت بمثابة عروق تتدفق بالدماء لا تتوقف . . . وخذ مثالاً على ذلك : الإمام محمد عبده رحمه الله .

إيجابيات التجديد :

ومن أقوال الإمام **محمد عبده** التى تزكى وجهته الإصلاحية : أنه لا دين إلا بدولة . . . ولا دولة إلا بصولة . . . ولا صولة إلا بقوة . . . ولا قوة إلا بثروة . وليس للدولة تجارة وصناعة ، وإنما ثروتها بثروة أهلها .

ولا تمكن ثروة الأهل إلا بنشر العلوم فيما بينهم حتى يتبينوا .

إن المشكلة ليست فى الدين ، وإنما هى فى الفهم الخاطئ لهذا الدين . ومن هنا تبرز أهمية ما يلى :

تأويل النص الدينى . . . ثم ربطه بقضايا العصر .

ومن أجل ذلك تبرز أهمية العقل الذى يقوم بحراسة الأمة من الخرافات ، فالأمة المثالية حية بحياة عقول أبنائها ، متحركة بحركة أفكارهم . وعندما يكون العقل حاضرًا ، محكمًا فى قضايا الأمة ، فلن تجد فيها تعصبًا ، ولا تحجرًا فى فهم النصوص ، ولا إعراضًا عن الآخر الذى نفترض فيه حسن النية .

وفى هذا يقول الإمام : [إن العقل يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل ولابد من اجتهاد يعتمد على الدين والعقل معًا حتى نستطيع أن نواجه المسائل الجديدة فى المدنية الجديدة ونقتبس منها ما يفيدنا ؛ لأن المسلمين لا يستطيعون أن يعيشوا فى عزلة ولابد أن يتسلحوا بما يتسلح به غيرهم ، وأكبر سلاح فى الدنيا هو العلم ، وأكبر عمدة فى الأخلاق هو الدين ، ومن حسن حظ المسلمين أنَّ دينهم يشرح صدره للعمل ، ويحض عليه ، وللعقل ويدعو إليه . وللأخلاق الفاضلة التى تدعو إليها المدنية الحاضرة] أ . هـ .

ومن المجددين الشيخ يوسف الدجوى والذى يقول : (إنَّ المتكلمين فى الدين اليوم ، الذين يزعمون أنهم حماته وأنصاره : لا يكادون يتخطون أحد رجلين : رجل لم تبعثه التقلبات ـ على كثرتها ـ والحوادث على حدة شكيمتها ـ من مرقد جموده

على ما ورث مما كان يناسب قومًا آخرين ، وكأنه « وهو من بين ظهرانينا » من رجال عصر لا ينبئك عنه سوى التاريخ ، فلم يسمع بنبأ الانقلاب فى الأفكار ، والتبدل فى طريقة الاستبصار « وقد تغير الداء ، فيجب تغيير الدواء » فتراه يجهل كل ذلك .

فإذا خطب : لم ينقب عن أسرار الدين تنقيب العالم الحكيم ، فيبرزها ناصعة تتحلى فى ثوب من الضياء ، وقد أقشعت عنها غيوم الخفاء ، فرآها ضعيف النظر ، ولم يعش عنها كليل البصر ، بل تجده يحيطها بما شاء له استعداده من قشور سميكة تحجب) .

يقول الله عز وجل فى سورة القصص : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ ... ﴾ .

أجل : ليس هناك من هو أضل ممن انساق وراء هواه . . بلا دليل ، وهو ردع لكل مقلد أمس واليوم ، وغدًا . وكأن الآيات تقول لعقلاء البشر :

انظروا إلى هؤلاء الحمقى : إنَّ الإسلام يأخذ بأيديهم إلى الحق . ولكنهم يرفضون مؤثرين اتباع الآباء . . بحجة أنهم : كانوا خيرًا منا . . وكانوا أعلم . . يعنى ذلك : أنهم يتبعون آباءهم بغير دليل . . ويرفضون الداعى الذى بيده الأدلة الظاهرة القاهرة ؟!

وهى دعوة قرآنية تحتم وجوب النظر . . . وترك الخواطر التى قد تناوشنا بلا برهان .

وتلك هجِّيرى المعتدين الذين لا يملكون الدليل : ولم يكن بينهم وبين الله عهد وإنما هو الجهل : يملى لهم .

ومن أمارات جهلكم : أنكم تقولون على الله ما لا تعلمون ، فمصيركم : النار . . . وعندئذ لا ينفعكم الغرور !! وعندئذ أيضًا يتبين لكم سوء قولكم وفعلكم، ومن ادعى شيئًا بلا شاهد ، لابد أن تبطل دعواه .

فى الدعوة موضوعية القرآن الكريم :

يقول عن أهل الكتاب : ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ... ﴾ .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ...﴾ .

ولكنهـم يحرفون القـرآن . . ويزيفون التـاريخ بزعمـهم اليوم أن « النـجاشى » شخصية وهمية .

ولكنَّ نهايتهم سوف تكون على غير ما يشتهون بسبب أنهم كانوا يكذبون بالآيات العظام . . وباستمرار . . . بمعنى أنَّ التكذيب هذا كان لهم طبعًا ، ولم يكن تطبعًا .

وعلى ما كـان لهؤلاء المكذبين من قوة وغنـى . وكثرة ، فقد صـار ما يدلون به ميراثًا لغيرهم من الذين كانوا يستضعفونهم .

ودمرهم الله تعالـى : لم يبق لهم أثراً . . حتى الصروح التى كـانوا يتفننون فى بنائها وتحصينها . . وكانت العاقبة للمظلوم . . وإن طال به المدى !!

أما بعد : فلنتقدم : إنَّ لصاحب الحق مقالاً . .

« **إنَّ المؤمن ليُنضى شيطانه كما يُنضى أحدكم بعيره فى السفر** » سنن الترمذى .

إن المؤمن هو الذى يركب الشيطان فما لأناس يشكون من الشيطان قد ركبهم .

فلتتقدم القافلة . ولن يضيرها عواء الذئاب .

صور من تاريخنا :

وفى تاريخنا القريب والبعيد . . . ما يؤكد ذلك :

فى الدولة الـعباسيـة : وبالذات فى عهـد المأمون نقل بالـترجمة علـم الهنود . والفرس . واليونان .

وذلك يعنى : أن المأمـون رحمه الله يمد يده للآخر . فـالعلم لا وطن له . وفى الإمكان أن يستفـيد بعضنا من بعض مما يعنى : تكامل الحـضارات . . وليس تصارع الحضـارات كما زعـم ذلـك المفكـر الأمـريكى (صمـوئيل هنتغتـون) صاحب نظرية (صراع الحضارات) .

وأيضًا ليس تفرد حضارة بالكون دون أخرى . . . كما ذهب إلى ذلك (بنجامين كيد) والتـى يدعو بها إلى هيمـنة عنصره ـ لأنه الأقوى ـ علـى الكون كله . . إلى الحد الذى زعموا فيه أن الاستسلام للعنصر الغربى معناه : تقدم الشعوب النامية .

ثم كانت المـرحلة الأخيرة : الاعتـماد على العقـل الذى اقتحمـوا به الواقع إلى المستقبل .

إلا أنها لم تفعل . . وتخطت إرادتها القـوية كل هذه الحواجز . . . لتطمئن أولا على عقيدة سقتها من دمها . . . وعرقها . . . وأدرعتها كل ما تملك من جهد ومال .

فى ظل كتاب الله وسنة رسوله . . وكان مـن الممكن أن تعيش فى بيت الزوجية مع رجل يهواها وسيهيئ لها أسباب الهـناء . . وتلك أغلى أمنية تصبو إليها امرأة . . إلا أنها لم تفعل . . إلخ .

وننتـقل من هذا الأفق الاشيء إلـى مشهـد من مشاهـد واقعنا الماثـل . . يمسك التاريخ بالقـلم ليسطر موقفين مـتضادين ، امرأة تأبى أن تعـيش فى كنف رجل . . . حتى تطمئن أولاً على دينها . . وخلقهـا . . فإذا ما صانت هذه الجوهرة الغالية فكل شيء بعد ذلك تافه وحقير :

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاته فيها فليس بضائر !!

وامرأة أخرى يطرق الخلق والدين بابها ـ وتعرض الفضيلة عليها نفسها . . . ففتح لها الباب ولكن لتخرج من الباب الخلفي .

ومفرد إلى صاحبنا . . . ففى ظل رغبته فيها . . . وحرصه على الاقتران .

﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ .

« **إنما الأعمال بالنيات ... وإنما لكل امرئ ما نوى ..** » الحديث .

قصة . . . تعيـها حافظة التاريخ الإسلامـى المجيد : زمانها قبيـل هجرة الرسول الكريم . . ومكانها بين جدران مكة أم القرى .

امرأة ذات منـصب وجمال يـهواها رجل من المسلمين ، فيـطلب يدها ولكـنها ترفض حتى تهاجر إلى المدينة فراراً بعقيدتـها . . حتى تطمئن أولاً على قاعدة حياتها . . التى ينبثق عنها مستقبلها وترتكز سعادتها .

ونقف نحن حيال هذا القلب الكبير نرمقه بمشاعر الإعجاب والإكبار ، إنها امرأة

تتعادى فى جسدها أقوى غريزة فى تركيب الإنسان . . هى الغريزة الجنسية . . وتعيش فى فراغ كبير . . فلا زوج ولا ولد . . ولا أنيس يذهب عنها وحشة الزمن . . فى الوقت الذي يتلفت فيه كل إنسان يبحث فيه ساعد قوى يرد عنه كيد المشركين المتسلط . ولم يكن يشينها أن تجيب الرجل إلى طلبه . . فهو رباط مقدس بها . . . يهاجر من أجلها . . ظاهره أنه مهاجر وباطنه رغبة فى الزواج .

ولكن الرسول الكريم وهو ينظر بنور الله ـ يقطع عليه الطريق ، فيكشف نيته وينشر نفسه تحت الشمس ـ ليتبخر ما فيها من علائق وشهوات . . وليراها الناس على حقيقتها . . فيعلموا

١ ـ المهم هو النية . . هو دافع العمل . . لانفس العمل . . ونية المرء خير من عمله .

« **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ...** » .

وعلى الرغم من أن هذا الرجل كان يطلب مباحًا . . إلا أنه كان يدعى الهجرة ولم تكن قصده الأول . . فوجه إليه الرسول هذا اللوم . . ولكن فى صورة كريمة صورة تحذير . . . لا تشهير ، نصيحة وليست فضيحة .

وهنا نتعلم على يدى رسولنا ﷺ درسًا فى الذوق . فبعض الناس قد ينكر من آخر عملا ، بيد أنه ينصحه على ملأ من الناس ، وبذلك يفضحه . . . فيجرحه ! وربما تمادى فى الغى عنادًا وانتقامًا من هذا الناصح الجاهل .

وحينئذٍ يكون كالمنبت : لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى .

أما الرسول العظيم . . فهو يقولها كلمة عامة . . تنعكس على حلمه هذا الرجل وكل تصرف شابها سابقًا . . ولاحقًا . . كقوله عليه الصلاة والسلام فى كثير من أحاديثه «**ما بال أقوام يفعلون كذا ...** » مع أنه يعرفهم بأسمائهم إلا أنه بعث للناس رحمة مهداة .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فالنية هى التــى تقيم الأعمال والأقوال . . وتجعل لها فى تــقدير الله وزنًا ، أما العمل الذى يخلو مــن نية صالحة تكمن وراءه . . ودافع شريف يحــث عليه . . فهو كشيك مزيف بلا رصيد !!

وبناء على ذلك . . . فقد يصوم الإنــسان ويصلى ويزكى . . رئاء الناس . . فلا ..ب على هذا العــمل ، ومن خرج بين الحقول يتنزه ـ ويملأ رئتيــه بنسيم الأصيل . . ..وى بذلك التقوى على عبادة الله . . كان عمله المباح هذا عملا ذا ثواب .

ومن أتى امرأتــه . . بنية إنجاب ولد صالــح يعبد الله . . تحـول هذا الإجراء من ..باحة إلى الندب . . وناله جزاء عند الله كفاء نيته الخالصة .

أما الذين مزجوا الرياء . . . بطلب الثواب . . فأولئك الذين خلطوا عملاً صالحًا ..آخر سيئًا . . . عســى الله أن يتوب عليهم . . وخزائن الله لا تنفد ورحــمته سبقت غضبه .

إنها النية إذن ـ أكسير الأعمال والأقوال . . فمن خرج عن هذه الدائرة وقصد بها ..اء وسمعــة أو قضاء شهوة عــابرة فهجمــاته تقف عند هذا الحد . . وليــس لها من ..هجرة إلا اسمها فقط ، أما ثوابها . . فقد ذهب . . . يوم ذهبت النية الخالصة .

ومن قصــد بهجــرته ـ وكل عمل يــعمله ـ وجــه الله ورسوله والــدار الآخرة ، فهجرته مقبولة . وسيثيبه الله عليها .

وما أكرم أن تــتدبر هذا الحديث جــيدًا ـ ونحاول أن نهــاجر من مســارب الخطيئة الضيقة إلــى رحبات التوبة الخالصة . ونــنزع أقدامنا من أوحال الدنيا لنــعيش مع الله ورسوله لحظات مباركات ننسى فيها هموم الحياة وآلامها .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ .

حديث الفضة والقدر (تذكر فى كتاب الطاقــات المعطلة مسألة تتعلق بالصلاة فى الآخرة) .

من مظاهر الحضارة الإسلامية :

للمسلم الذى يمتلك « أَمَــةً » أن يعاشرها جنسيًا كمملوكة له . وله أن يزوجها

من مسلم غيره . بحيث يحرم عليه الاتصال بها جنسيًا ، وبذلك يتحقق للمملوكة ما يلى :

١ ـ تلبية الدافع الجنسى عندها .

٢ ـ تلبية دافع « الأمومة » المستكن فى قلبها .

٣ ـ إذا ولدت . . فهى حرة إذا مات سيدها . . وتكون « أم ولد » .

وإذن فالإسلام يفتح الأبواب أمام الرقّ لينتهى تمامًا ، إنَّ الإسلام ـ كما قيل بحقٍ شرع العتق ، ولم يشرع الرق .

(ولأن الشيخ الإمام كان غير متعصب أولاً ، وعالمًا ثانيًا فقد كان يرى أنَّ الإسلام دين الله الذى لا يرفض الأديان الأخرى ولم يكن غريبًا ، والإمام بهذا الفكر المستنير يلهم غير المسلمين من وحى فكره ، ووحى اعتقاده ، ووحى كلامه في تفسير القرآن وشرحه للدين فى موطن أقام به أو رحل إليه ، فكان أدباء المسيحيين يتسابقون إلى دروسه ومجالسه فى بيروت أيام منفاه ، ولعل العلامة يعقوب صروف عبَّر خير تعبير عن شعور فضلاء المسيحيين حيث قال يوم وفاته لمن حوله من مريدى الإمام وتلاميذه: إنى أسمعكم تقولون : فقيد الإسلام والمسلمين ولا تزيدون أنه فقيدنا جميعًا مسلمين ومسيحيين ، على أنَّ الشيخ الإمام محمد عبده لم يكن هو أول من تناول الإسلام بأسلوب يقبله العصر ، وهو ما يعرف بتجديد الخطاب الدينى وإنما كان هناك أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان رائدًا لحركة إصلاح دينى أساسها الاهتمام بإزالة ما رسخ فى عقول العوام والخواص من فهم خاطئ لبعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الصحيح ، مثل حملهم القضاء والقدر علي معنى يوجب ألا يتحركوا لطلب مجد ، ولا للتخلص من ذل ، ومثل فهمهم أيضًا لبعض الأحاديث الشريفة الدالة على فساد آخر الزمان فهمًا حملهم على عدم السعى وراء الإصلاح والنجاح ، وهنا دعا إلى بث العقائد الدينية الصحيحة بين الناس وشرحها لهم على وجهها الصحيح حتى تقودهم إلى ما فيه خيرهم ، كما دعا المستنيرين من المسلمين إلى النظر فى حالتهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الحقيقى يستطيع

أن يتقدم تقدمًا يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العلمية وبين المطالب الروحية للنفس الإنسانية) أ . هـ .

يقول الله عز وجل : ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ... ﴾ .

لقد طلب الأغنياء طرد الفقراء أولاً ، فلما رفض طلبهم .. رغبوا فى مجلس منفرد ، فقالوا : نجلس إليك .. فإذا فرغنا جاؤوا ... حتى لا ترانا وفود العرب معهم!!

فلما همّ .. نزلت الآية الكريمة : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ ﴾ فكان إذا أراد القيام ... لا يقوم حتى يقوموا أولاً .

١- إنها أول مواجهة تجرح العصبية فى كبريائها .

٢ - ومع أن « الوسيلة » مجرد إبعاد عن المجلس ، والغاية هى : إسلام ناس يسلم بهم خلق كثير ، لكنّ الغاية لا تبرر الوسيلة !!

٣ - لقد اضطربت المصلحة السياسية والاجتماعية والوطنية ، اصطدمت بعامل الأخلاق الذى يستهدف الحفاظ على آدمية الإنسان ، ولابد من تقديم الأخلاق والعدل على المنفعة السياسية !!

٤ - رفع قدر « الحرفيين » .

الاستكبار :

حالة نفسية خاطئة : فراغ النفس من الحقيقة ... فتنظر للحدث لا بموضوعية ، بل هى ممنوعة بالاستكبار من رؤية الواقع كما هو ، ويقوى الاستكبار حين تملك ، ويضعف حين تفقد .

أحيانًا يتعقد الموقف ... فلا تدرى هل تقبل خطأ مَنْ تثق به ، أو ترفض صواب مَنْ لا تثق به ؟!

فى التربية :

يقول الله عز وجل : ﴿ لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ... ﴾ [النور : ٦٣] ، لابد للمربى من الاحترام لتحترم توجيهاته .

« مَنْ أصاب مالاً من مهاوُش (تهويش) أذهبه الله فى نهابُر » حديث شريف .

والمعنى : أنَّ الله عز وجل يسلط عليه ما يذهب به هدرًا ، وهذه الراقصة شاهدة بصحة ذلك ، فهى بمقدار ما أفسدت يصيبها العقاب فى الحياة الدنيا . . حتى ليكاد من أفسدته قبلاً أن يبصق عليها . . . لو رآها ؟!!

استبعاد الدين . والاحتكام للتجربة والواقع :

أولاً : إنكار للوحى الأعلى . . بتجريد الحياة من جوهرها .

ثانيًا : يتحول به الإسلام إلى استسلام توجهه الحياة . . . بينما هو الموجه للحياة من صنع التاريخ . . . بينما هو الذى يصنع التاريخ !!

واتخاذ الواقع فيصلاً . . . جهل بالإسلام :

إن فضائل الأمة العربية كان لها مثيل فى الأمم الأخرى ، ولكن هذه الأمم صارت شيئًا مذكورًا فى ظل الإسلام ، وبالإسلام وحده ، وتأمل موقف « الخنساء» ، لقد بكت على أخيها « صخرًا » أيامًا وليالى . . وفى ظل الإسلام . . ماذا حدث ؟؟ قدمت أولادها شهداء فى سبيل الله .

النفس والهوى . . . والشيطان والدنيا كلها أثقال غلاظ تهبط بالإنسان إلى الأرض . . وتعوق بصيرته عن التطلع إلى الآفاق الفساح . . والتحليق بأجنحتها فى الجواء العالية .

والإنسان فى سعيه الساغب اللاغب فوق هذه الأرض . . فى حاجة إلى لحظات مباركات يفتح فيها عين بصيرته على غايته . . ويكتشف حقيقة وجوده . . ويتلمس بروحه مدارج السماء . . . حتى يغتسل بأنوار الربانية قلبه . . ويطهره من أدران النفس . . . وهمزات الشياطين ، ثم يعود إلى دنيا الناس ليبدأ حياته كخليفة لله فى أرضه .

والإسلام دين متكامل . . . جاء فكان تلبية لمطالب الروح والبدن . . . وهذا هو سر وجوده وخلوده .

والصلاة كشعيرة من شعائره تحمل هذه الخصوصية بشقيها . . وتتبلور فيها روح

لإسلام ومنهجه فى تطهير النفوس . . وعندما أمرنا الله بالصلاة بيَّن لنا غايتها وحكمتها ، فقال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ ، إنها كما قيل : طهارة أردان . . . وتهذيب وجدان . . وشتى فضائل يشب عليها لجوارى والولدان .

وأثمن لحظات العمر تلك التى يقتلع المرء فيها قدمه من بين أوحال المادية الطاغية بهتف الله أكبر ، فتنفتح أمامه الأبواب وتذوب عنه متع الحياة كأنها قطع الجليد . . يصعد بروحه إلى أعلى ،فتساقط عنه خطاياه وأوزاره كما تسقط أوراق الجميز أمام رياح الخريف !! وبعد أن عرفنا حكمة تشريعها ونلتقى الآن بسؤال : ما الحكمة فى حصرها فى هذا العدد ؟

ويجيبنا على هذا السؤال ابن عطاء الله فيبين لنا : أن الله فرضها خمسًا مع تساع الزمن رأفة بنا ورحمة .

فجعل عليك صلاة فى أول النهار شكرًا له أن كور النهار على الليل .

الرسول : الرؤوف الرحيم :

كان حرصه ﷺ على هداية قومه بالغًا حدَّ التشبع إلى الحد الذى قيل له فيه : ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ وكان حرصه عليه لصلاة والسلام أيضًا بالغًا حدَّ التشبع . . . إلى الحد الذى قيل له فيه : ﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ والمعنى : كن مطمئنًا . . . ولا تعجل بالتلقى . . قبل أن ينتهى جبريل من الإلقاء . لا تعجل . . . واطمئن .

فإنَّ علينا : جمعه : بلا نقص ، مرئيًا : مجودًا .

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴾ وعلينا أيضًا بيانه . . وإذن . . . فما زالت هناك فرصة تفهم فيها ، ولا تطمع فى البيان لحظة التلقى . . . لماذا ؟

ففى مشاهد الكون . . . وفى الإلهام . . ثم . . فى الوحى النازل مستقبلاً : فى كل ذلك ما يبينه لك . . . فلا تعجل ، وقل رب زدنى علمًا .

أسباب النصر :

تمهيد : إنَّ الـذى يقفز إلى أعلى ليس هـو الفائز ، ولكن الفائز حـقًّا هو : مَنْ تسلح بأسباب النصر . . . ثم أراده ، ومن هذه الأسباب :

١ ـ الإخلاص وحب الله تعالى ، والجهاد فى سبيله .

٢ ـ الخوف منه سبحانه . والتواضع .

٣ ـ الصبر الجميل .

٤ ـ الزهد فى الدنيا ،والملجأ إلى الله تعالى .

وتاريخ انتصارات المسلـمين شاهد بذلك : فقد تحقق وعد الله بـنصر مَنْ ينصره ولما نصره المؤمنون : نصرهم على اليهود ، وعلى المشركين بالهجرة ،

وإذن . . . فلابد من أن تدفع ثمن النصر أولاً : إعدادًا واستعداداً .

من سنته عليه الصلاة والسلام : « ليلينى منكم أولو الأحلام والنهى « فى الصلاة» وذلك : ليكون مَنْ خلفه من العلماء الذين قد يحتاج إليهم وفى هذا :

١ ـ تكريم للعلم : فى شخص قياداته .

٢ ـ تحريض للجاهل ليتعلم .

التصفيق : الأصل فيه : الإباحة ، وتحريمه لابد له من دليل . . ولا دليل ؟!

الإيمان بالله عز وجل يعنى الثقة بالموصوف بصفات الكمال . وصفات الجمال ، وبالإيمان به عز وجل . . ترتفع . . حتى تكون محـلقًا فى جو السماء تطل على هذه الدنيا من عَل . . فإذا كل بلاء فيها صغير !!

وإذا كانت الآلام من قبل الملحدين تضـيع طاقاتهم بين : الإتلاف . والاستنزاف فإن الإيمان يمنح المؤمنين مددًا لا ينفذ أبدًا !!

ولهذا يكون أقوى الأحزاب جميعًا : إنَّ كل إنـسان يسعى إلى تجمع يحقق له ما يلى :

ـ الثقة به . . . والفائدة ، وهكذا حزب المؤمنين !!

إيتاء القريب مطلوب منك . ولكن بلا تبذير : ﴿ وَلا تُبَذِّرْ ﴾ [الإسراء : ٢٦]
ـذا ؟

ليظل فى جيبك مال تعطى منه هذا القريب !!

ـهمية القرآن :

كما يجب علينا حفظه وتلاوته . . . فالواجب أيضًا أن نتدبره . . ولا نقول فيه ـرأينا . . فقد روى : « من قال فى القرآن برأيه . . فقد أثم . . ولو أصاب » !! ـفى سورة النساء / ١٠٥ يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ ـيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** ﴾ بما أراك سبحانه . . . لا بما رأيت أنت .

وقد اختلف الصحابة كما اختلف ابن عمر ، وابن عباس رضى الله عنهما ، ـكنه لم يكن اختلاف يسار ويمين . . . كما يتصور بعض الباحثين !!

يقول ﷺ : « **مَنْ نَفَّسَ عن مؤمن كربة من كرب الدنيا ... نَفَّسَ الله عنه كربة من كرب يوم القيامة** » .

تمهيد : قرأت وسمعت : قرأت نبأ ذلك المهندس الأجنبى والذى أشرف على بناء جسر فوق النيل . . فلما وجده انحرف قيد أنملة عن خطته رمى بنفسه فى النيل ـمات منتحرًا ؟ !! ومضى مخلفًا من ورائه درسًا فى إتقان العمل أو إحسانه .

وسمعت نبأ ذلك الوالد الذى رمى بنفسه فى النيل . . . ومات منتحرًا أسفًا ؛ ـلأنه لم يجد ما يطعم به صغاره !!

ومضى مخلفًا من ورائه درسًا فى أهمية إغاثة المكروب ؟ وكيف ؟!! كيف لو ـقيت أيها المسلم ذلك المكروب ثم أعطيته ما يشترى به طعامًا لصغاره ، فأنقذت ـلأسرة كلها من هذه الكارثة .

يقول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا ...** ﴾ .

من المنادى ؟ إنه الله عز وجل .

ومن المنادَى ؟ الناس جميعًا .

وما هو المدعو إليه ؟ التقوى .

وعمــوم المنادَى وهـم : الناس يـفيد : أنَّ المدعـو إليه قضـية عامـة فهى مفـيدة للجميع .

والتقوى هى : عقيدة . وشريعة . وأخلاق .

آمن بالله . . . وأقام الصلاة . . . ووفى بالعهد .

وقوله تعالى : (يومًا). . . يعنى : أنَّ الدنيا لا تـنتهى بالمعتبر . . . وهذا اليوم من هوله: أنَّ الوالـد ـ وحبه لولده غرزى لا يـغنى عن ولده ـ وهـو حــريص عـلى نجدته ـ لا يـغنى عنه أى غناء. . . وإذا عـلم المكلف الآن أنَّ أحب أحـبائه لن ينفـعه استقام على الطريقة وفى طليعتهم « الوالد » وما تش به «الوالدية» من حنان وشفقة!!

وإذا كان الأمر كذلك فلا تغرنكم الحياة الدنيا . . واتقوا ربكم الذى شاهدتم من آلائه ما يحـملكم على الإيمان . . ويفرّ بكم مـن العصيان ! هذه الدنيـا التى كان من غرورها أنها ـ وبتزين الشيطان ـ تتسلـل إلى الأعماق . . . بينما أنت غافل !! فالحذر منها ومن كيد شـياطين الإنس والجن الذين يقولون لك : استمـتع بالدنيا . . ثم تب أخيرًا !! لأن دعـوتهم فى الحقيـقة جرأة على المعـصية . . التى سـوف تستمر فـيها بممارستها . . . ثم لا تكون منك توبة !!

المؤذِّن :

متابعة المؤذن أفضل من قراءة القرآن . ومن الدعاء !! لماذا ؟

لأن متابعة المؤذن سنة مؤقتة بوقت يفوت . . . وأما القرآن والدعاء . . . فله كل الوقت . . . فلا يفوت !!

الســاعى على الأرملة والـيتيم يـعنى : الفــرار من عبادة الـذات . والجرى وراء الملذات !!

وقولنا : يا عباد الله أنسب من قولـنا : أيها المواطنون . . وما يشى به من نسب أرضى !!

والفـرق هائل بين : عَـرَق العامل . . . ومـسك الخامل !! ، ولـيل الأريب : نهاره!!

أسوة فى الدعوة :

من حياته ﷺ يمكن أن نتعلم دروسًا فى الدعوة :

١ ـ الإعداد . . . وهو البدء بالرؤية الصالحة .

٢ ـ ثم التحنث . . . بطرح الإثم عن نفسه وأيامًا ، تُعَدّ . . وسط وكان فى الغار . . . لماذا ؟

الليل : أسكن ، والروح : أيقظ ، والقلب : أفرغ . ثم ينزع إلى أهله : يعنى كلما اشتاق . . حنّ .

لا تحقق التوبة آثارها فى بيئة عاصية . . . فالله عز وجل يقول : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا** ﴾ فإذا لم نتب جميعًا . . فقد بقيت البيئة ملوثة بالمعصية !

« **أنت مع مَنْ أحببت** » وبهذه المعية : ربما لحقت بقوم صالحين . . وإن لم تعمل عملهم . . . وهكذا كان الجواب لما سئل : « أحب القوم ولم أعمل بعملهم » قال : أنت مع مَنْ أحببت !!

وصدق الله العظيم : ﴿ **لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ** ﴾ [المجادلة : ٢٢] .

لا تعاند السلطان . . وإلاَّ . . . فقد عرضت نفسك للسجن الطويل ، والقيد الثقيل .

ولا تكن رفيق قوم   لهم زاد وأنت بغير زاد !!

ينادون بحق المرأة فى الوزارة . وفى القضاء . فأين المنادون بحقها فى الإيواء . . بعد التشرد . . . ؟

الاستئناس : من آداب الدخول : الاستئناس : وكان جبريل عليه السلام يستأذن .

ألا إنما الأيام أبناء واحد

وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبه من عـــند يومٍ وليلـــة

خلاف الذى مــــرت به السنوات

يقول المتنبى :

خلقتُ ألُوفًا لو رجعت إلى الصبا

لفارقت شيبى موجع القلب باكـــيًا

وهكذا يوصى الطبيب مريضه بالعود إلى حيث وُلِد !!

من تجارب الصالحين :

دخل العالِم على جماعة . . . فسمعهم يتحدثون عن فساد الزمان . . . فقال :

أرى حللا تصان على رجـــال

وأخلاقًا تداس ولا تصـــان

يقولـــون الزمـــان به فســـاد . . .

وهم فسدوا . وما فسد الزمـــان

من خصائص المؤمن :

من سمات المؤمن أنه : متوكِّل . . . لا متواكل ؟!

تقول اللغة : فرس واكل : أى يتكل على صـاحبه . . . ويحتاج إلى الضرب . وفى التواكل معنى : الاعتماد على الغير بسبب العجز .

والوكال فى الدابة : هو ما تسير به .

والتوكـيل : اعتمادك على الـغير ليكون نائبًـا عنك ، والمؤمن متوكـل على الله تعالى وحـده . . لا على نسب أو نشب : شريـطة أن يأخذ بالأسباب الـتى لا ينافى أخذها معنى التوكل ، المهم :

أ ـ ألا يركن إليها المكلف .

ب ـ وقطع القلب عنها . . . اعتمادًا على الله تعالى وحده .

من إنسانية الإسلام :

قـولـه ﷺ : « **نصـرت بالـرعب** » : بالخوف : يقـذفه الله تعـالى فى قلوب الأعداء . . حتى لا يكون قتال بالمرة !!

وعلى الصفا : حكِّم العقل . . . ولم يقل : اتبعونى وتحكيم العقل هنا يظهر من فحوى كلامه : محمد صادق ، ومن كان صادقًا لا يكذب .

فمـحمد لا يـكذب !! وهكذا لم يـفرض عليـهم وجهـة نظره بالقـوة المادية ، وموعظة حسنة : تذهب بالذنوب . . وتقرِّب من علاَّم الغيوب .

ولقد حقق هذا المنـهج الإنسانى آثاره فى عالم الواقع . . لقد كـان شباب قريش أفسق من شباب اليوم . . ومع ذلك آمنوا

وإذن . . فلنوفر دموعنـا نحن الدعاة . . . ولنحاول أن نغير من أسلـوبنا ليتم لنا ما نريده !!

رجل العـقيدة : مهـاجم . . . لا مدافع . . . لأن الدفـاع موقف الضـعيف !! ونحن شهداء ولسنا متهمين !

ومن ثم . . . فمحاولة نزع العقيـدة . . . مستحيل !! ، ومن أجل ذلك يحاول أعداؤنا : التشكيك في هذه العقيدة . يعنى : محاولة نقضها حجرًا حجرًا !!

من دعاء الصالحين :

قال ﷺ : « **لا تسألوا الناس شيئًا ...** » فكان الالتزام الصارم : حتى إنَّ أحدهم كان يسقط « سوطه » فلا يسأله أحدًا مع سهولة المهمة : التزامًا بأمر رسول الله . . . وحفاظًا على الكرامة والعزة التى يمكن أن تتبخر بكثرة السؤال !!

وكان بعـد صلاة الجمـعة يقول : الـلهم إنـى أجبـت دعوتـك . . . وصـليـت فريضتك . . . وانتشرت كما أمرت . . . فارزقنى وأنت خير الرازقين .

طلب العلم فـريضة : وقـد ورد : « **ما تصدق الناس بصدقـة مثل علم ينشر** » حديث شريف .

الداعية ... ليس رجلاً انتخابيًّا :

كان المرشح الإنجليزى يكتفى فى دعايته بأنَّ منافسه : يركب السيارة « المرسيدس » الألمانى . . . فليس وطنيًّا !!

أما نحن : فباسم الإسلام : المبادئ فوق المنافع . . وهذا رسول الله ﷺ كما خسفت الشمس . . . قال الناس : خسفت لموت ولده إبراهيم - وكان من الممكن أن يركب الموجة ليكسب ثقة الناس . . . ولكنه لم يفعل راجعًا بالكسوف إلى الله عز وجل وحده !

ومن بعده جاء الفاروق رضى الله عنه : فقد حرم على ذريته الاشتغال بالتجارة حتى لا يستغلوا صلتهم بالحاكم . . . ليكونوا أغنياء على حساب الشعب الكادح ، بل إنه سنّ قانون : من أين لك هذا ؟ فإن ثبت الاستغلال . . عاد بالزيادة على بيت المال .

وفى نفس الوقت . . . ومضيا مع الشعب كان يسأل . . . وبنفسه النساء المسكينات اللاتى لا عائل لهن - كان يسألهن عن حاجاتهن . . . ثم يقضى أو يأمر بقضاء هذه الحاجات !!

الذكر بين العبادات :

« الذكر » من حق الوقت : فلا يمكن قضاؤه ، لكن العبادات يمكن قضاؤها . فلنشمِّر لها عن ذراع ، فلنضبط لها الأنفاس . . ونُحدَّ الإحساس !

فى الدعوة البحث عن المكان المناسب :

ذهب ﷺ إلى الطائف - فلعل مزاج أهلها يكون أفضل من مزاج مشركى مكة . وكان يحب الطائف ، ولكن ظهر أنَّ الطائف أسوأ . . ورموه بالحجارة التى كان من الممكن بالاحتكاك أن ترمى بالشرر .

ولقد حقق الله تعالى أمله لما رجا إعزاز الإسلام بأحد العمرين ، فكان أهل المدينة أفضل . . . وبهم أعز الله تعالى الإسلام .

تجديد الخطاب الدينى :

مع الحدث الجلل . . . والذى هزَّ وجدان أقوى دولة فى عصرنا . . . تحير الناس تحيرًا وصل بهم إلى الاقتناع بأن هناك صراعًا بين الحضارات . . . وهكذا بدا المشهد للعين المجردة ، التى تأخذ بظواهر الأشياء . . فتحجبها الشجرة الضخمة فلا ترى الغابة الكثيفة من ورائها .

وكان طبعيًّا أن تثور أسئلة كثيرة ، ومتشعبة حول صراع الحضارات أو تحاورها .

ولقد سيطر جو من الغموض والالتباس : تداخلت فيه المفاهيم . . . مما يحمّل الباحث مسؤولية قراءة الواقع . . . بعمق وشمول .

من أخلاق الصالحين :

سجد مِنْ أول الليل . . . حتى الصباح ؟!

وكان يدعو : عظم الذنب عندى . . . فليعظم العفو عندك !! فيما يشبه أن يكون « حبْسًا انفراديًّا » .

من أساليب الدعوة :

١ ـ أسلوب دائم : بالحكمة .

٢ ـ مع المعاندين : وجادلهم .

٣ ـ تجنب المراء : « **ذروا المراء** » . لأن المارى : منافق . . عليم اللسان .

ولذلك لا تجد فى الفلسفة برد اليقين . . . ولا تعثر على الحق فى خضم الآراء المتشابكة ! والمتناقضة !

أما فى منهج القرآن . . . فالعثور على اليقين سهل . .

واليوم لا يُقِر الفلاسفة بالهزيمة . . لقد كانت لهم فى الماضى دولة . . . وقالوا : إن هى إلا حياتنا أما اليوم فصارت لهم دولة . . . وصولة . . وإعلام ، وانتشار . . تحت ستار ثوب خداع هو : ادعاء البحث العلمى .

مثلاً : محمد طيب . . . لكن الوحى ظاهرة مرضية : رشوة يقدمونها !!

هكذا يكون الإيمان :

أطفأ واحد من الوفد الذى يزور المريض : أطفأ المصباح لما وجده قد فارق الحياة . لأن زيت المصباح لم يعد ملكًا له . . وإنما صار ملكًا للوارثين !!

ونذكر هنا قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى** ... ﴾ فبدل « اللجنة » التى تكتب نعى الأسرة من مال الورثة . . . يجب الالتزام أولاً بما أرشد إليه القرآن !!

وقد كان هناك صالحون أدركوا ذلك عملاً : ومنهم الذى ظل يستغفر الله ٣٠ سنة ؛ لأنه شاهد صديقاً فى دار جاره فقال : الحمد لله . . . (لأنه لم يكن فى داره) ومنهم ذلك الذى استغفر ربه ٤٠ سنة ؛ لأنه غسل يده بطين من حقل جاره بعد أن أكل السمك !!

سأل رجل « عبد الملك بن مروان » الخلوة ، فقال لأصحابه : إذا شئتم فقوموا . فلما تهيأ الرجل للكلام . قال له عبد الملك : إياك أن تمدحنى . . . فأنا أعلم بنفسى منك أو تكذبنى . . . فإنه لو رأى لكذوب . أو تسعى إلىّ بأحد . . وإن شئت أقلتُك ، فقال الرجل : أقلنى يا أمير المؤمنين ، وانصرف .

يقول الله عز وجل فى سورة المائدة / ٨٩ : ﴿ **لا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ** ﴾ .

هناك نوعان من الكفارات : كفارة الرجوع عن اليمين . . . وحكمها ماجاء فى هذه الآية الكريمة ، وهناك كفارة إثم ترك الخير . . . وهى : فعل الخير المتروك .

وحكم من رجع عن يمين رأى غيرها خيرًا منها :

الرأى الأول : كفارته مجرد الرجوع ، فقد أمر أبو بكر رضى الله عنه بالرجوع عن يمينه ، ولم يوجب عين الكفارة .

والرأى الثانى : لا بد من الكفارة عن اليمين .

أسباب المعصية :

أسباب داخلية :

١ ـ عدم الخوف : مع عظم الذنب .

٢ ـ عدم الحياء : مع عظم النعمة .

٣ ـ الغفلة عن العواقب .

أسباب خارجية :

١ ـ الشيطان ﴿ **وَزَيَّنَ لَهُمُ** . . ﴾ .

٢ ـ التقاليد : ﴿ **وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ .

وتبقى المواهب : كالحشائش التى تخنق النبات الأخضر . فلا يثمر . ولا يزهر . وينسى الإنسان العلم بالذنب يفعله !!

ولما قرأ « الشافعى » الموطأ على « مالك » من الذاكرة قال له « مالك » : إنى أرى على وجهك نوراً . . . فلا تطفئه بالمعصية !!

وفى قلوب الصالحين تبقى بذرة الخير . . . مهما أذنبوا :

أ ـ قوله : كان يحب الله ورسوله .

ب ـ وتوبة ماعز بعد ما زل : إنه يعلمنا كيف نتذوق ألم الاعتراف !! ولقد كانوا أكثر استغفاراً بعد الطاعة !! لشعورهم بالنقص فيها ، فيكف بعد المعصية ؟!!

كان خوفهم من الله تعالى بعد أن عرفوا عظمته أشد : لقد أذاقوا الجسم ألم الطاعة . . . بعد أن ذاقوا حلاوة المعصية !

المهم : أن نفعل ما يغيظ غيرنا . . . لا ما يسرُّهم ، لقد ارتاح اليهود لما توجهنا إلى بيت المقدس ، فلما صارت قبلتنا الكعبة ـ أنكروا ذلك وكرهوه ، وهو معنى : غيظهم .

وأذكر هنا ما قلته لمن طلب أن يخطب الشيخ أحمد بدلاً عنى . . . وكنا فى عمان . . . وقلت : المهم أن نفعل ما يغيظ عدونا الذى لو نظر إلينا ونحن نختلف .

لارتاح وأهم من ذلك أن نتحد : ليغيظه اتحادنا . . . فلا يهمك أن يكون الخطيب الشيخ أحمد أو الشيخ محمود . . ولكن وحدتنا هى التى تزلزل الأرض من تحته .

يقولون : إنَّ المجتمع : وليد فضائلنا ، وإنَّ الحكومة : وليدة عيوبنا ؟!

ويقول علماؤنا : الصحوة ذكر ، فيها تطمئن القلوب ، وفى العجلة بها : الندامة ، وفى التأنى : السلامة !!

يطلب الرازق منكم « فرضًا » أعطاكم كله . . . ويطلب منكم بعضه !! فَلِمَ لا تتصدقون ؟!

أسوة فى النقد :

لما عيّن عمر بن عبد العزيز عيّن ناقدًا يلازمه ، ومنهجهم فى الإصلاح كان :

- إن قلت لأخيك مواجهة . . . فقد أوحشته .
- وإن قلت لغيره : فقد اغتبته .
- وإن قلت متحدثًا : فقد خنته .

فالأحسن : أن تشغل الإنسان عيوبه . . . ويسترك الآخرين !!

يقول الله عز وجل فى سورة الكهف : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) ﴾ .

ذات يوم قال اليهود ـ مدفوعين بعقدة الشعب المختار : التوراة : فيها كل الحكمة . وهى كتابنا . واحتطب المشركون فى حلبهم ، فقالوا : سينفد الوحى .

فجاء الرد الإلهى ومعناه : إنَّ كلام الله سبحانه لا ينفد . . . ومهما أنزل منه فإنَّ الأمر كما يأخذ المِخْيط من المحيط .

فلو ثبت أنَّ البحر الأعظم دواة ممدودًا بسبعة أبحر أو بسبعين ـ تصب فيه صبًّا لا ينقطع . . . ولا فرض أن استُقصيت كل الأشجار . . . ثم كانت أقلامًا . . . فكتبت بها عجائبه . ماذا يحدث ؟ لنفد البحر . . . وتكسرت الأقلام . . . وما نفدت كلمات الله سبحانه . .

ولك أن تتصور مشهد الترعة الجارية فى القرية . . . وصار ما بجانبيها أقلامًا يكتب بها كل أهلها . . . وسوف يسلمك هذا التصور إلى الحكم باستحالة حصر كلمات الله تعالى ؛ لأن المعنى :

لو استُقصر كل الشجر : شجرة . . . شجرة . . . فلم تبق شجرة إلا بُريت أقلامًا . . . ما نفدت عجائب الله تعالى فى هذا الكون العريض كما يفيد قوله عز وجل : ﴿ مِن شَجَرَةٍ ﴾ .

وإذا فهمنا أنَّ « كلمات » جمع كلمة ، والمقام للكثرة (كلم) فلك أن تقول : إذا كانت كلماته لا تفى بها البحار . . فكيف بكلمه سبحانه ؟ وإذن . . . فهذه الأرقام الخيالية . . . بل الفلكية . . . كيف لا يخضع الإنسان أمامها هزيل . . . بين يدى هذه العظمة اللانهائية . . . والتى لا تحد ؟ !!

ونشم الآن من خصائص تاريخنا : أطلال لم تزل تحتفظ بثباتها . وتفاخر بلبناتها المضمخة بعبق التاريخ . وعرق الرجال .

وبقايا جدار آيل للسقوط : تعلن رفضها لتهديد الآلة العصرية . . . رغم محاولات الإغراء المادى ودروب تروى حكايات الطفولة الحالمة .

وتباهى [بخطى الشباب المطمئن] وتروى أسرار تجاريب ذوى النهى .

[وكل أثر : حىّ أو معنوى : يُعيدنا إلى تذكر ما مضى واستلهام ذاكرة التاريخ حين تبتعد المسافة الزمنية . . . لنعرف ما سجله التاريخ] .

يقول الله عز وجل فى سورة الزخرف / ٨٧ : ﴿ **وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ** ﴾ إنهم متناقضون مع أنفسهم . . . لماذا ؟

لأنهم لم يرتبوا على هذا الاعتراف نتيجته ، وهى : إفراده تعالى بالعبادة . . . مادام هو الذى خلقهم سبحانه !! وحده ، ولكنهم ـ لجهلهم ـ فضَّلوا التناقض على الحق المبين !!

عدد سكان اليابان ١٢٧ مليونًا قابلة للنقص عامًا بعد عام . وهذا خطر يهدد أكبر دولة منتجة فى العالم . أما السبب فهو أنَّ المرأة اليابانية عندها من الحرية

الشخصيـة ما يجعلها ترفض أن يتحكـم فيها رجل ، فهى عاملة مـثله . وليست فى حاجة إلى زوج . كـما أنه لم يعد فى حاجـة إلى زوجة . والمجتمع مـفتوح . وكل مواطن تعبـان فى مصنعه . وإذا تبقـى عنـده وقـت فللنوم أو لمحلات الـبيرة . ومن المظاهر المـألوفة فى اليـابان فى نهايـة الأسبوع أن عـددًا كبيرًا مـن الرجال يتـرنحون ويتساقطون بسبب الإسراف فى شرب الخمور . يـحاولون أن يميتوا متاعبهم . وتكون النتيجة أنهم يميتون أنفسهم .

وقد نشرت مجلة « أوشيمارى » اليابانية أنَّ الأرقام تؤكد أنَّ تزايد السكان ضئيل . وإذا استمر النقص بهذا المعدل فسوف تواجه اليـابان عددًا متزايدًا من العواجيز ونقصًا مخـيفًـا من الشـباب ـ ذكورًا وإنـاثًا . ولذلك لابد أن تـبحث الحـكومة والأجـهزة الاجتماعية عن فلسفة جديدة تشجع على الزواج وزيادة النسل .

وقالت المجلة : إنـه مما يبعث على الدهشـة أنَّ الشباب اليابانـى ليس عنده وقت كافٍ للاختلاط ، فهم يعملون كثيرًا وطويلاً ، والمصانع لا ترحم .

وقد تـرتبت حـياتهم تمـامًا على هـذا الأسلوب فى الـعمل . كـما أنَّ المصـانع والشركات تيسر للشباب اختـيار الزوجات الزميلات . . . وليس هذا وضعًا مثاليًّـا ، ولذلك يفضل الشباب ألا يتزوجوا نقابيًّا وبهذه الصورة (الإجبارية) .

إنهم يفضلون العزوبية على الزواج بالأمر المباشر !

وهناك محاولة لعلاج هذه الأزمة ، عن طريق النظر إلى سلوكيات الطفل اليابانى الذى لايجـد الأم والأب معظم الـوقت ، فتـقوم المدرسـة بدور الأبوين فى جـفاف وخشونـة . . فالمدارسَ أصبحت كـالمصانع تنتج الأطفـال بالجملة . المهم أن يـنضبط الإنتاج مهما يكن الثمن نفسيًّا واجتماعيًّا ـ وهى مشكلة أخرى !

يقول المؤمن المشـوق إلى لقاء ربه : (الموت . تحفة المـؤمن) : لأنه خروج من سجن الـدنيا إلى جنـة الرضوان ، وهو منـطق المؤمن . . . الذى يزرى بمـنطق رجل الدنيا الذى أخذ الدهر من عقله . . . قبل أن يأخذ السنّ من جسده !!

والمؤمن هو الذى يفرض احـترامه على الحياة . . . حتـى وهو نائم : غائب عن

الوعى : لما رأى « الـهرمزان » عـمر رضى الله عنـه نائمًا . . . قـال : عدلت . . . فأمنت . . . فنمت ! ثم أردف قائلاً : والله : لقد صحبت من ملوك الأكاسرة . . . فما هبْتُ أحدًا هيبتى من صاحبكم هذا !!

نشأ فى القرن الثانى الهجرى :

يقولون عنه :

أ ـ إنه عاش بمصر . . . والبصرة . فقط .

ب ـ كان يروى عن امرأته .

جـ ـ ادعوا بأنه كان يغازل النساء .

الرد :

أ ـ هذا الادعاء غير مسلم به ؛ لأنه مؤرخ ومن شـأن المؤرخ التنقل كالعصفور . وفى زمان آلته : السماع .

ب ـ أما روايته عن امرأتـه : فقد كانت تكبره بـ ٣٧ عامًا . . . فلـعله نقل عنها صغيرًا . وفى زمانها : لم يكن ذلك أمرًا غريبًا .

ولعل النقل كان من وراء حجاب .

جـ ـ ربما كان لـهذا الاتهام أثره : فقـد أحضره « هشام » ثم ضـربه أسواطا . . ونهاه عن الجلوس فى مؤخرة المسجد !!

دفاع عن ابن إسحاق

كان الإمـام « مالك بن أنس » ممـن كان يحمل عـلى ابن إسحـاق . . إلى حد اتهامه بالكذب . . . لأنه كان يقول عن مالك :

١ ـ ايتونى ببعض كتبه لأظهر عيوبه . . أنّ بيطار كتبه : فكانت العداوة بينهما .

٢ ـ يكفى ابن إسـحاق شرفًا أنه صرف بـكتابه « فى السيـرة » صرف الملوك عن قراءة ما لا يفيد من الكتب .

٣ ـ فى الكتاب مـا لايرضى العباسيين مـثل : اشتراك العباس مـع الكفار . فى

غزوة بدر . وأسر المسلمين له . . وقد حذف « هشام » ذلك الخبر .

يقول الله عز وجل : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا . . . ﴾ .

يظل الإنسان عاطفة حبيسة خلف الضلوع حتى يبذل الإنسان من ماله راضيًا ليكون واحداً ممن تحدثت عنهم الآية الكريمة :

﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [لقمان : ٤] والحديث هنا عن الواجدين . . الذين يفرض عليهم الإيمان أن يبذلوا .

قال الله عز وجل : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ ولاحظ من إنسانية الإسلام ما يلى :

إن ولى الأمر مأمور بأن يأخذ ولا يتردد فى الأخذ . . . وبلا استثناء . . فلا محسوبية فى تحصيل الزكاة . . وإنما هو الإلزام المناسب للآيات المدنية التى نزلت ، وقد أصبح للإسلام دولة ، فإلزام بعد الآيات المكية التى كانت تعظ فقط وترشد .

ومما يساعد على التحصيل : أنّ المطلوب منهم بعض ما يملكون . . وهو المفهوم من لفظ « مِنْ » الذى هو للتبعيض .

ثم ما فى السياق من جبر خاطرهم رأى الأغنياء بأنّ المال مالهم والدولة معترفة بذلك . . . مما يترتب عليه تحريض الواجدين على البذل يعينهم على ذلك أنّ السياق منطلق من سنة بشرية هى : أنّ النفوس تدفع جزاء عوض : والمعوض هنا هو : التطهير من الذنوب ، والتزكية بكثرة فى الحسنات ، ثم دعا فرحًا عليه الصلاة والسلام .

والسياق القرآنى يؤكد الثقة بالإنسان . . . وإقرار كرامته وحريته . . ولاحظ ذلك من اختفاء شخصية الفقراء ليكون الحديث فقط مع الأغنياء الذين يطالبهم ولى الأمر بالزكاة مطالبة معترفة بنوازعهم الجبلية .

ومن معانى ذلك : أنّ الإسلام لم يترك الفقراء تحت رحمة الأغنياء : يعطونهم أو يمسكون عنهم . . . وإنما جعل رزق الفقراء جزءًا من النظام المالى فى الإسلام ، والذى صار بعض عناصر الأمة : حقًا لهم ومعلومًا كذلك : يأخذونه بكرامة . . .

لأنهم يتسلمونه من الدولة لا من الأغنياء الذين قد يستغلون ما أعطوه سبيلاً إلى التحكم فى أقدار الفقراء .

أقاد الحاكم القاتل بالقتيل : قتله به ،واستقدت الأمير من القاتل ، فأقادنى منه .

الإعراض عن الهوى :

« لا يقضى القاضى وهو غضبان » لماذا ؟ :

أ ـ لأن الوعى نائم .

ب ـ والدوافع المكبوتة مسيطرة .

وهنا سؤال : هل ما دام الدين منزلاً من عند الله فلابد أن يغيِّر واقع البشر ؟

أبدًا !! وإنما : ما دام المؤمنون يعملون به . . . ينتصرون وإلاَّ هزموا !

لابد أن تكون هناك علاقة مودة جامعة بين الدعاة : ولأنها « جامعة » فهى مانعة من التعريض بواحد منهم . . . يكون بهذه المودة جنديًا فى كتيبة . . أو عضواً فى جسد إذا تعرض عضو منه لخطر تداعى عليه سائر الأعضاء بالسهر والحمى والدفاع عن حرماته !!

وصحيح أنَّ الأمزجة مختلفة . . . حتى بين الأخوين ولو كانا « توءمًا » فلكل منهما ملامح تجعل منه شخصية مستقلة . . ولكنَّ ذلك لا يمنع من الارتباط الجاعل من الدعاة جبهة واحدة تتناصر وتتآخى . . . فى محاولة لفرض احترامها على العابثين الذين يملكون من أمر الدنيا ما لا يملكون . . . والذين يحاولون فرض سيطرتهم لهذا السبب !!

نحن ... وهم :

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ والمعنى : لا نعقل قولك . . . ولا نفهمه ، وليس الأمر كذلك . . بل لعنهم الله تعالى بسبب كفرهم الذى سلب منهم صلاحية الإيمان.

والقليل منهم هم الذين يؤمنون ، أو يؤمنون : ولكن ببعض التكاليف . . . التى تنسجم مع هواهم . . . وهذا هو الفارق الهائل بين المؤمن ومن لا يؤمن .

فالـذين آمنوا : يحـبون الله تعـالى ، لا يعـدلون به شيـئًا ، فى أية حـالة من الحالات ، من ضراء وسراء . وفى فقر وغنى ، وفى برٍّ أو بحر ، فحبهم عقلى .

أما المشركون : فـهم على عكس ذلك تمامًا ، إنهم ينظرون ولكن بعـيون مريضة وقد يشعرون ولكن بقلوب سقيمة .

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

أعلن عالـم فرنسى إسلامه ، لما قرأ أن النبىَّ ﷺ صرف حراسه ، بعد نزول هذه الآية الكريمة . والآية من أواخر مانزل من القرآن .

وإذن . . . فإخباره ﷺ بعـصمة الله تعالى له كان فى آخـر أيامه . . . ولم يكن فى مستهل دعوته ، وذلك حتى يظل طول عمره كادحًا إلى ربه كدحًا باذلاً أقصى ما يستطيع .

وإلاَّ . . . فلو أخبره بعـصمته مبكرًا . . . فربما اعتمـد على ذلك . . . فلم يكن منه ذلك الكدح وهذه التضحية .

رحمة اليتيم :

يحتاج اليتيم إلى عطف الآخرين لسببين :

أولاً : لقد فقد الوالد . . . ففقد به من هو أحنى عليه . وأرعى لنفسه . وأوفق بتربيته .

وثانيًا : هو ناقص التربية المفضية إلى سوء التصرف .

لكن ما يحـس به من وحشة الاغتراب يـنبغى أن يكون شافعًـا له . . . لو أساء التصرف . فلنتحمله . . . ولنتقبل هفواته . . . على الأقل ، حيز الخاطر المكسور .

من معالـم الحضارة الإسلامية :

على مدى قـرون طوال يحاول الفكر الغـربى تجاهل الدور الإسلامى فـى مجال الاختراع . . والطب . . والرياضيات .

ومع اعتراف المنصفين منهم أخيرًا بهـذا الدور إلاَّ أنه بقيت بقية من هذا التجاهل زاعمـة أنَّ الغرب هـو أصل الحضـارة . . مع أنَّ الأمر بـالعكس ، وهو الأمـر الذى

يتقاضانا إبراز الدور الإسلامى على مدار التاريخ .

يقول واحد من الكاتبين :

قال صاحبنا : يولد الإنسان من أبوين لا يختار أحدهما ، ويولد فى وطن لم يأخذ أحد رأيه فى الولادة فيه ، وحين يكبر يكتشف أنَّ له اسمًا يهوديًا أو مسلمًا أو مسيحيًا ، ثم يكبر الإنسان أكثر فيعرف أنه غنى أو فقير ، ويتعرف على مجتمعه فيدرك أنه مجتمع متقدم أو متخلف ،ويرث الإنسان من أبويه وأجداده صفات معينة واستعدادات خاصة ، وربما ورث أمراضًا انحدرت إليه من أجداده .

ـ كيف يكون الإنسان حرًا فى هذا الكون كله ؟

قلت له : هل انتهيت من كلامك ؟

قال : لم أنته بعد . . إنَّ عقل الإنسان .وهو مناط التكليف ، وموضع المسؤولية يتأثر بآلاف الاعتبارات كالوراثة والتعليم والصحبة والثقافات وضغوط الحياة المعقدة .

ـ كيف يكون الإنسان حرًا فى هذه الحياة إذن ؟

إنَّ هذا يذكرنا ببيت الشعر الساخر الذى يقول : ألقاه فى اليم مكتوفًا ، وقال له: إياك إياك أن تبتل بالماء .

قلت له : هل انتهيت من كلامك ؟ قال : نعم . قلت له : أنت تسأل : هل الإنسان حر فى أفعاله أم مجبور عليها ؟

إنَّ أفضل إجابة لهذا السؤال هى السؤال الذى يقول :

ـ ما الذى سوف يحاسبنا عليه الله تعالى ؟

تعال نتصور إنسانًا ولد فى غابة منعزلة من غابات إفريقيا ، وكان أبواه من ضعاف العقول ، فورث عنهما هذا الضعف ، ولم يعلِّمه أحد ، ولا ثقفه أحد ، ولم يسمع عن الأنبياء ولا سمع عن رسالات السماء .

يقول الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ ومفاد هذا النص أنَّ الله لن يعذب أيَّ إنسان منعته ظروف الحياة من معرفة القانون الإلهى ، وهذه رحمة إلهية ليس كمثلها شيء . وهناك قاعدة قانونية تقول : (لا

يعذر أحد لجهله القــانون) هذه القاعدة الإنسانية تذوب فى بحار الرحــمة الإلهية فلا يعذب الله إنسانًا يجهل القانون ، ويعذر الله مَنْ لم يبلغه القانون .

مع الشيخ محمد الغزالى :

يقول رحمه الله : للحياء مواضع يستــحب فيها . فالحياء في الكلام يتطلب من المسلم أن يطهر فــمه من الفحش ، وأن ينزه لسانه عن العــيب ، وأن يخجل من ذكر العورات ، فإنَّ من سوء الأدب أن تفـلت الألفاظ البذيئة من المرء غير عــابئ بمواقعها وآثارها .

قال رسول الله ﷺ : « **الحياء من الإيمان ، والإيمان فى الجنة ، والبذاء من الجفاء، والجفاء فى النار** » [١] .

ومن الحياء فى الكلام : أن يقتصد المسلم فى تحدثه بالمجالس ، فإنَّ بعض الناس لا يستحيون من امتلاك ناصية الحديث فى المحافل الجامعة ، فيملؤون الأفئدة بالضجر من طول ما يتحدثون ، وقد كره الإسلام هذا الصنف .

قال رسول الله ﷺ : « **من تعلم صرف الكلام** [٢] **ليسبى به قلوب الرجال لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً** [٣] » .

وقــال : « **إن الله يبغـض البليغ من الرجال ، الذى يتـخلل بلسانه كمـا تتخلل البقرة**»[٤] .

وسر هذا البغض أنَّ أخــبار هؤلاء لاتخلو من التزيد ، وأحــوالهم لا تخلص من الرياء ، واستئثارهم بالمجالس متنفس لعلل خلـقية كان الحياء علاجها الشافى لو أنهم استمسكوا به ، ولذلك جاء فى بـعض الآثار أنَّ العىّ أفضل من هذا الإفصاح ، وهو عىّ اللسان لا عىّ القلب .

ومن الحيــاء أن يخجل الإنســان من أن يؤثر عنــه سوء ، وأن يحرص علــى بقاء سمعته نقية من الشوائب ، بعيدة عن الإشاعات السيئة .

---

(١) أحمد . (٢) صرف الكلام : بلاغته .

(٣) أبو داود .

(٤) الترمذي .

فإنَّ الغيبة إنما تحـرم فيمن سترت حاله ، أما من كشف صفـحته ، وأظهر سوءته فإنَّ الناس لن يبلغوا منه ما يبلغ من نفسه ، ولذلك أمر رسول الله مَنْ لوثته قاذورات المعاصى أن يتوارى عن الأعين .

وعندما رآه بعض أصحابه مع زوجته فى ناحية المسجد استوقفهم لينبئهم بأنه ليس مع امرأة غريبة عنه .

والفارق واضح بين من يطلب بـعمله السمعة ، ومن يذود عن سمـعته العباد . واتقاء المسلـم للناس لا يعنى النفاق بإبـطان القبيح وإظهار الحـسن . كلا ، بل المراد عدم الجهر بالقبائح والاستحياء من مقارفتها علانية .

فإنَّ الرجل الذى يخجـل من الظهور برذيلة لا تزال فيه بقيـة من خير ، والرجل الذى يطلب الظهور بالفضيلة لا تزال فيـه بقية من شر . . . على أنَّ الإنسان ينبغى أن يخجل من نفسه كما يخجل من الناس ، فإذا كره أن يروه على نقيصة فليكره أن يرى نفسه على مثلها ، إلا إذا حسبها أحقر من أن يُستحى منها . وقد قيل : من عمل فى السر عملاً يـستحيى منه فى العلانيـة فليس لنفسه عنده قـدر . . . ومن ثم كان لزامًا على المسلم أن يبـتعد عن الدنايا ، ما ظهـر منها وما بطن ، سواء خلا بـنفسه أو برز إلى الناس .

وفى الأثر : « ما أحـببت أن تسمعه أذنـاك فأته ، وما كرهت أن تسـمعه أذناك فاجتنبه » .

إنَّ الحياء ملاك الخير ، وهو عنصر النـبل فى كل عمل يشوبه ، قال رسول الله: « **ما كان الفحش فى شىء إلا شانه ، وماكان الحياء فى شىء إلا زانه** » (١) .

فلو تجسم الحياء لكان رمز الصلاح والإصلاح .

عن عائشة رضي الله عنهـا أنَّ رسول الله ﷺ قال لها : « **لو كان الحـياء رجلاً لكان رجلاً صالحًا ، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجلاً سوءًا** » (٢) .

ومن حياء الإنسان مع الناس : أن يعرف لأصـحاب الحقوق منازلهم ، وأن يؤتى

---

(١) الترمذى . (٢) الطبرانى .

كل ذى فضل فضله . فللغلام مع مَنْ يكبرونه ، وللتلميذ مع مَنْ يعلمونه مسلك يقوم على التأدب والتقديم ؛ فلا يسوغ أن يرفع فوقهم صوته ، ولا أن يجعل أمامهم خطوهُ .

وفى الحديث : « **تواضعوا لمن تعلمون منه** » (١) وفى الحديث كذلك : « **اللهم لا يدركنى زمان لا يُتبع فيه العليم ، ولا يُستحيا فيه الحليم** » (٢) .

وعن عبد الله بن بسر : لقد سمعت حديثًا منذ زمان : « **إذ كنت فى قوم**(٣) **فتصفحت وجوههم فلم تر فيهم رجلاً يهاب فى الله عز وجل ، فاعلم أنَّ الأمر قد رق !!** » (٤) .

وليس الحياء جبنًا ، فإن الرجل الخجول قد يفضل أن يريق دمه على أن يريق ماء وجهه ، وتلك هى الشجاعة فى أعلى صورها .

قد يكون فى الحياء شىء من التخوف ، بيد أنه تخوُّف الرجل الفاضل على مكارمه ومحامده أن تذهب ببهائها الأوضاع المحرجة . وهذا التخوف يقارن الجراءة فى مواطنها المحمودة .

فعندما نكص اليهود قديمًا عن محاربة الجبارين النازلين بالأرض المقدسة : ﴿ **قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ** ﴾ [المائدة : ٢٣] .

فهؤلاء الذين يتقون الله ، ويخافون العار ويستحيون من الفرار ، هم الذين لو وقع قتال لقادوا الهجوم وقرَّبوا الفتح !!

ولاشك أنَّ الحياء الكامل يسبقه استعداد فطرى ممهّد ، فإنَّ هناك طبائع تكاد الصفاقة تكون لازمة لها ، فى الوقت الذى ترى فيه بعض الناس شديد الخجل مرهف الإحساس إلى حد بعيد . لكن الخجل ، مع أنه العنصر البارز فى الحياء ، يقع فى الخير والشر ، وقد يجر صاحبه إلى ورطات سيئة . أما الحياء فلا يكون إلاَّ فى

---

(١) الطبرانى .

(٢) أحمد .

(٣) القوم : عشرون رجلاً أو أقل أو أكثر .

(٤) أحمد .

الحدود المشروعة . فالذى يتهيب تقريع المبطلين لا يعتبر حييًّا ! إنَّ الحياء لايكون تجاه الباطل ، ولا موضع له مع الناس إذا ضلوا . ولا موضع له فى السلوك عندما يقف المرء موقفًا يناصر فيه الحق . . . وقد عاب المشركون على الإسلام أنه حقر الأصنام ، وفضح عجزها عن خلق ذبابة ، بل عن حماية نفسها لو هاجمتها ذبابة ، وقالوا : إنه ليس من الحياء أن تهاجم آلهتهم بهذا الأسلوب . . . فنزل قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾ [البقرة : ٢٦] .

فإبراز الأصنام فى هذه الصورة من العجز والضعة حق : ﴿ **وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ** ﴾ [الأحزاب : ٥٣]. وفى سبيل إحقاق الحق لا يتهيب المسلم أحدًا ولا يخشى بأسًا .

والحياء فى أسمى منازله وأكرَمها يكون من الله عز وجل ، فنحن نطعم من خيره ونتنفس فى جوّه ، وندرج على أرضه ، ونستظل بسمائه ، والإنسان بإزاء النعمة الصغيرة من مثله يخزى أن يقدم إلى صاحبها إساءة ، فكيف لا يَوْجَل الناس من الإساءة إلى ربهم ، الذى تغمرهم آلاؤه من المهد إلى اللحد ، وإلى ما بعد ذلك من خلود طويل ؟

إنَّ حق الله على عباده عظيم ، ولو قدروه حق قدره لسارعوا إلى الخيرات يفعلونها من تلقاء أنفسهم ، ولباعدوا عن السيئات خجلاً من مقابلة الخير المحض ، بالجحود والخسة .

عن ابن مسعود : قال رسول الله ﷺ : « **استحيوا من الله حق الحياء** » قلنا : إنا نستحيى من الله يا رسول الله ـ والحمد لله ـ قال : « **ليس ذلك ! الاستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى ، والبطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأولى . فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء** » [(١)] .

وهذه العظة ، ويقال إنها لابن مسعود ، تستوعب كثيرًا من آداب الإسلام،

---

(١) الترمذى .

ومناهج الفضيلة ، فإنَّ على المسلم تنزيه لسانه أن يخوض فى باطل ، وبصره أن يرمُق عورة أو ينظر شهوة ، وأذنه أن تسترق سرًّا أو تستكشف .

قال : فقد كان ذلك لعشرين سنة خلت فى موت الحسن [1] ، فقد مات عشية الخميس ، وأصبحنا يوم الجمعة ففرغنا من أمره ، وحملناه بعد صلاة الجمعة ، فتبع أهلُ البصرة كلُّهم جنازته واشتغلوا به ، فلم تُقَمْ صلاةُ العصر بهذا المسجد ، وما تركت منذ كان الإسلام يومئذ ؛ ومثل الحسن لا تموت ساعةُ موته من عُمْر مَنْ شَهدها فذلك يومٌ عجيب قد لَفَّ نهارُه البصرةَ كلَّها فى كَفَن أبيض ، فما بقيت فى نفس رجل ولا امرأة شهوةٌ إلى الدنيا ، وفرغ كلُّ إنسان من باطله ، كما يفرغ من أيقن أن ليس بينه وبين قبره إلا ساعة ، وظهر لهم الموت فى حقيقة جديدة بالغة الرَّوْع لا يراها الأبناء فى موت آبائهم وأمهاتهم ، ولا الآباء والأمهاتُ فى موت من ولدوا ، ولا المحبُّ فى موت حبيبه ، ولا الحميمُ فى موت حميمه ، فإن الجميع فقدوا الواحد الذى ليس غيرهُ فى الجميع ؛ وكما يموت العزيزُ على أهل بيت فيكونُ الموتُ واحدًا وتتعدّد فيهم معانيه ، كذلك كان موتُ الحسن موتًا بعدَدَ أهل البصرة !

ذاك يومٌ امتدَّ فيه الموتُ وكبَر ، وانكمشت فيه الحياةُ وصغرتْ ، وتحاقرت الدنيا عند أهلها ، حتى رجعت بمقدار هذه الحفرة التى يُلقى فيها الملوك والصعاليك والأخلاطُ بين هؤلاء وأولئك ، لا يَصغُر عنها الصغير ، ولا يكبرُ عنها الكبير ، لا بل دون ذلك ، حتى رجعت الدنيا على قدر جيفة حيوان بالعراء ، تنكشف للأبصار عن شَوْهَاء نَجِسة قد أرَمَّت [2] لا تُطاق على النظر ، ولا على الشم ، ولا على اللمس ؛ وما تتفجَّر إلا عن آفة ، وما تتفجَّر إلا لهوام الأرض .

تلك هى الذكرى ، وأما الرؤيا فقد طالعتنى نفسى من وجه هذا الفتى ، فأبصرتُنى حين كنتُ مثله يافعًا مُترعْرِعًا داخلاً فى عصر شبابى ، فكأنما انتبهتْ عينى من هذه النفس على فاتك خبيث كان فى جناياته فى أغلاله فى سجنه ، ومات طويلاً

---

(١) هو الحسن البصرى الإمام العظيم ، وسيأتى وصفه ، ولد سنة ١٥ للهجرة ، وتوفى سنة ١١٠ ، وقد توفى مالك بن دينار شيخ هذه القصة فى سنة ١٣١ ، فيكون تاريخ القصة فى سنة ١٣٠ .

(٢) أرمت : بدأت تتعفن وتبلى .

ثم بُعثَ !

إنى مُخبركم عنّى بما لم تُحيطوا به . فـأرْعُوه أسماعكم ، وأحْضِروه أفهامكم ، واستجمعوا له ، فـإنه كان غيْبَ شيخكم . وأنا محدِّثكم به كـيلا ييأس ضَعيف ولا يقنط يائس ، فإنَّ رحمة الله قريبٌ من المحسنين .

لقد كنتُ فى صدر أيامى شُرطيًا ، وكنت فى آنفَة الحداَثة من قبلها أتَفتّى وأتشَطَّرُ وكـنـت قـويًـا معصوبًا فى مـثل جِبْلة الجبل من غلَظ وشدة ، وكنت قـاسيًا كأن فى أضلاعى جـندلةً لا قلباً ؛ فـلا أتذمم ولا أتأثم ، وكنت مُـدمنًا على الخمـر ؛ لأنها روحانيّةُ مَنْ عجز أن تـكون فيه روحانية ، وكأنها إلهية يُزَوِّرهـا الشيطان ـ لعنه الله ـ فيَخْلُـق بها للنفس ما تحـب مما تكره ، ويثيبهـا ثواب ساعة ليسـت فى الزمن بل فى خيال شـاربها ، وكأن جَهل الـعقل نفسه فـى بعض ساعات الحيـاة ، هو ـ فى عِلم الشيطان وتعليمه ـ معرفة العقل نفسه فى الحياة !

فبينا أنا ذات يوم أجولُ فى السوق ، والنـاسُ يَفُورون فى بيعهم وشرائهم ، وأنا أرقُبُ السارق . وأعدّ للجـانى ، وأتهيأ للنزاع ـ إذ رأيتُ اثنين يتـلاحيَان ، وقد لَبَّب أحدُهما الآخر ؛ فأخذتُ إلـيهما . فسمعتُ المظلوم يقول للظالـم : لقد سَلَبْتنى فَرحَ بُنَيّاتى ، فسيدعون الله عليك فلا تصيبُ من بعدها خيرًا ، فإنى ما خرجتُ إلا اتباعًا لقـول رسول الـله ﷺ : « **خرج إلى سـوق من أسواق المسلمين ، فـاشترى شيـئًا ، فحمله إلى بيته ، فخصَّ به الإناث دون الذكور ، نَظَر الله إليه** » .

قال الشيخ : وكنت عـزبًا لا زوجة لى ، ولكن الآدمية انتبـهت فىَّ وطمعتُ فى دعوة صالحة من البُنـيَّات المسكينات ، إذا أنا فرّحْتُهنَّ ، ودخَلتـنى لهن رِقَّةٌ شديدة ، فأخذتُ لـلرجل من غريمه حتـى رضى ، وأضعفتُ له من ذاتِ يـدى لأزيد فى فرح بناته ، وقلت له وهو ينصـرف : عهدٌ يحاسبُك الله عليه ، ويسـتوفيه لى منك ، أن تجعل بناتك يدعون لى إذا رأيت فَرَحهنَّ بما تحمل إليهنَّ ، وقل لهن: مالك بن دينار .

وبت ليلتى أتقلب مـفكرًا فى قول رسول الله ﷺ ومعانيه الكثـيرة . وحثه على إكرام الـبنات . وأنَّ مَنْ أكـرم بناتـه كرُمَ علـى الله ، وحـرصه أن ينـشأن كـريمات فرحات، وحدثنى هذا الحديث ليلتى تـلك إلى الصبح . وفكرت حينئذٍ فى الزواج .

وعلمت أنّ النـاس لا يزوجوننى من طيبـاتهم ما دمت من الخبيثين ، فلما أصبحتُ غدوت إلى سوقُ الجـوارى ، فاشتريت جارية نـفيسة ، ووقعتْ منى أحـسن موقع ، وولدت لى بنتًا فـشُغفتُ بها ، وظهرت لى فيـها الإنسانيةُ الكبيـرة التى ليست فىَّ ، فرأيت بُعْدَ ما بينى وبين صورتى الأولى ، ورأيتهـا سماوية لا تملك شيئًا وتملك أباها وأمَّها ، وليس لها من الدنيا إلا شبع بطنها وما أيسره ، ثم لها بعد ذلك سرور نفسها كاملاً تـشبُّ عليه أكثـر مما تشبُّ على الرضاع ، فـعلمت من ذلك أنَّ الذى تكـتنفه رحمة الله يملـك بها دنيا نفسه ، فمـا عليه بعد ذلك أن تفوته دنـيا غيره ، وأنَّ الذى يجد طهارة قـلبه يجد سرور قلبه وتـكون نفسه دائمًا جديدةٌ عـلى الدنيا ، وأنَّ الذى يحيـا بالثقـة تُحييـه الثقة ؛ والذى لايبـالى الهمَّ لا يبـالى الهمَّ به ؛ وأنَّ زينة الـدنيا ومتاعها وغرورها وما تجلب من الهم ـ كلُّ ذلك من صغر العقل فى الإيمان حين يكبر العقلُ فى العلم.

كانت البـنية بدء حياة فـى بيتى وبدء حيـاة فى نفسى . فلمـا دبَّت على الأرض ازددت لهـا حبًّـا ، وألفتنى وألفتها ، فرزقَتْ روحى منها أطهر صداقة فى صديق ، تتجـدد للقلب كـل يوم ، بل كل ساعـة ، ولا تكون إلا لمحض سـرور القلب دون مطامعه ، فتُمدُّه بالحياة نفسها لا بأشياء الحياة ، فلا تزيد الأشياء فى المحبة ولا تنقص منها ، على خلاف مـا يكون فى الأصدقاء بعضهم من بعض واختـلافهم على المضَرَّة والمنفعة .

قال الـشيخ : وجـهدت أن أترك الخـمر فلـم يأت لى ولم أسـتطعـه ، إذ كنت منهمـكًا على شربهـا ، ولكن حب ابنتى وضع فى الخـمر إثمها الـذى وضعته فـيها الشريعة ، فكرِهتُهـا كُرْهًا شديدًا ، وأصبحت كالمكره عليها ، ولم تعـد فيها نشوتها ولا رِيُّها ، وكانت الـصغيرة فى تمزيق أخيـلتها أبرع من الشيطـان فى هذه الأخيلة ، وكأنما جـرتنى يدُها جـرًا حتى أبعدتنى عن المنزلة الخمـرية التى كان الشيطان وضعنى فيهـا، فانتقلت من الاسـتهتار والمكابرة وعـدم المبالاة إلى الندم والتَحـوُّب والتأثُّم ، وكنت من بعدها كلما وضعت المسكر ، وهمـمت به دبَّت ابنتى إلى مجلسى ؛ فأنظر إليهـا وتنتشر عليـها نفسى من رقة ورحـمة ، فأرقب ما تصـنع ، فتجىء فتُـجاذبنى

الكأس حتى تُهرقَها على ثوبى ، وأرانى لا أغضب ، إذا كان هذا يسرُّها ويضحكها فأسرّ لها وأضحك .

ودام هذا منى ومنها ، فأصبحت فى المنزلة بين المنزلتين ، أشرب مرة وأترك مرارًا، وجعلت أستقيم على ذلك ، إذ كانت النَّشوة بابنتى أكبر من النشوة بالزجاجة، وإذ كنت كلما رجعتُ إلى نفسى وتدبَّرتُ أمرى ، أستعيذ بالله أن تعقل بنتى معنى الخمر يومًا فأكون قد نجَّستُ أيامها ، ثم أتقدم إلى الله وعلىَّ ذنوبها فوق ذنوبى ، ويترحَّم الناس على آبائهم ، وتلعنُنى إذ لم أكن لها كالآباء ، فأكون قد وُجِدتُ فى الدنيا مرة واحدة وهلكت مرتين .

ومضيتُ على ذلك وأنابها أصلح بها شيئًا فشيئًا ، وكلما كبرت كبرت فضليتى ، فلما تم لها سنتان ، ماتت !

قال الراوى : وسكت الشيخ ، فعلقت به الأبصار ، ووقفت أنفاس الناس على شفاههم ، وكأنما ماتت لحظاتٌ من الزمن لذكر موت الطفلة ، وخامر المجلس مثلُ السكْر بهذه الكأس المذهلة ، ولكن الطفلة دبَّت من عالم الغيب كما كانت تصنع ، وجذبت الكأس وأهرقتها ، فانتبه الناس وصاحوا : ماتت فكان ماذا ؟

قال الشيخ : فأكمدنى الحزن عليها ، ووهن جأشى ، ولم يكن لى من قوة الروح والإيمان ما آتأسى به ، فضاعف الجهل أحزانى ، وجعل مصيبتى مصائب . والإيمان وحده هو أكبر علوم الحياة ، يبصرك إن عميت فى الحادثة ، ويهديك إن ضللت عن السكينة ، ويجعلك صديق نفسك تكون وإياها على المصيبة ، لا عَدُوَّها تكون المصيبة وإياها عليك ، وإذا أخرجت الليالى من الأحزان .

كان من بنود صلح الحديبية بين الرسول ﷺ والمشركين ما يلى :

- من أتى أهل مكة من المسلمين لا يرد إليهم .
- ومن أتى المسلمين من كفار مكة رد إليهم .
- وحدث أن وفدت على الرسول بعض النساء . ومنهن : أم كلثوم بنت عقبة. . . جاءت مهاجرة إليه ﷺ .

وخرج أخواها « عمارة » و « الوليد » يتعقبانها . . . فقالا للنبى ﷺ : ردها علينا بالشرط الذى اتفقنا عليه .

فقال ﷺ : « **كان الشرط فى الرجال . لا فى النساء** » وعندئذ نزلت هذه الآية الكريمة موضوع السؤال ، فحسمت القضية لصالح المرأة المؤمنة . فحملت المجتمع الإسلامى كله مسؤولية الوقوف إلى جانب المرأة المهاجرة ، وذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ** ﴾ [الممتحنة: ١٠] .

وليكن الامتحان سهلاً ميسراً .

تستحلف المرأة أنها ما خرجت بغضًا لزوجها ، ولا طمعًا فى الدنيا . . . وما أخرجها إلاَّ حبها لله ورسوله . ورغبة فى دين الإسلام . فإن غلب على ظنكم أنهن مؤمنات . . . بما بدا لكم من أمارات فيكفى هذا الامتحان الميسر فى قبولهن . ولاداعى للتشدد فى الأمر . . فمهما دققتم فلن تصلوا إلى حقيقة ما تكنه الصدور . فقفوا عند حدود علمكم . واتركوا الحكم النهائى بالإيمان للحق تعالى . فهو وحده أعلم بإيمانهن .

ويترتب على هذا النجاح خطوة عملية هى : ألاَّ تردوهن إلى الكفار حيث انقطع ما بينهم من صلة ببقاء الأزواج على الشرك .

لكن ذلك لا يسقط حق الزوج فى استرداد ما أنفق من مهر حتى لا نجمع عليه خسران الزوجة وخسران المال . تقديراً من الإسلام لإنسانية الإنسان . ولا بأس أن تتزوجوا المهاجرات شريطة إعطائهن مهورهن .

الإنسان بين عقله ومزاجه :

يقول الله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** ﴾ [سبأ : ٤٦] .

تمهيد

يقع الإنسان تحت تأثير المجموع . . . فيحدث الآتى :

١ - يسترسل مع آماله بقوة الجماعة التى ينتسب إليها . . فيقبل فى ظلها ما كان

يرفضه منفردًا مثلاً مسؤولية فردية . . وإنما المسؤول هو : الجماعة .

٢ ـ فى انطلاقه مع الجماعة ـ فى مظاهرة مثلاً ـ هو قابل للتأثر بها .

٣ ـ وبهذا يهبط الإنسان فى سلم الحضارة ؛ لأنه بعد أن كان مسؤولاً . . لم يعد كذلك . وبعد أن كان عاملاً . . يصبح منقادًا للغريزة . . . عنيفًا لايريده أحد . وإن كان إنطلاقه فى غير مصلحته .

باختصار : يصبح الفرد فى الجماعة الثائرة الغائرة تابعًا يكتب ما يملى عليه ، يواجه الحياة بلا سلاح وبلا تعب . ولكنّه لو انفرد بعقله ـ كما تشير الآية الكريمة ـ يكون قادرًا على ضبط أعصابه وبالتالى يأخذ القرار السليم .

كان « إياس » ذكيًّا . . . ولكنه كان ضعيفًا . . . بينما كان أخوه قويًّا . . ولذلك كان أبوه يقدم أخاه عليه .

ومن ذكائه أنه قال لأبيه يومًا : إن أخى « كالفروج » : يخرج من البيضة يلتقط حب . . . ثم يذبح ، أما أنا : فمثل فرخ الحمام ، يولد ضعيفًا ، ثم يتعهده والداه حتى إذا كبر . . يتخذه الناس لمنافعهم . . . ويرسلونه فى الجهات البعيدة ، فقدمه أبوه على أخيه .

رد خالص :

أحيانًا تجد نفسك فى مواجهة مالاتطيقه . . . ولكن الحياء يعتقلك فلا تقول شيئًا ولكن المجربين يذكرون من توجيهاتهم ما نخرج به من المأزق الحرج .

قال الأعمش : إذا كنت فى الصلاة . . . وعلى يساره ثقيل . . . فتسليمة إلى يمين . . . تجزئك !!

وذات يوم قال رجل ثقيل الظل لواحد من الناس : كيف بتّ البارحة ؟ فدخل الرجل المسؤول بيته . . . ثم أتى بحصير . . ووسادة . . ثم رقد عليها وقال له : بت هكذا !!

الرأسمالى يظن أن له الحرية الكاملة فى التملك .

والشيوعى يظن أنه حر فى إذلال الآخرين .

وترتب على ذلك حرب دائمة بين : العاملين وأصحاب العمل .

أمـا فى الإسـلام : فهناك نظام تشريعى عـادل ، فكل إنسان أحق بماله ، وهو ملزم بالنفقـة على الأصول والفروع والأقارب . والدولة تأخـذ الزكاة . . . ثم تردها على الفقراء . وفى عهد عمر بن عبد العزيز لم يجدوا فقيرًا يأخذ الزكاة .

هذا إلى جانب «التطوع » بالصدقة .

طرق الاكتساب أو « الملكية » :

١ ـ التملك بالجهد الشخصى .

٢ ـ أو بحكم الشرع كالميراث .

واجبات الملكية :

١ ـ الإنفاق على الزوجة والولد .

٢ ـ الزكاة : تجمعها الدولة : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ ... ﴾ .

٣ ـ حقوق أخرى غير الزكاة .

٤ ـ والزكاة عبادة من العبادات .

قواعد توجيهية :

١ ـ النهى عن الاكتناز .

٢ ـ النهى عن الإسراف والتقتير .

٣ ـ النهى عن تعطيل الأرض التى ، احتازها .

نحن ... والآخر :

يقول أحد الباحثين : (التصريحات التى أدلى بها عالم الطب الأمريكى «جيمس واطسون » ، الحائز علـى جائزة نوبل فى العلوم الطبيـة ، والتى أثارت ضجة وردود فعل غاضبـة وشاجبة ، أقل ما يقال عن مطلقـها إنه مثير للشفـقة . أما السؤال الذى يقفـز إلى الذهن فور سمـاع مثل هذه « الهـرطقات » فهو : كـيف لمن يحمل عـقلاً وفهمًـا كهذا أن يفوز بـواحدة من أرفع الجوائز فى العـالم ، إن لم تكن أرفعـها على

الإطلاق ؟

أما « فرِّية » واطسون التى انحدرت به إلى أسفل السافلين فى درجات العلم والمعرفة فهى ادعاؤه بأنَّ « الأفارقة أقل ذكاء من البيض » وهو ما استدعى من إدارة معهد كولا إسبرينغ الذى يعمل به أن يعلق مهامه وإيقافه لحين تفسير ما قال . وجاءت تصريحاته التى أثارت استياءً عالميًّا فى حديث نشرته له صحيفة (صنداى تايمز) شكَّك فيه فى مستوى ذكاء الأفارقة بشكل عام . وبرر به تشاؤمه من مستقبل القارة الإفريقية .

مثل هذا الفهم العنصرى الاستعلائى الاستقصائى البغيض هو الذى أدى إلى أن يقوم أجداده البيض فى القارتين الأمريكية والأوروبية باستجلاب ملايين الأفارقة كـ « عبيد » ليظلوا يعملون سُخرة ويجردون من آدميتهم ، فيعاملون فى مستوى أقل من الحيوانات قرونًا عديدة .

وهو فكر أدى إلى أن تغزو الدول الغربية القارة الإفريقية وتستعمر أرضها وإنسانها ، و « تسرق » ثرواتها من على باطن الأرض وداخلها لتترك هذا الإنسان فى النهاية يعانى الفاقة والفقر والمرض والجوع والتخلف والحرمان من كل شىء رغم أنه من بناة الحضارة الإنسانية عبر عصورها السحيقة .

يأسف الواحد منَّا بوجود أمثال واطسون فى القرن الحادى والعشرين الذى يرفع فيه الغرب شعارات حقوق الإنسان ويروِّج لمبادئ الديمقراطية والمساواة التى لم يطبقها الغرب إلى الآن فى بعض أجناسه ومجتمعاته التى تعود إلى أصول سوداء .

إن أممًا لا يزال بعض أميز عقولها يفكر بمثل هذا المنطق ، لهى أمم تعيسة لا تستطيع أن تقدم لنفسها شيئًا ، ناهيك أن تقدم للبشرية ما ينفعها .

هذه العقلية الاستقصائية هى نفسها التى تأبى فى « إباء وشم » الاعتذار لسود أفريقيا الذين أبدوا على أيدى جيوش الاستعمار الأبيض ، أو لأولئك الذين نقلوا وعوملوا كالجرزان فى أمريكا وأوروبا لعقود طويلة رغم أنهم أسهموا بجهدهم وعرقهم ودمائهم فى بناء الحضارة التى يتباهى بها الغرب كله ، فيما ترك أجدادهم القارة الأفريقية فريسة للحروب أوارها من مصانع الأسلحة التى لا يحاربون بها

بعضهم ولكنهم يصدرونها للسود لكى « يتطاحنوا » بها فى حروب لا تنتهى ، ومن ثم يأتى إليهم الأبيض فى ثوب ملائكى يحمل الإغاثة والطعام و « الأجندة الخفية » ويذرف دموع التماسيح على ضحايا حرب هو مشعلها ، ومُغذى نيرانها ، وبائع أسلحتها، ثم يصفهم بعد ذلك بـ « التخلف » فأيهما المتخلف ؟) .

أما فى الإسلام : فإنَّ من أسس التعامل : الحب ، وإدراك أنَّ الاختلاف ظاهرة بشرية ﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ** (٩٩) ﴾ [يونس: ٩٩] .

وأنَّ الحساب : سوف يكون فى الآخرة . . . وليس إلينا ﴿ **إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ** (٢٥) **ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم** (٢٦) ﴾ [الغاشية: ٢٥ ـ ٢٦] .

وأنَّ العدل : أساس التعامل ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ** ﴾ [المائدة : ٨] .

ثم إنَّ احترام آدمية الإنسان مفروغ منه : يقول ﷺ للمحاربين المنتصرين : « **ولا تمثِّلوا** ... » ولقد كان مع أهل الكتاب أكثر تسامحًا .

ضرورة التصالح بين المسلمين والنصارى : ومما يشجع على ذلك :

أنَّ القرآن الكريم مدح عيسى ومريم .

يجب أن تتحد قوانا فى مواجهة عدو واحد .

الثـــوم :

من مجموع الأحاديث الواردة فى شجرة الثوم نخلص إلى ما يلى :

١ ـ وصفها بأنها « خبيثة » .

٢ ـ تتغير . .

٣ ـ النهى عن قربها (مساجدنا) حتى يذهب ريحها .

وإن كان ولابد : فاقتلوها .

وفى رواية : فأميتوها .

ولما سأله الصحابى : نحرِّمها ؟

قال : لا . . . ولكن !!

وقد أخرج ﷺ « إلى البقيع » من شم رائحته ؟!

وفى غزوة ما . . . أكلوها اضطراراً . لماذا ؟ لعل فيها فائدة .

وإذن : فلا تقاطع إنسانًا لعيب فيه . . . ففيه ـ كالثوم ـ فوائد !!

ومن أدب النبوة هنا : أنه ﷺ ما عاب طعـامًا قط . . ولكن إن اشتهاه . . أكله وإن كرهه . . تركه .

والطعام أهون من أن يقسم عليه .

قال الرازى : إنَّ فى البدن نيرانًا أربعة :

أحدها : نار الشهوة .

ثانيها : نار الحرارة .

ثالثها : نار الحرارة القائمة بأعضاء المعدة .

رابعها : الحرارة القائمة التى يتم بها أمر الحياة .

فبهذه الأنـواع الأربعة من الحرارة نيران مخـتلفة بالماهية ، ثم اجتـمعت فى بدن الإنسان ، وبقيت كل واحدة على صنفها المخصـوصة ، وطبيعتها المخصوصة ، وهى كامنة فـى بدن الإنسان لاتظهر إلاَّ عنـد وقت الحاجة إليهـا ، ثم إنها ـ مع اختـلافها وتباينها ـ مع موافقـة متعاونة على تحصيل مصلحة الإنسان ، وموجـبة لاستقامة ذلك الجسد .

نزيد عـلى قول الـرازى : أنَّ اختـلاف النيـران لم يؤد إلى اخـتلاف فـى شكل الجسم، لذلك كان الاختلاف الظاهر لنـا فى الكون لايعنى تعدداً فى الألوهية ، وإنما الاختلاف وراءه وحده .

النوع الـرابع : قوله : وأربع طبائع مختلفـات فى الخافقين أضداد غير أشكال مؤتلفات على إصلاح الأحوال دليل على أنه واحد لاشريك له .

يقو الرازى : إنَّ أبدان الحـيوانات على قول الأطباء مـتوالدة من الأرض ، والنار

والماء ، والهواء . . من الأخلاط الأربعة : وهى الصفراء ، والسوداء ، والبلغم ، والدم .

ثم إنها أضداد متنافرة ، متغايرة بطبيعاتها واجتماعها فى البدن الواحد لابد أن يكون بقدرة قادر ، وتدبير مدبر قدير ، وماذلك إلا الصانع الحكيم ، وإذا عرفت تفسير هذه الكلمات فنقول : إنها دالة على وجود الصانع القديم ، وكمال قدرته وعلمه وحكمته ، وهى أيضًا دالة على كون الصانع واحدًا ؛ لأنه لو كان الصانع أكثر من واحد لما حصل هذا النظام فى المخلوقات ، بل كان يحصل الفساد كما قال الله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [الأنبياء : ٢٢] .

قال الرازى : ثبت أنّ كلام الشافعى فى هذا الباب على وفق دلائل القرآن من غير تفاوت أصلاً .

ثم قال بشر المريسى فى هذا المجلس : ما الدليل على أنّ محمدًا رسول الله ؟

فقال الشافعى : « الدليل على نبوة محمد : القرآن المنزل ، وإجماع الناس ، والآيات التى لا تليق بأحد غيره » . . فعلم التوحيد الذى حاول الشافعى تمييزه عن علم الكلام تأثر بمنهجه فى علم أصول الفقه .

يقول الرازى : وهذا يدل على أنه كان متقنًا فى علم الأصول .

فالمنهج العقلى النقلى الذى اتبعه الشافعى والتزم به ساعده على إبراز خصائص الثقافة الإسلامية وأصالة العقل الإسلامى .

نوع من التأديب لابد منه ، وقد نفذ هذا العقاب فيمن تطاول على مقام أمّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها . . . فإنّ بعض الناس تسافه ووقع فى شراك أحد المنافقين الذين يكرهون النبى ﷺ ويضيقون بدعوة الحق التى بُعث بها ، وحاولوا فى خبث وخسة أن ينالوا من مكانة البيت النبوى ، فأشاعوا عن السيدة عائشة رضوان الله عليها كلامًا هى منه بريئة ، وهى فوقه بمراحل وقد نزلت براءتها من عند ذى العرش جل جلاله ، و بيّن أنها أعظم من أن تُلِمَّ بهذا ، وأكبر من أن يُلاك عرضها

على هذا النحو ، وقيل للمؤمنين فى هذا كلام ينبغى أن يعرفوه وأن يحفظوه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) ﴾ [النور: ١١] ثم يؤدب الناس: ﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾ [النور: ١٢ ، ١٣] حتى لو رأيت بعينك وأنت واحد فلا يجوز أن يتكلم ؛ لأن الله جل شأنه يريد أن يستر . . . يريد أن يعطى فرصة للتوبة . . . وفى الحديث : « **من ستر على مؤمن عورة فكأنما أحيا موءودة** » [1] إنَّ ناسًا قد يخطؤون ولكنَّ الله جل شأنه لا يعامل الناس بخطأ يرتكبونه . . . إنه يفتح لهم باب المتاب وفُرصًا لا حصر لها حتى يثوبوا إلى رشدهم ويستقيموا على الصراط المستقيم : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ٤٥] .

تلك الأحكام التى تقررت فيما يتصل بالانحرافات الجنسية ، وبالتهم التى ينبغى أن تجرى على لسان مسلم يحافظ على الأعراض . . . هذه الأحكام ينبغى أن نرعاها وأن نحافظ عليها . . وسورة النور بينت أنَّ رعاية هذه الأحكام تتطلب أمرين :

- الأمر الأول : الشعور بعظمة الله ، والإحساس بوجوده .

ولذلك بعد أحكام الانحرافات الجنسية وجدنا هذه الآية الجليلة : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [النور : ٣٥] فإنَّ الشعور بأنَّ الوجود كله مشرق بنور الله ، وأنَّ أدلة الوجود الإلهى تزحم كل شبر فى فضاء الكون . . فى فجاج الأرض . . فى آفاق السماء . . وأن أدلة الوجود الإلهى تزدحم بها كل ذرة من تراب فى أرضنا ، وكل ما بين السماء والأرض من فضاء لا نعرف حقيقته ولا اتساعه ، والسماوات وما عجَّت به من أملاك . . كل ذلك مملكة الله الواسعة . .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط عن مسلمة بن مخلد رضي الله عنه ، والضياء عن شهاب . وضعفه الألبانى ، انظر ضعيف الجامع ٥ / ٢٠٥ .

ولذلك بعد أن جاء بآيــة النور فى سورة النور : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢) ﴾ [النور : ٤١ ، ٤٢] هذا المـعنى لابد أن يدرك فإنَّ الشعور بوجود اللـه . . . ثم هذا الشعور ضرب له مثل : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ [النور : ٣٥] مثل نوره فى قلب المؤمن؟ هذا رأى لبعض الناس . . مثل نوره فى آفاق الكون كله ؟ هذا رأى لبعض المفسرين . . . على كلٍّ المثل خطير ويحتاج تفسيره إلى محاضرة مستقلة . . لكن المهم أنَّ بعد ضرب هذا المثل ، وبعد بيان أنَّ الله فى مملكته ينبغى أن يطاع ، وأنَّ كل شىء يسبح بحمده جل شأنه لابعد هذا كله قيل للمـؤمنين : لايجوز أن تُهدروا أحكام الله ، ولا أن تكابروا فى جدواها ، ولا أن تبتعدوا عن تطبيـقها ، لذلك قال جـــل شأنه : ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾ [النور : ٤٦] ثم يـقول فى المنافقـين جل شأنه : ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِنْهُم مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُوْلَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) ﴾ [النـور : ٤٧ ـ ٥٠] هذا التســاؤل يعطى أن تنفيذ أحـكام الله التى شُرحت فى الـسورة من آيات الإيمان ، وأنَّ ترك هذه الأحكام أو تعطيلها اتهام لله بالحَيْف ، واتهام لدينه بالانحراف .

العلماء ... والأمراء :

كان الفتى منفعلاً غاضبًا لما يراه من توقـير العلماء للأمراء . . . توقيرًا بلامجاملة من قِبَلِ الأمراء ؟!

ولكنَّ الشيخ الوقور يطـاحن من كبرياء الفتى قائلاً له : إنَّ العلماء يـعرفون قيمة الأمراء . . . فهـم ينصحونهم . . أمـا الأمراء : فإنهم يجـهلون قيمة الـعلماء . . . ولذلك لا يوقرونهم ، ولا يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون . لا يستوون عند الله . . . ودعك من رأى البشر !!

بل إنَّ أصلح المصلحين : محمداً ﷺ يعلمنا كيف نحترم معنى الحياة حتى ولو كان الاحترام متعلقًا بعصفور مات ؟ !وذلك قوله ﷺ : « **يا عمير ، ما فعل النغير**»؟!

كيف تتخلّق قيمة التوكل ؟ :

يقول الله عز وجل : ﴿ **إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ...**﴾ [طه:٣٨، ٣٩] ولاحظ قوله عز وجل : ﴿ **فِي الْيَمِّ** ﴾ . . . وفيه معنى الجمع . ولمّ الشمل المبعثر . فلم يقل : فى البحر .

وفى ذلك إشارة إلى ما سوف يكون فى المستقبل من الفرج بعد الشدة . . وخلال ذلك تتخلق قيمة التوكل فى كيان أم موسى :

فالساحل مأمور بإلقائه . . وعليها أن تترك كل سبب للنجاة . . فالأمر بيد القادر القاهر سبحانه . . وهو الذى ينبغى الاتكال عليه وحده . . بإطراح كل سبب معهود للنجاة .

النجاة حتى من العدو المتربص ، وواجب الأم أن تضعه فى « التابوت » المعهود لا تدخل منها بالأسباب الاحتياطية . . . فلا داعى لتدخلها . . . لأنَّ الأمر بيد الله وحده ، *وإذن فيجب أن تكون الثقة بالله تعالى مطلقة . . والتى لا يبقى معها خوف* ولا حزن !!

ألوان من الناس :

(كل واحد منهم خرَّاج ولاَّج ، يعرف من أمر الناس الظواهر والخفايا ، ويكاد يدرك النوايا ويكشف الخبايا ، فلا ينخدع لأحد من الناس ، ولكنه ربما خدع هو الناس ، إذ يتخذ الدين سلمًا إلى الدنيا ، فهو تاجر وتجارته معقود بها الخسارة ؛ لأنه يبيع ذهبًا بنحاس ، وألماسًا بزجاج ، يعطى الخالد الباقى من أمور الآخرة ليأخذ الموقوت الفانى من حطام الدنيا . وهل أخسر ممن يبيع دينه بدنياه ؟ همه إعجاب العامة ، فهو يقرها على بدعها وضلالها ، ورضى الحكام ، فهو يمالئهم ويجاريهم ، يرجو الناس ، والله أولى أن يرجوه ، ويخشاهم ، والله أحق أن يخشاه فعلى أى هذين أعتمد ؟ وبأيهما أعتضد ؟) .

٢ ـ وفى جرأة السائل .

٣ ـ ثم فى الأمور المهمة .

شعب الإيمان

سُمِّيت اليدان والرِّجلان بالشعب الأربع ، والمعنى : أنَّ الإيمان أصل راسخ . . . والأعمال فروعه . وشعبه . وثمراته .

إنها أربعون خصلة : أعلاها : منيحة المـفر ، ودون منيحة المفر : أربعون خصلة فكم يكون فوقها ؟

الحيوان يخاف ولكنه لا يستحي !!

من سلبيات الوالدين

نظر الطفل إلى مشهد النجوم تلمع فى مياه حـمام السباحة فهجم عليها !! وكان سبب الهـجوم هو : غياب دور الوالـدين فى تعليمه أمـور حياته وكان دورهمـا فقط هو: تدليله . . . فكان من عقبى هذا التدليل :

١ ـ الغرور : إعجابًا بالنفس .

٢ ـ كراهة كل من لم يمدحه كما يمدحه والداه .

٣ ـ السلبية إزاء المواقف الصعبة .

منهج الإيمان :

يقولون : الكافـر منهجه الإعراض عن الآيات ، فاللـه تعالى يقول : ﴿ **وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ** ﴾ لم يقـل الفاسـقات ، لا تـقل المرأة. . . مين !! ولكن مَنْ !!

فهناك دلائل بعدد الآيات . . . كل آية تـقول لك : أنا من عند الله . . . ودليل على صدق الرسول ﷺ ، بل هناك أدلة بعدد المخلوقات ، وفى كل شىء له آية . . . إذن فقد حسـمت القضية ! بعيداً عن الفـلسفة ؛ لأن العدم لا يخلق شيئًـا . فسلِّموا بالخالق وإذن : فمن هو الخالق ؟ ما صفاته ؟ تلك هى القضية .

المجتمع المسلم :

يقول الله عز وجل فى وصفه : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ... ﴾ [الفتح : ٢٩] .

إنهم أمة كاملة متعاونة على البر ، والمعنى : أخرج : أفرخه ، فآزرته أفرخه فى الثبات والاستواء . . فقوى الزرع على قضبانه : حُسنًا واعتدالاً .

وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين : كانوا كالزرع فى نموه وقوته.

والفرخ : لا يضعف العود . . . بل يقويّه .

بل كان مستويًا : بلا عوج ولا انحناء .

ينظر إليهم أهل المعرفة والخبرة معجبين بما يرون من تعاون وتآزر . كان بعضهم لبعض سخريًا : وليس معنى ذلك تميز الواجد على العاقد . . ولكن : الغنى فيه مسخر للفقير !

إنه الاحترام المتبادل . . . مع بقاء الشخصية المؤمنة ثابتة لا تقلِّد أحدًا .

« هاجر » تقدِّم « السعى » أولاً : فهى تعمل . . . ثم ترجو الجزاء ، فأين منها المرأة اليوم ؟

إنَّ « المرأة اليوم » تعيش فى وجدان عشرات الألوف من المعجبين والذين يراسلونها . . . ومع ذلك : فهى تنتحر يأساً من الحياة ؟ لقد وكلها الله تعالى إلى قواها . . . وما أضعف قواها التى هى بها ضائعة . مائعة !! بينما ظلت المرأة المؤمنة حية ناهضة ؛ لأنها لجأت إلى الحصن الذى لا يرام . . . والعين التى لا تنام . . فيعيذ وستبقى .

وما دامت فى هذا الحصن الآمن فهى باقية بإذن الله .

من ثمرات الهجرة :

١ ـ الثبات على الحق . . . مهما كانت التضحيات باهظة .

٢ ـ عاقبة الاستهزاء وخيمة . . . والعاقبة للتقوى .

٣ ـ لابد للانتصار من ثمن أولاً : من أموالنا وحياتنا .

من أين يهب الخطر ؟! :

احذر من أحبابك ، وذلك قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ [التغابن : ١٤] .

الإمام الذهبى (*)
(٦٧٣-٧٤٨ هـ)

هو شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبى .

وأسرته (تركمانية) الأصل ، سكنت مدينة (ميافارقين) من أشهر مدن ديار بكر ، ثم رحلت إلى دمشق ، وبها ولد عام (٦٧٣ هـ) ، وظل بها معظم حياته إلى أن توفى عام (٧٤٨ هـ = ١٣٤٧ م) .

وكان أبوه يعمل فى صناعة الذهب المدقوق فنسب إليه ، كان ابنه يعرف (بابن الذهبى) ، ثم اشتهر باللقب اختصاراً ، كما نجده فى كتب التراجم ، مثل ترجمة تلميذه تاج الدين السبكى له : « الإمام الحافظ أبو عبد الله التركمانى الذهبى » .

وعلى طريقة المسلمين فى التعليم بدأ بحفظ القرآن الكريم ، وقرأ على شيخه مسعود الصالحى أربعين ختمة ، وهى بداية واضحة ، تدل على توفيق إلهى مبكر ، وإقبال على العلم ، كان لها ما بعدها حين استجمع الصبى قوة الشباب ، وعزيمة الرجال .

وقد اتجه فى سن الثامنة عشرة إلى تحصيل (القراءات) ، وحالفه فيها أيضًا توفيق الله تعالى ، فقرأ بالسبعة على عدد من الشيوخ الكبار ، كما بين هو ذلك فى كتابه (معجم الشيوخ) ، وقد بلغ الغاية فى هذا حتى لقد تنازل له شيخه أبو عبد الله الدمياطى الدمشقى عن حلقته بالجامع الأموى ، فى أوائل (٦٩٣هـ) حين اشتد عليه المرض ، وذلك ثقة من شيخه فى إتقانه وإجادته ، وفى هذه الفترة حبب الله إليه

(*) للإمام الذهبى تراجم مفصلة فى كتب كثيرة منها :
- طبقات الشافعية الكبرى (ج٩ ص ١٠٠) .
- الدرر الكامنة لابن حجر (ج٣ ص ٤٢٦) .
- شذرات الذهب (ج٦ ص ١٥٣) .
- النجوم الزاهرة (ج١٠ ص ١٨٢) .
- مقدمة طبعة (سير أعلام النبلاء) ج١ ص ٧ - ١٤٠ بقلم الدكتور بشار عواد .

دراسة الحديث النبوى حتى غلب على ما عداه ، فلقى الجم الغفير من الشيوخ والشيخات ، وسمع ما لا يحصى من الكتب والأجزاء ، ورحل فى طلب العلم إلى بعض ما حوله من مدن الشام ، مثل : بعلبك ، وحلب ، وحماة ، وحمص ، ونابلس ، والرملة، والقدس ، وأخذ عن من لقيه من شيوخها .

ثم رحل إلى مصر عام (٦٩٥ هـ) ، وسمع من عدد كبير من شيوخ القاهرة والإسكندرية ، وبلبيس ، وأخذ الحديث والقراءات عمن لقيهم [١] .

وكانت رحلته الأولى إلى مصر قصيرة ، لذلك كان يجهد نفسه فى الأسفار والسماع حتى يحصل أكبر قدر من العلوم ، وقد ذكر عن نفسه في كتابه (تاريخ الإسلام) أنه قرأ جميع سيرة ابن هشام على شيخه أبى المعالى الأبَرْقوهى فى ستة أيام فقط .

نشاطه العلمى ومؤلفاته :

بعد فترة الطلب وتحصيل علوم شتى بدأ الذهبى يتجه إلى التدريس ، والتأليف فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، أى بعد وفاة الإمام الطبرى بنحو أربعة قرون ، كان العلم الإسلامى فيها قد اتسعت أنحاؤه ، وربت أمواجه ، وامتدت شواطئه ، واستفاضت مؤلفات العلماء فى شتى فنونه ، تأصيلاً وجمعًا ، وتأريخًا وتدوينًا ، وبسطًا ،واختصاراً . . . إلخ .

يضاف لذلك أنَّ الذهبى قد عاصر جملة من أكابر العلماء فى الحديث والتراجم، والتاريخ ، والفقه وغير ذلك ، خاصة فى موطنه دمشق ، كلهم أكبر منه سنًّا مثل : (أبى الحجاج المزِّى : ٦٥٤ ـ ٧٤٢ هـ) ، و (أبى العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ) ، و(علم الدين البرزالى : ٦٦٥ ـ ٧٣٩) وغيرهم كثير .

فماذا عسى أن يقول (الذهبى) بعد هذه القرون العلمية المديدة ؟ وفى خضمّ هؤلاء الأعلام الأفذاذ ؟!

---

(١) انظر ترجمة الذهبى فى كتاب : (ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والأسانيد) ج١ ص ٨٥ وما بعدها .

وهل بقى مكان لقول قائل ، فضلاً عن أن يأتى بجديد مفيد ؟ ناهيك عن التفوق والإبداع ، والابتكار ؟

لكنَّ الذهبى رحمه الله كان موهوبًا من الله تعالى ، موصول القلب والعزم بعلوم الإسلام ، لذلك اجتاز القنطرة ، وتخطى الصعاب والعقبات ، وبرز علمًا مفردًا فى العلم والتدريس ، والجمع والتصنيف الموضوعى الذى سارت به الركبان ، ورحل إليه التلاميذ من كل مكان ، ثم بقى على الزمان دلالة على أصالة العلم ، وعظيم الجهد ، وشمول النظر ، الذى يخرج عن قدرات البشر ، لولا معونة الله وفضله .

يقول ابن حجر فى ترجمته له :

« ورغب الناس فى توالبفه ، ورحلوا إليه بسببها ، وتداولوها قراءة ، ونسخًا وسماعًا » [١] .

أما تلميذه عبد الوهاب (ابن السبكى) فيصفه بأكثر من ذلك إذ يقول :

« وأما أستاذنا أبو عبد الله فبصر لا نظير له ، وكنز هو الملجأ إذا نزلت المعضلة ، إمام الوجود حفظًا ، وذهب العصر معنى ولفظًا ، وشيخ الجرح والتعديل ، ورجل الرجال فى كل سبيل ، كأنما جمعت الأمة فى صعيد واحد فنظرها ، ثم أخذ يخبر عنها إخبار من حضرها . . . وهو الذى خرجنا فى هذه الصناعة ، وأدخلنا فى عداد الجماعة ، جزاه الله عنا أفضل الجزاء . . . » [٢] .

وقد مرت كتابات (الذهبى) بمرحلتين :

المرحلة الأولى : المختصرات لأعلام المصنفات :

فقد بدأ مثل كثير من العلماء فى اختصار وتهذيب بعض الكتب الكبيرة المهمة فى التاريخ ، والحديث تدريبًا على التأليف والكتابة ، وإفادة لطلاب العلم بتوفير الوقت والجهد عليهم ، حين يجدون مختصرًا علميًّا مفيدًا .

---

(١) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج٣ ص ٤٢٧ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج٩ ص ١٠١ .

صلاة الجنازة :

كان من دعـائه ﷺ وهو فى صـلاة الجنازة : « **اللهم اغـفر له وارحمه ـ وعـافه واعف عنه . وأكرم نزله ، ووسع عليه مدخله ، واغسله بالماء والثلج والبرد ، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس . وأبدله دارًا خيرًا من داره وأهلاً خيرًا من أهله . وزوجًا خيرًا من زوجـه . وأدخله الجنة . وأعذه مـن عذاب القبـر ومن عذاب النار** » .

قال الراوى : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت ـ رواه مسلم .

وفى روايـة : « **اللهم إن عبدك فلانًا كان لا يشـرك بك شيئًا ... أنت أعلم به إن كان محسنًا ... فزد فى إحسانه ... وإن كان مسيئًا فتجاوز عنه . اللهم : لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده** » .

ولقـد كانوا حـراصًا على هـذه الصلاة . . . وكانـوا أيضًا حـراصًا على تـنامى رصيدهم من الثـواب ، إلى حد أنَّ أحدهم كان يكتفى بالـصلاة على الميت . . . ثم يعود إلى بيتـه . فلما نُبّه إلى ضرورة تشيـيع الميت حتى القبر ليـكون له « قيراطان » لاقيراط واحد ، فـقال : لقد فاتتنا قـراريط كثيرة . . . ثم صار لا يتـرك جنازة حتى مثواها الأخير .

وما أبرئ نفسي ـ تفـكيره يدور حول نفسه ، ولذلك فإنَّ خُلـوص النية لله ليس عملاً سهلاً ، إنه عمل كبير ، ولكى نعرف ـ مثلاً ـ نماذج من العمل الذى ليس لله : قرأت فى كتب الأدب قصيـدة لعمرو بن مَعْدِيكرب ـ وهو شاعر فى الجـاهلية وشاعر فى الإسلام ، ولعل القـصيدة التى قرأتها لـه كانت أيام جاهليته ، أمـا بعد أن أسلم فقد كان رجلاً من المسلمين الذين شاركوا فى جيوش الفتح [1] ، وفى غسل الأرض المحررة من ظلمات الجاهلـية ، وأدران الشرك ، لكنه فى جاهليته بدأ قـصيدته كلامًا حسنًا [2] :

---

(١) انظر أسد الغابة ٤ / ٢٧٣ .

(٢) انظر ديوانه ص ١٦ تحقيق مطاع الطرابيشى ط دمشق ١٩٧٤م .

لـيـس الجـمـال بمـئـزر ... فـاعـلـمْ وإن رُدِّيـت بُـرْدا
إنَّ الجـمـال مـعـادنٌ ... ومـنـاقـبٌ أورثـنَ مَـجْـداً

فعلاً هذا كلام صحيح ... ثم قال :

أعـددت لـلـحَـدَثـان سـا ... بـغـةً وعـدَّاءً عَـلَـنْـدى [(١)]

إلى أن يقول :

كـل امـرئ يـجـرى إلـى ... يـوم الـهِـيـاج بمـا اسـتـعـدَّا
لمـا رأيـت نـسـاءنـا ... يَـفْـحَـصْـنَ بـالمَـعـزاء شـدَّا [(٢)]
وبَـدَت لـمـيـسُ [(٣)] كـأنـهـا ... بـدرُ الـسـمـاء إذا تـبـدَّى
وبـدت مـحـاسـنـهـا الـتـى ... تـخـفـى وكـان الأمـر جـدَّا
نـازلـتُ كـبـشـهـمُ ولـم ... أرَ مـن نِـزال الكـبـش [(٤)] بُـدَّا

هل هذا قتال لله ؟ لا ... هل لله فى هذه الكلمات شىء ؟

لا ... إنه قاتل من أجل امرأة ... وكانت عادة العرب قديمًا أنَّ النساء يخرجن وراء الجيش المقاتل ، حتى فى غزوة أحد خرجت نساء قريش وراء جيشها تُحرِّض الكفار على القتال ، وتقول لهم [(٥)] :

إن تُـقـبـلـوا نـعـانـق ... ونـفـرش الـنـمـارق [(٦)]
أو تُـدبـروا نـفـارق ... فـراق غـيـر وامـق [(٧)]

---

(١) يقول : هيأت لنوائب الدهر ، أى لدفعها درعًا واسعة وفرسًا ضخمًا جيد العدْو .

(٢) الأمعز والمعزاء : الأرض الحزنة ذات الحجارة ، ومعني يفحصن : يُؤثرن لشدة العدْو فى المعزاء حتى يصير به لآثارهن كالأفاحيص .

(٣) لميس: اسم امرأة وهى ابنة عم الشاعر .

(٤) كبش الكتيبة : رئيسها .

(٥) هذا الرجز لهند بنت طارق بن بياضة الإيادية فى حرب الفرس وتمثلت به هند بنت عتبة ـ انظر السيرة النبوية لابن هشام ٤ / ٦٨ تحقيق مصطفى السقا وآخرين ط الحلبى ١٩٥٥م.

(٦) النمارق : جمع نمرقة وهى الوسادة الصغيرة .

(٧) الوامق : المحب .

والله نساء قريش كنَّ أشرف من نساء كثيرات الآن .

المرأة تقول للرجل : إذا لم تكن رجلاً طلقتك ، ابتعدت عنك !!

الآن هناك نساء لا تدرى إلا الجنس والملذات والسقوط الخلقى . . . ليكن . . . هل هذا القتال لله ؟ لا . . . هذا نوع من غش النية . . . هل لله فى هذه الكلمات شىء ؟ لا . . . لا . . . ليس لله فيها شىء .

موقف آخر لشاعر آخر . . . عنترة بن شداد العبسى ، كان رجلاً غريب الأطوار، فقد ولد أسود الجلد ، ومن سفاهة بعض الناس أنهم يضيقون بالسود ، ما دخل الجلد الأسود فى عظمة القلوب وقيم النفوس ؟ لا دخل بداهة فى هذا ، لا من ناحية علم تشريح الأعضاء ، ولا من ناحية الأفكار الإنسانية بتاتًا ، لكن أباه كان أحمق ، ضاق بابنه ، وجعله عبدًا يشتغل بجلب الماء من الآبار ، أو بحلب الشياه وما إلى ذلك ، فلما هوجمت القبيلة انهزمت ، وكان عنترة رجلاً معروفًا ، قال له أبوه : قاتل ، قال له : لا . . . أنا عبد ، العبد لا يحسن الكرَّ ، إنما يحسن الحِلاب والصرَّ ، قال : كُرّ وأنت حُرّ . . . فكر وقاتل وهزم الأعداء لكى يثبت مكانته ، ولكى يثبت جدارته بالحرية [1] هذا القتال هل لله فيه نصيب ؟ لا . . . إنما القتال لله : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » [2] هذا هو القتال لله لتكون كلمة الله هى العليا ، على نحو ما قال الشاعر [3] :

ولست أبالى حين أقتل مسلمًا ... على أىِّ شقٍ كان لله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ ... يُبارك على أوصال شِلوٍ ممزع [4]

---

(١) انظر ديوان عنترة ص ٧ ، ٨ بيروت ١٩٦٦ .

(٢) رواه البخارى فى الجهاد ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ٤ / ٢٤ ، ومسلم فى الإمارة ـ باب من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ٦ / ٤٦ .

(٣) هو خُبيْب الأنصارى والأبيات فى صحيح البخارى . كتاب الجهاد ـ باب هل يستأسر الرجل ومن لم يستأسره ٤ / ٨٣ .

(٤) أوصال : جمع وصل ، وهو المفصل أو مجتمع العظام . شِلْو : عضو أو قطعة من اللحم ، ممزع : مقطع .

لكنَّ هذه النية تحتاج إلى تهذيب نفس ، ما يحصل الإنسان عليها إلا بعد أن يهذب نفسه كثيرًا حتى يكون عمله لله وحده ، وهذا هو معنى الآية هنا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٧] .

ثم جاء فى أوصاف المؤمنين ـ أيضًا ـ أنَّ ولاءهم لله فى أثناء المعركة بارز ، فهو لا يعمل لخدمة تراب من تراب الأرض ، أو لإعلاء جنس من أجناس الناس ، إنما هو يقاتل من أجل أن تكون كلمة الله هى العليا ، من أجل أن يسود دين الله فى الأرض وتختفى الطواغيت من على صعيدها . . . هذا هو الولاء الحقيقى لله .

تنامت الآلام مواجعى . . . لأن سببها بين « أضلعى » وهو : القلب !! وذلك من قوم :

يريدون أن ينقلوا الجحود الذى فى قلوبهم الآخرين . . . والخرافة التى تعشش فى عقولهم إلى رؤوس الآخرين .

ومن هؤلاء الذين أبادوا قبيلة « عيدى أمين » رئيس أوغندا ، والذى كان من أقواله : لا توجد دولة فى العالم اسمها إسرائيل .

وفى « الفلبين » أبيد المسلمون ، وفى روسيا أيضًا !! أما إذا جُرح « مسيحى » فى لبنان . . . قامت الدنيا ولم تقعد !!

البخارى

ولا عجب من ذلك ، فالرجل لم يسمع بشيخ من شيوخ الحديث معروف بالضبط والإتقان فى بلد من بلاد المسلمين إلا رحل إليه ، وأخذ عنه ، ومحص ما عنده ، وقد قال عنه الذهبى : « وحفظ تصانيف ابن المبارك ، وهو صبى ، ونشأ يتيمًا ، ورحل مع أمه وأخيه سنة عشر ومائتين بعد أن سمع مرويات بلده من محمد ابن سلام والمسندى ، ومحمد بن يوسف البيكندى ، وسمع ببلخ من مكىّ بن إبراهيم ، وببغداد من عفان ، وبمكة من المقرئ ، وبالبصرة من أبى عاصم والأنصارى ، وبالكوفة من عبيد الله بن موسى ، وبالشام من أبى المغيرة والفريابى ، وبعسقلان من آدم ، وبحمص من أبى اليمان ، وبدمشق من أبى مسهر [١] .

فأنت ترى من هذا العرض أنَّ الرجل لم يترك شيخًا سمع به فى مدينة من مدن الإسلام عرف بالحديث إلا رحل إليه وأخذ عنه .

ولهذا حينما نستعرض ثناء العلماء عليه نراهم قد أجمعوا على إمامته ، وفقهه ونسكه وورعه وعلمه .

وكان الإمام أحمد يحاول أن يستبقيه فى بغداد لينتفع بعلمه أكبر قدر ممكن من طلاب العلم ، وقال له مرة : يا أبا عبد الله تدع العلم والناس وتصير إلى خراسان .

مؤلفاته :

قد ترك البخارى عدة كتب : أولها : الصحيح. وثانيها: الأدب المفرد ، وثالثها: التاريخ الكبير ، ورابعها : التاريخ الصغير ، وخامسها: الضعفاء .

كتاب الصحيح : أما كتاب الصحيح فقد تلقته الأمة بالقبول ، وأجمعوا على أنه أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى .

وقد استغرق تأليفه كتاب « الصحيح » ستة عشر عامًا ، وكان أول ما توجه إلى

---

(١) تذكرة الحفاظ ، ج٢ ص ٥٥٥ .

جمع أحاديث الصحيح أنه كان فى مجلس إسحاق بن راهويه ، فسمع بعض أصحابه يقول : لو جمعتم كتابًا مختصرًا لسنن النبى ﷺ يقول البخارى : فوقع ذلك فى قلبى، فأخذت فى جمع هذا الكتاب [١] وقد حشد فى كتابه هذا أكثر من ستة آلاف حديث بالمكرر ، ولو أحصينا ما فى الكتاب من أحاديث غير مكررة لبلغت فيما يقول ابن حجر : ألفين وستمائة حديث وحديثين ، وقد انتخب هذا العدد من ستمائة ألف حديث ، فقد روى الخطيب البغدادى بسنده إلى البخارى أنه قال : أخرجت هذ الكتاب - يعنى الصحيح - من زهاء ستمائة ألف حديث [٢] ، وهذا يعنى أنَّ انتخابه للأحاديث كان أقل من تصف فى المائة ، وكان لا يضع حديثًا فى الكتاب إلا إذ اغتسل وصلى ركعتين [٣] .

ولم يثبت البخارى فى كتابه إلا ما صح عن رسول الله ﷺ بالسند المتصل الذى توفر فى رجاله العدالة والضبط واللقيا ،ولم يكن يكتفى بإمكان معاصرة التلميذ الشيخ ، بل لابد من ثبوت سماعه منه ولقياه له[٤] وقد رتب كتابه على أبواب الفقه.

ويمكن تلخيص ذلك فيما يلى :

الشروط التى وضعها البخارى لأحاديث كتابه :

١ - أن يصح الحديث عن رسول الله ﷺ .

٢ - أن يتوفر فى رجاله العدالة والضبط .

٣ - أن يثبت لديه لقاء الراوى لشيخه وسماعه منه ، وهذا هو الفرق بينه وبين مسلم ، فإنَّ مسلم لم يشترط إلا المعاصرة ، وقد اهتم العلماء بكتاب البخارى ، ورواه عنه الآلاف من الناس ، ووضعوا عليه الشروح والمختصرات ، وقد ذكر الدكتور مصطفى السباعى فى كتابه « السنة ومكانتها من التشريع » نقلاً عن «كشف الظنون» أنَّ شروح صحيح البخارى بلغت اثنين وثمانين شرحًا واشتهر من هذه

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٢ صـ ٨ .

(٢) تاريخ بغداد جـ ٢ صـ ٨ .

(٣) تاريخ بغداد جـ ٢ صـ ٩ .

(٤) السنة ومكانتها من التشريع ص ٥٠٠ ، ٥٠١ .

الشروح أربعة :

١ ـ شرح الإمام بدر الدين الزركشي : المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، وقد سماه «التنقيح».

٢ ـ شرح العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ ، وقد سمى شرحه « عمدة السارى » .

٣ ـ شرح جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وسمى شرحه «التوشيح».

٤ ـ شرح ابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وسماه « فتح البارى » ، وهو أكثرها تداولاً وأوفاها وأكثرها فائدة (١) .

متاعب صادفت البخارى :

ربما يتبادر إلى الذهن أنَّ رجلاً مثل البخارى بلغ من العلم والإتقان ومكانة بين العلماء ما جعلهم يلهجون بالثناء عليه ، ربما يتبادر إلى الذهن أنَّ حياته مضت سهلة ميسورة لا متاعب فيها ولا مصاعب ، ولكن كيف يكون ذلك والحسد دائماً فى الناس، فقد تعرض البخارى لموقفين آلماه وأثرا فى نفسه .

أولهما : أنه لما نزل نيسابور اجتمع الناس إلى مجلسه وأقبلوا عليه ، وتصرفوا عن مجالس المحدثين الموجودين ، فحسدوه لما رأوا إقبال الناس عليه وقديماً كان فى الناس الحسد ، فاتهموه أنه يقول اللفظ بالقرآن مخلوق ، وطلبوا إلى الناس أن يمتحنوه في ذلك ، فلما حضر الناس مجلسه قام أحدهم وسأله : ما تقول فى اللفظ بالقرآن مخلوق أم غير مخلوق؟ فأعرض عنه ولم يجبه ، وكرر الرجل سؤاله ثانية فأعرض ، فلما كرر سؤاله للمرة الثالثة التفت إليه البخارى ، وقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، وأفعال العباد مخلوقة والامتحان بدعة (٢) . فاتخذوا من إجابته وسيلة للشغب عليه ، وأخذت هذه المسألة أبعادًا كبيرة حتى اضطر إلى نزوح عنها . وقد قاد محمد بن يحيى الذهلى الحملة ضد البخارى واتهمه بالبدعة واتهم من يذهب إلى

---

(١) السنة ومكانتها من التشريع ، ص ٥٠٢ .

(٢) راجع سير أعلام النبلاء جـ ١٣ ، ص ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

مجلسه ، ونهى الناس عن الجلوس إليه ، ومن الواضح لمن يتتبع الأخبار حتى جاءت من هذا الصدد أنّ الحسد هو الدافع إليها ، واضطر البخارى إلى مغادرة نيسابور عائداً إلى بخارى .

لما استقر به المقام فى بخارى بعث إليه أميرها يطلب إليه أن يذهب إليه بكتابه «الجامع» و«التاريخ» وغيرهما ليسمعهما منه .

فكان جواب البخارى أن قال للرسول : أنا لا أذل العلم ، ولا أحمله إلى أبواب الناس ، فإن كانت لك إلى شىء منه حاجة فاحضر فى مسجدى أو فى دارى وإن لم يعجبك هذا فإنك سلطان ، فامنعنى من المجلس ليكون لى عذر عند الله يوم القيامة، لأنى لاأكتم العلم ، لقول النبى ﷺ : «**من سئل عن علم فكتمه أُلجم بلجام من نار**» .

فكان ذلك سببًا فى وقوع الجفوة بين البخارى وبين الوالى ، فاستعان ببعض الناس ليتكلموا فى مذهب البخارى واتخذ ذلك ذريعة فى نفيه من البلد ، وخرج البخارى إلى قرية خرتنك ، وهي الآن بدولة أزبكستان .

الزهرى

قال الشافعى عن جوده : عتب رجاء بن حيوة على الزهرى فى الإسراف ، وكان يستدين ، فقال له : لا آمن أن يحبس هؤلاء القوم ما بأيديهم عنك ، فتكون قد حملت على أمانيك . قال : فوعد الزهرى أن يقصر ، فمر به بعد ذلك ، وقد وضع طعام ، ونصب موائد العسل ، فوقف به رجاء وقال : يا أبا بكر ، ما هذا بالذى فارقتنا عليه ، فقال الزهرى : انزل ، فإنَّ السخى لا تؤدبه التجارب [1] ، وعن هذا المعنى يعبر أحد الشعراء وكأنما يترجم عما قال الزهرى :

له سحائب فى أنامله	أمطارها الفضة البيضاء والذهب
يقول فى العسر إن أيسرت ثانية	أقصرت عن بعض ما أعطى وما أهب
حتى إذا عاد أيام اليسار له	رأيت أمواله فى الناس تنتهب

ويقول يونس بن عبد الأعلى : إنه سمع الشافعى يقول : مر رجل تاجر بالزهرى وهو بقريته والرجل يريد الحج ، فأخذ منه بأربع مائة دينار إلى أن يرجع من حجه ، فلم يبرح الزهرى حتى فرقه ، فعرف الزهرى فى وجه التاجر الكراهية ، فلما رجع قضاه ، وأمر له بثلاثين ديناراً ينفقها [2] .

وكان ابن شهاب إذا جاءته الأموال ينفقها على من يطلب نواله ، ولا يبالى أن يتحمل الدين فى سبيل إعطاء من يسأله ، ولذلك كانت حاله تتراوح بين العسر واليسر ؛ لأنه لم يبق على شىء يصل إليه ، وقد رأينا ما قاله له رجاء بن حيوة ، ومن قبيل ذلك أنَّ مولى له قال على سبيل العظة : قد رأيت ما مرَّ عليك من الضيق والشدة ، فانظر كيف تكون وأمسك عليك مالك ؟

فقال ابن شهاب : ويحك ، إنى لم أر الكريم تحكمه التجارب .

---

(١) البداية والنهاية جـ ٩ ، ص ٣٤٣ .

(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ، ص ٣٤٠ .

وكان الزهرى يقدر أنه مهما كان عليه من دين فإنَّ ماله من أموال وعقار كاف بعضه فى سداد ما عليه من دين ، وقد أخبره بعض معارفه قائلاً : إنَّ الناس لاً يعيبون عليك إلا كثرة الدين .

قال : وكم دينى ؟ إنما دينى عشرون ألف دينار ، وأنا على الحياة والممات لى خمسة أعين ، كل عين منها ثمن أربعين ألف دينار ، وليس يرثنى إلا ابن ابنى هذا ، وما أبالى أن لا يرث عنى شيئًا ، ويقول الوليد ، وكان ابن ابنه فاسقًا [١] .

بدء صلة الزهرى ببنى مروان :

كانت هناك جفوة بين بيت الزهرى وبيت مروان وذلك لأن أبا الزهرى كان ممن ناصر ابن الزبير ووقف إلى جانبه ضد بنى مروان ، وبعد أن انتهى أمر ابن الزبير لم ينس عبد الملك لبيت الزهرى هذا الموقف ، وكان ابن شهاب قد انهمك فى طلب العلم على أيدى فقهاء المدينة وعلمائها المعروفين حتى برز فيه وصار أشهر علماء عصره حيث قيل عنه : إنه آل إليه علم فقهاء المدينة جميعهم .

وكانت الضائقة المالية قد اشتدت بابن شهاب ولم يجد سبيلاً إلى الخروج منها وبخاصة وأنه يتحمل مسؤولية أفراد أسرته ، وكانت الديون قد ركبته وليس له عطاء ثابت فى بيت المال ولا لأهل بيته نظرًا لموقف أبيه السابق فى مناصرة ابن الزبير ، وعلى الرغم من هذه الظروف كلها فقد توجه إلى دمشق لعله يجد وسيلة يخرج بها من هذه الضائقة التى شددت عليه الخناق وأخذ يتحين الفرص للدخول على عبدالملك لعله يظفر من وراء ذلك بما يفرج عنه ضائقته ويقضى دينه .

وقد ذكر ابن عساكر أكثر من رواية حول لقائه بعبد الملك ، فبينما يذكر بعضها : أنه كان يتردد على قبيصة بن ذؤيب ويحضر مجلس سمرة إذ جاء رسول عبد الملك يدعوه ، ثم عاد يسأل عمن يحفظ قضاء عمر فى أمهات الأولاد وكانت فرصة واتت ابن شهاب ، فقال : أنا ، وكان ذلك سببًا لدخوله على عبد الملك ، إذ يذكر بعضها الآخر أنه كان فى المسجد ، ثم جاء قبيصة إلى المجلس الذى يجلس فيه ، ثم أخذ

---

(١) ترجمة الزهرى من كتاب ابن عساكر ص ١٧١ ، ١٧٢ .

يسأل عمن يعرف قضاء عمر فى نفس القضية السابقة .

وسنختار عرض تفصيلات هذه الرواية الثانية ؛ لأنها أجمع وأوفى فى عرض الملابسات التي سبقت هذا اللقاء وهيأت له ، والنتائج التى أسفرت عنه ، والمناقشات التى دارت بين الرجلين .

قال ابن شهاب فيما يرويه عنه ابن عساكر : أصاب أهل المدينة حاجة زمان فتنة عبد الملك بن مروان ، فعمت أهل البلد ، فقد خيل إلىّ أنه أصابنا أهل البيت من ذلك مالم يصب أحدًا من أهل البلد ، وذلك لخبرتى بأهلى ، فتذكرت هل من أحد أمت إليه برحم أو مودة ، أرجو إن خرجت إليه أن أصيب منه شيئًا ، فما علمت من أحد أخرج إليه ، ثم قلت : إنَّ الرزق بيد الله .

ثم خرجت حتى قدمت دمشق ، فوضعت رحلى ثم غدوت إلى المسجد ، فأعتمد إلى أعظم مجلس رأيته فى المسجد وأكثره أهلاً فجلست إليهم .

فبينما نحن على ذلك إذ خرج رجل من عند عبد الملك بن مروان كأحسن الرجال وأجمله ، وأحسنه هيئة ، فأقبل إلى المجلس الذى أنا فيه ، فتحنثوا له ، حتى أوسعوا له ، فجلس ثم قال :

لقد جاء أمير المؤمنين اليوم كتاب ، ما جاءه مثله منذ استخلفه الله .

قالوا : وما هو ؟

قال : كتب إليه عامله بالمدينة ، هشام بن إسماعيل ، فذكر أنَّ ابنًا لمصعب بن الزبير من أم ولد، مات فأرادت أمه أن تأخذ ميراثها منه، فمنعها عروة بن الزبير، وزعم أن لا ميراث لها ، فتوهم أمير المؤمنين فى ذلك حديثًا سمعه من سعيد بن المسيب يذكره عن عمر بن الخطاب فى أمهات الأولاد ، لا يحفظ أمير المؤمنين ذلك الحديث .

وما كاد ابن شهاب يسمع ما قصه قبيصة حتى ابتدره قائلاً : أنا أحدثكه .

عند ذلك نهض قبيصة وأخذه معه واتجها إلى مجلس عبد الملك ، ولندع ابن شهاب يصور لنا كيف استأذنا على عبد الملك ، وما هو الحوار الذى دار فى المجلس؟

يقول ابن شهاب : ثم جاء البيت الذى فيه عبد الملك ، فقال : السلام عليكم .

فأجاب عبد الملك : وعليكم السلام .

قال قبيصة : أندخل ؟

أجاب عبد الملك : ادخل .

فدخل قبيصة ، وهو آخذ بيد ابن شهاب ، فقال : هذا ياأمير المؤمنين يحدثك الحديث الذى سمعته من ابن المسيب فى أمهات الأولاد .

فقال عبد الملك : إيه (يعنى هات) .

قال ابن شهاب : سمعت سعيد بن المسيب يذكر أنّ عمر بن الخطاب أمر بأمهات الأولاد أن يقمن فى أموال أبنائهن بقيمة عدل ، ثم يعتقن ، فمكث بذلك صدراً من خلافته ، ثم توفى رجل من قريش ، كان له ابن من أم ولد ، قد كان عمر يعجب بذلك الغلام ، فمر ذلك الغلام على عمر فى المسجد بعد وفاة أبيه بليالٍ ، فقال له عمر :

ما فعلت يا ابن أخى فى أمك ؟

قال : فعلت يا أمير المؤمنين خيراً ، خيَّرونى بين أن يسترقوا أمى ، أو يخرجونى من ميراث أبى ، فكان ميراثى من أبى أهون علىّ من أن يسترقوا أمى .

فقال عمر : أولست أمرت فى ذلك بقيمة عدل ؟ ما أرى رأيًا ، ولا آمر بأمر إلا قلتم فيه .

ثم قام فجلس على المنبر ، فاجتمع الناس إليه ، حتى إذا رضى من جماعتهم ، قال : أيها الناس ، إنى قد كنت أمرت فى أمهات الأولاد بأمر قد علمتموه ، ثم حدث لى رأى غير ذلك ، فأيما امرئ كانت عنده أم ولد يملكها بيمينه ما عاش ، فإذا مات ، فهى حرة لا سبيل لأحد عليها .

وهنا استعاد عبد الملك الحديث الذى كان قد سمعه ، وأصبح على يقين مما قاله عمر فى شأن هذه القضية ، وصار الأمر بالنسبة له واضحًا فيما أثر عن عروة من رأى يعتقد عدم صوابه ؛ لأنّ الرق هو الذى يمنع من الميراث فإذا صارت أم الولد حرة بعد موت زوجها ، فقد حق لها الميراث فيما بعد من ابنها إذا مات فى حياتها ، وهذا هو

الذى منعه عروة .

ولاشك أنَّ رجلاً يبلغ به العلم وإتقانه أن يعرف هذا الأثر ، جدير بأن يسأل عنه عبد الملك ويعرف من هو ؟ وهذا هو الذى كان .

فقد سأله عبد الملك : من أنت ؟

أجاب : أنا محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب .

وهنا بدا على وجه عبد الملك عدم الرضا ، ثم عقب قائلاً : أما والله إن كان لك لأب نعاراً فى الفتنة ، مؤذيًا لنا فيها .

قال ابن شهاب : يا أمير المؤمنين ، قل كما قال العبد الصالح .

فيعقب عبد الملك قائلاً : أجل ، لا تثريب عليكم .

عن البخارى قال « فؤاد سركين » : (ذلك المؤلف من القرن التاسع ، قد عاد إلى سلسلة متصلة من المصادر المكتوبة التى تعود إلى الحقبة الإسلامية الأولى : أى حتى القرن السابع الميلادى) . الرابطة ـ يونيه ـ ٢٠٠٥ .

قال : وأخدمك أمير المؤمنين .

وعلى الرغم من أن عبد الملك قد استعاد الحديث بعد ما سمعه من ابن شهاب إلاَّ أنه أراد أن يستوثق أكثر فكتب إلى عامله بالمدينة هشام بن إسماعيل أن يسأل ابن المسيب عن الحديث الذى سمعه يحدث به فى أمهات الأولاد عن عمر بن الخطاب ، فجاء الرد بمثل ما حدث ابن شهاب بدون زيادة أو نقصان .

هكذا بدأت صلة الزهرى ببنى مروان وزالت الجفوة التى كانت تحول بين ابن شهاب وبين بنى مروان بسبب موقف مسلم بن شهاب إلى جانب ابن الزبير ضد الأمويين .

وواضح من عرض وقائع هذا اللقاء أنَّ ابن شهاب كان قد نضج علمه ، واكتملت معارفه ، فقد كان فوق الثلاثين آنذاك ، إذ تذكر بعض الروايات أنَّ هذا اللقاء كان عام ٨٢ هـ فى حين أنَّ الزهرى ولد عام ٥٠ هـ ، وهذا يعنى أنه كان فى الثانية والثلاثين آنذاك .

وأما مـن يرى أنه ولد سنة ٥٦ هـ فيكون عـمره لما وفـد على عبـد الملك سـتًا وعشرين سنـة ، وهذا أكثر قبولاً لأننا سنـرى أنَّ عبد الملك قد حثـه على العودة إلى المدينة ومواصـلة طلب العلم ، أما الرواية فـتقول عن الزهرى : أتيت عـبد الملك بن مروان ، فاستأذنت عليه ، فلم يؤذن لى ، فدخل الحاجب فقال :

يا أمير المؤمنين ، إنَّ بالباب رجلاً شابًّا أحمر ، زعم أنه من قريش .

قال : صفه : فوصفنى له .

قال عبد الملك : لا أعرفه إلا أن يكون من ولد مـسلم بن شهاب ، فدخل عليه فقال : هو من بنى مسلم .

فدخلت عليه ، فقال من أنت ؟

فانتسبت له ، وقلت : إنَّ أبى هلك ، وترك عيالاً صبية ، وكان رجلاً منفاقًا لم يترك مالاً .

فقال لى عبد الملك : أقرأت القرآن ؟

قلت : نعم .

قال : بإعرابه ، وما ينبغى فيه من وجوهه وعلله .

قلت : نعم .

قال : إنَّ ما فوق ذلك فضل ، إنما يعايا ويلغز به .

قال : أفعلمت الفرائض ؟

قال : نعم .

قال : الصلب والجد واختلافهما ؟

قلت : أرجو أن أكون قد فعلت .

قال : وكم دين أبيك ؟

قلت : كذا وكذا .

قال : قضى الله دين أبيك .

وأمر لى بجائزة ورزق يجرى ، وشراء دار قطيعة بالمدينة ، وقال : فاطلب العلم، ولا تشاغل عنه بشىء ، فإنى أرى لك عينًا حافظة ، وقلبًا كيسًا وآت الأنصار فى منازلهم .

قال الزهرى : وكنت أخذت العلم عنهم بالمدينة ، فلما خرجت إليهم إذا علم جميعهم ، فاتبعتهم حتى ذكرت لى امرأة نحو قباء تروى رؤيا فأتيتها .

ويبدو أن عبد الملك قد أعجب بما عند ابن شهاب من علم ، وما لاحظه عليه من قوة الملاحظة ، وليس غريبًا على عبد الملك ذلك فلولا شؤون الحكم لكان فى المقدمة من علماء عصره ، فبعد أن اطمأن ابن شهاب على مستقبل أسرته ، وضمن لهم رزقًا دائمًا ، بدأ يشارك فى أمور الحياة ، وبدا له أن يشترك فى الغزو ، وهذا مسلك علماء الإسلام فى مختلف العصور ، ولكنه فى طريقه إلى الغزو مرّ بدمشق للسلام على الخليفة الذى لم يكد يراه حتى سأله عن أمر تفصله الرواية التالية ، قال ابن شهاب : قدمت دمشق وأنا أريد الغزو ، فأتيت عبد الملك لأسلم عليه ، فوجدته فى قبة على فرش تفوت القائم والناس تحته سماطان ، فسلمت ، وجلست ، فقال : ياابن شهاب أتعلم ما كان فى بيت المقدس صباح قتل ابن أبى طالب ؟

قلت : نعم .

قال : هلم .

فقمت من وراء الناس حتى أتيت خلف القبة .

وحول وجهه ، فأحنى على ، فقال : ما كان ؟

قلت : لم يرفع حجر فى بيت المقدس إلا وجد تحته دم .

قال : لم يبق أحد يعلم هذا غيرى وغيرك ، فلا يسمعن منك .

وتوثقت الصلة بين الزهرى وبين أبناء عبد الملك من بعده ، وكانوا جميعهم يعرفون له مكانته وعلمه وبخاصة سليمان بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الذى طلب إليه أن يدون سنة رسول الله ﷺ خوفًا عليها من الضياع .

فى مجلس القضاء :

بعد أن استطاع الزهرى إزالة الجفوة التى كانت بين أسرته وبين بنى مروان نتيجة لانضمام أبيه إلى ابن الزبير توثقت صلته بعبد الملك بن مروان وأبنائه من بعده ، وقد كان ما حصله الزهرى من العلم ، وما بدا عليه من مخايل الذكاء ، وسعة الفهم داعيًا لعبد الملك أن يقربه منه ويدفعه إلى الاستزادة من المعارف حتى صار الزهرى أعلم أهل زمانه بلا منازع ، وقد مرَّ طائفة من أقوال معاصريه تكشف عن مدى إعجابهم بعلمه ومعارفه ، عجب بعد ذلك أن ينال المكانة العليا عند خلفاء بنى أمية ، على الرغم من أنه لم يجامل أحدًا منهم فى الحق مطلقًا ، بل كان صدَّاعًا بالحق ، لا يبالى فيه لومة لائم ، شديد الاعتزاز بكرامته ، وقد مر بنا رده الحاد على الخليفة لما وصفه بالكذب حينما صحح له بعض المفاهيم .

وهكذا كانت مواقفه دائمًا مع خلفاء بنى أمية ، فقد دخل يومًا على الوليد بن عبد الملك ، فقال له :

ما حديث يحدثنا به أهل الشام ؟

قال : وما هو ياأمير المؤمنين ؟

قال : يحدثوننا أنَّ الله إذا استرعى عبدًا رعية ، كتب له الحسنات ، ولم يكتب له السيئات .

قال فى صراحة جلية : باطل ياأمير المؤمنين ، أنبىّ خليفة أكرم على الله ، أم خليفة غير نبىّ ؟

قال : بل خليفة نبىّ .

قال : فإن الله يقول لنبيه داود : ﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) ﴾ [ص: ٢٦] ، فهذا وعيد ياأمير المؤمنين لنبىّ خليفة ، فما ظنك بخليفة غير نبىّ ؟

---

(١) العقد الفريد ج١ ص ٥٠ ، تحقيق محمد سعيد العريان .

قال : إنَّ الناس ليخروننا عن ديننا [١] .

ولنا أن نقف وقفة متأنية عند هذا الخبر نتبين منها مدى استيعاب الزهرى لحقائق الإسلام وقيمه ، ومقدرته على استخراج الدليل من كتاب الله تعالى مؤيدًا لرأيه ، ومدى قدرته على الإقناع ، وصراحته في الحق حتى إنَّ الخليفة لم يجد بُدًّا من إعلانه عن اقتناعه بما قال واطمئنانه إليه ورضاه به وإذا وجد خلفاء بنى أمية رجلاً فيه هذه القدرات ، وله هذه المزايا ، فليس عجبا أن يسعوا فى أن يمكنوا له ليعلم الناس ، ويقضى بينهم ، ولهذا ولاه يزيد بن عبد الملك القضاء .

وكان الزهرى يرى أن القاضى هو الذى لا يبالى فى سبيل الحق أن تقف ضده الدنيا كلها ، ولا يهمه ذم الناس ، أو مدحهم ، ومن كلامه فى ذلك : ثلاث إذا كن فى القاضى ، فليس بقاض : إذا كره اللوائم ، وأحب المحامد وكره العزل [١] .

وكان رجال بنى أمية كلما نزل بهم أمر يحتاجون إلى رأى فيه سألوا الزهرى أو كتبوا يستفتونه .

ومن ذلك : أنَّ بعض ملوك بنى أمية كتب إليه : يسأله عن الخنثى وكيف يورث؟

فأجاب يورث الخنثى من حيث يخرج المبال ، يعنى به البول ، فإن خرج منهما جميعًا فمن أيهما سبق .

ومن أشهر القضايا التى أثر عن الزهرى الحكم فيها : أنه اقتتل بنو غفار وبنو عايذ الله الجذاميون ، فقتل رجل بين الصفين من بنى عايذ الله ، يقال له : جرهاس، ولم يعرف قاتله ، فأخذ الفريقان يتهم أحدهما الآخر بقتله ، ويبرئ نفسه، فاختصموا إلى عدة من القضاة .

فلم يفصل بينهم أحد ، فجاؤوا موسم الحج لأمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ، وكان عنده ابن شهاب الزهرى ، فقال الخليفة ، ياأبا بكر ، انظر فى أمرهم ، فقد رددت أمرهم إليك .

---

(١) ترجمة الزهرى من تاريخ ابن عساكر ، ص ١٣٥ والمحدث الفاصل ص ٢٤٣ .

فلما عاد ابن شهاب إلى منزله ذهبوا إليه .

فقال : يا بلعايذ ، هلم البينة على قتيلكم ، فلم يجدوا بينة .

فقال : يا بنى غفار انفلوا أنفسكم (يعنى احلفوا) ، فلم يجدوا من ينفلهم .

فقال : هلم يا بلعايذ قسامة تقسم على دم صاحبكم فأبوا .

فقال : أين ولى هذا القتيل ؟

قيل : هو ذا .

قال : اذهب ، فقد قضينا لك بدية مسلمة وجعلنا نصفها فى بلعايذ ، ونصفها على بنى غفار .

فانصرف الفريقان ورضيا [١] .

ويبدو أنّ هذا الحادث كان قد هدد العلائق بين الحيين وأنذر بوقوع شر مستطير بينهما ، وقد زاد من تأزم الموقف بينهما تردد القضاة والحكام الذين ذهبوا إليهم فى الفصل فى أمر هذا الخلاف ، فلما عرضت القضية على الزهرى وحكم فيها بما سبق كان لذلك رنة ارتياح ورضى بين الحيين جميعًا ، عبر عنها الشعراء بما يفيد الإعجاب بمقدرة الزهرى فى القضاء ، وحسم أسباب الخلاف بحكمة فائقة ومقدرة بالغة ، وبما يعبر عن الرضى الكامل بإحلال السلام بين الحيين ، فقال فايد بن الأقرم البلوى :

ومهمة أعيا القضاة قضاؤها ... تدع الفقيه يشك شك الجاهل
بدع معيبة ، هديت لرتقها ... وضربت محردها بحكم فاصل
ميمون رأيك وامتحال من فتى ... وافى الذمام عن الذمار مصاول
أنت أدركت بنى غفار بعد ما ... رأوا بأعينهم مكان القاتل
بثينة ملموت تنهت خلفها ... غنم وتذمرها قبائل وائل
فرجعت فى حر الوجوه بياضها ... ورددت خصمهم بأفوق ناصل
وسوالف الخصمين غيد قد حبت ... حبو الجمال بأذرع وكلاكل
فنعشت قومك والذين تذمموا ... بك ، غير مختشع ، ولا متفائل

(١) ترجمة الزهرى من تاريخ ابن عساكر ، ص ١٣٨ .

وقال أيضًا فى هذا الموقف أبو الخنيس البلوى :

ومعية أعيا القضاء عياؤها	كما عيت اللص الأخيذ المراوم
دعيت لها من بين زمزم والصفا	لعراء أحر صدعها متفاقم
ورشت أمورًا باليمون ، وقد بدا	لمن راشها بالسوم أنك عالم
وقلت لآباء القتيل ، وكلهم على	الشفة القصوى من الغيظ آرم
خذوا الحق ، ما عن سنة الله معدل	ومن يعدها يرجع لها وهو راغم

فلما سمع الزهرى هذا الشعر قال : صدقت يا أبا الخنيس ؛ من يعد سنة الله يرجع لها وهو راغم (١) .

موقف المستشرقين من الزهرى :

دأب المستشرقون دائمًا على محاولة النيل من الإسلام والإساءة إليه ، وتشويه حقائقه حسدًا وبغيًا من عند أنفسهم ، ولهم عدة محاولات فى ذلك يرمون من ورائها الوصول إلى أهدافهم الخبيثة .

ومن ذلك : أنهم يريدون أن يشككوا فى السنة فيعمدون إلى رجالها البارزين ومن حملوا لواءها ، فيثيرون الغبار حولهم ، ليشيعوا عدم الثقة فيهم ، والشك فيما ينقلون من أخبار ويروون من أحاديث ، وينتقل ذلك الشك إلى السنة نفسها .

ومن أجل ذلك : وجهوا سهامهم إلى الزهرى الذى أطبق علماء الإسلام على أنه أعلم الناس بسنة رسول الله ﷺ والخلفاء من بعده .

وقد اتخذوا من صلة الزهرى ببنى أمية وسيلة للطعن فيه والإساءة إليه ، وقد رأينا مما عرضنا من مواقف الزهرى مع بعض خلفاء بنى أمية أنه كان يجابه من يتطاول عليه منهم مجابهة تصل إلى حد يثير العجب من جرأة الزهرى على الخلفاء كما رأينا فى رده على هشام لما قال له : كذبت : فقال : أنا أكذب لا أبا لك ، والله لو نادى منادٍ من السماء أنَّ الله أحل الكذب ما كذبت .

(١) ترجمة الزهرى من تاريخ ابن عساكر ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

وكذلك وقوفه الشامخ أمام الوليد حينما سأله عما يقوله أهل الشام حول عدم مساءلة الحاكم عن سيئاته ، فرد عليه ردًّا حاسمًا بقوله : باطل يا أمير المؤمنين مؤيدًا رأيه بالقرآن والعقل ، وعلى الرغم من وضوح ذلك لكل من يدرس حياة هذا العالم الفذ ، فإنَّ أضغان الاستشراق تأبى إلا أن تعبر عن حقدها الأسود ، بما تسوق من افتراءات يشيعونها بين هؤلاء الذين لم ينالوا من معرفة ما يمكنهم من كشف زيفهم وافترائهم .

ومن ذلك أنَّ المستشرق اليهودى جولد زيهر ادعى أنَّ عبد الملك بنى الصخرة ليصرف أهل الشام والعراق عن التوجه إلى الكعبة التى كانت تحت حكم ابن الزبير آنذاك ، وقد استغل الزهرى يضع له حديث : « **لاتشد الرحال** » إلخ . وفى هذا الذى ذكره المستشرق اليهودى عدة أخطاء ومغالطات :

أولها : أنَّ الذى بنى قبة الصخرة هو الوليد بن عبد الملك لا عبد الملك ، وكان أمر ابن الزبير قد انتهى قبل أن يتولى الوليد الحكم ، ومن ذلك يظهر أنَّ هذا المستشرق يريد أن يزيف التاريخ ليصل إلى أهدافه الخبيثة .

ثانيها : أن عمر الزهرى لما قتل ابن الزبير كان بين الخامسة عشرة والعشرين ، وليس من المقبول عقلاً أن يستعين الأمويون برجل لم يكتمل تحصيله العلمى ولم يتأصل مركزه بين علماء عصره بعد ، بل الحقيقة أنه كان لا يزال فى سن الطلب .

ثالثها : أنَّ والد الزهرى كان ممن انضم إلى ابن الزبير ضد الأمويين وناصره ، ويتضح ذلك من وقائع اللقاء الذى دار بين الزهرى وبين عبد الملك لأول مرة بعد انتهاء أمر ابن الزبير حينما قال له لما عرفه : إنَّ لك أبًا كان نعارًا فى الفتنة .

رابعها : أنَّ حديث : « **لاتشد الرحال** . . » روته كتب السنة بعدة طرق غير الزهرى بعضها عن سعيد بن المسيب ، وبعضها عن سواه ومعروف سعيد فى الحق ، وقد ظل يعلم الناس عشرين سنة بعد مقتل ابن الزبير وعلاقته ببنى مروان علاقة غير طيبة حتى إنه امتنع عن رد التحية على الزهرى لما بلغه أنه ذكره بخير أمام بنى مروان، فكيف يقبل أن يروى عنه حديثًا مكذوبًا .

خامسها : أنَّ علماء الحديث أجمعوا على صحة حديث : «**لاتشد الرحال** . .» .

ومما ذكره المستشرق من المآخذ على الزهرى أنه كان يتردد على الحكام ، وقد رأينا أنَّ ذلك كان يحسب فى حسنات الزهرى لأنه استطاع أن يصحح لأحد الخلفاء فكرة باطلة يحاول المتزلفون أن يروجوها .

ولأنه رد على آخر ردًّا عنيفًا لما أراد أن يؤول فى تفسير آية تأويلاً يتفق مع ميوله السياسية ، فرد عليه ردًّا أفحمه وأسكته مستدلاً بما روى من حديث رسول الله ﷺ فى تخطئة الخليفة .

وكذلك نسب ذلك المستشرق إليه رضاه بأن يكون مربيًا لأولاد هشام ، وليس فى ذلك ما يعيب فإنَّ آثار هذه التربية قد وضحت فى أن أبناءه كانوا ممن شارك فى الجهاد ولم ينصرفوا إلى اللهو كغيرهم وما ذلك إلا من آثار تربية الزهرى لهم .

وهناك أمور أخرى أثارها هذا المستشرق تنبئ عن تحامله يمكن الوقوف عليها فى كتاب السنة ومكانتها من التشريع (١) .

كان الزهرى فيما يبدو قد توقف عن التحديث فى أخريات حياته ، فجاء الحسن بن عمارة فوجده على باب بيته ، فسأله أن يحدثه ، فقال له : أما علمت أنى تركت الحديث ؟

فقال : إما أن تحدثنى ، وإما أن أحدثك .

فقال : حدثنى .

فحدثه بحديث يروى عن علىّ رضى الله عنه يقول : ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا ، حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا .

فلما سمع منه هذا الحديث حدثه بأربعين حديثًا (٢) .

وقد روى الليث أنه كان يتأسى على ضياع العلم ، ويقول : يذهب العلم ، وكثير ممن كان يعمل به ، فقلت له : لو وضعت من علمك عند من ترجو أن يكون

(١) راجع السنة ومكانتها من التشريع للدكتور مصطفى السباعى ص ٣٩٤ ، ٤٠٩ .
(٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ .

خلفًا للناس من بعدك. فقال: والله ما نشر أحد العلم نشرى ، ولا صبر عليه صبرى[(١)] .

ويقول الليث : إنه كان يختم حديثه بدعاء جامع يقول : اللهم أسألك من كل خير أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة [(٢)].

بعض اجتهاداته الفقهية :

سافر معه رجل يسمى أبا جبلة ، فجاء يوم عاشوراء وهو مسافر ، فصام فسئل: لِمَ تصوم وأنت تفطر فى رمضان فى السفر ؟

فأجاب : إن رمضان له عدة من أيام أخر ، وإنَّ عاشوراء يفوت ، وكان يقول : من سنة الصلاة أن تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم تقرأ سورة .

وكان الزهرى مع علمه الواسع يشارك فى الغزو وأخباره كثيرة مستفيضة .

وفى السابع عشر من رمضان من عام أربعة وعشرين ومائة بلغ الكتاب أجله، وطويت هذه الحياة العريضة ، وودع الزهرى هذه الحياة لكن علمه باق إلى يوم القيامة، ويستمطر له الرحمات من الله تصديقًا لقول النبى ﷺ : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » .

رحم الله الزهرى وجزاه عن سنة رسول الله خير الجزاء .

(١ ، ٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ .

خلقًا للناس من بعدك. فقال: والله ما نشر أحد العلم نشرى ، ولا صبر عليه صبرى(١) .

ويقول الليث : إنه كان يختم حديثه بدعاء جامع يقول : اللهم أسألك من كل خير أحاط به علمك فى الدنيا والآخرة (٢).

بعض اجتهاداته الفقهية :

سافر معه رجل يسمى أبا جبلة ، فجاء يوم عاشوراء وهو مسافر ، فصام فسئل: لِمَ تصوم وأنت تفطر فى رمضان فى السفر ؟

فأجاب : إن رمضان له عدة من أيام أخر ، وإنَّ عاشوراء يفوت ، وكان يقول : من سنة الصلاة أن تقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم تقرأ سورة .

وكان الزهرى مع علمه الواسع يشارك فى الغزو وأخباره كثيرة مستفيضة .

وفى السابع عشر من رمضان من عام أربعة وعشرين ومائة بلغ الكتاب أجله، وطويت هذه الحياة العريضة ، وودع الزهرى هذه الحياة لكن علمه باق إلى يوم القيامة، ويستمطر له الرحمات من الله تصديقًا لقول النبى ﷺ : « **إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له** » .

رحم الله الزهرى وجزاه عن سنة رسول الله خير الجزاء .

(١ ، ٢) سير أعلام النبلاء جـ ٥ ص ٣٣٥ ، ٣٣٨ .

بادر بالعمل الصالح :

إذا هبت رياحـــــك فاغتنمها

فإنَّ لكل خـــافقة سكـــون

ولا تغفل عن الإحسان فيـــها

فما تدرى السكون متى يكـون

وإن درّت لقاحـــك فاحتـــلبها

فما تدرى الفصيل لمن يكـون ؟!

محمد الفاتح :

بشَّر الرسول ﷺ بفتح القسطنطينية روى أحمد عن بشر الغَنَوى : أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **لتفتحن القسطنطينية ، فلنعم الأمير أميرها . ولنعم الجيش ذلك الجيش** » وكان ذلك قبل فتحها بـ ٨٥٠ عامًا .

وفى رواية : وصف فاتحها ، بأنَّ اسمه اسم أحد الأنبياء . فطمع سليمان ، وطمع موسى المهدى ... ثم ظهر أنه : محمد الفاتح أو الثانى . ومن صفاته كان أعظم قواد العثمانيين .

أ ـ سماه أهل أوروبا : السيد العظيم .

ب ـ وكانوا يرتعدون لمجرد ذكر اسمه ... إلى حد أنَّ الأم الفرنسية كانت تخوف ابنها بالعربى .

جـ ـ كان فارسًا ، راميًا ، حافظًا لكتاب الله تعالى .

د ـ وكان يتقن ست لغات !!

ولما فتح الله به « القسطنطينية » كان سنه دون الثلاثين . ولما مات ... وزعوا الشراب الحلو فى أوروبا تشفيًا !!

وفى معركة القسطنطينية كان هتاف الجند : يا الله ... وبعد الانتصار على الروم شوهد يمرغ وجهه فى التراب ... تواضعًا لله تعالى .

ولما هنأه المؤمنون بالنصر المبين قال لهم : إنما النصر من عند الله سبحانه .

وقد دخل « إستانبول » على صهوة جواده . . . والمدينة تعج بالتهليل والذكر ، (ما شاء الله . . . لا قوة إلا بالله) .

وإزاء هذه الظاهرة المؤمنة وقف محمد الفاتح يذكرهم ببشارة النبى ﷺ بفتحها فتحًا إسلاميًا من سماته ، كما قال البصراء :

اللهم : ألهمنا حبك . . . وحب من يحبك . . . وحب كل شىء يقربنا إليك ، كما قذفت الرعب فى قلوب من عصاك .

معنى حبك لله : أن تطيعه ، وإلا كنت متناقضًا .

تعصى الإله وأنت تزعم حبه

هذا لعمرى فى القياس بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته

إنَّ المحب لمن يحب مطيع !

بعكس اليهود الذين كان منهم العصيان ، فسقطوا فى الامتحان ! وذلك قوله عز وجل : ﴿ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ... ﴾ [المائدة: ٢١] .

لقد رفضوا قيمة التضحية : رفضوا أن يدفعوا الثمن . . . فكان جزاؤهم أن يهيموا فى الأرض . . . لقد رفضوا أن ينقلوا خطاهم على طريق الحرية وهو :

أ ـ الإيمان .

ب ـ العمل الصالح الذى يحقق الغرض منه . . . وصار عادة لهم .

إلا إنه طاغية : يريد رفع علم السيادة . . . بلا منازع !!

أما المؤمن فهو على ما قيل :

هو الظَّفِر الميمون إن راح أو غدا

به الركب والتِّلعابة المتحبب

إنه لا يطلب شيئًا إلا ناله . . . لأنه يضحى بثمنه .

أما اليهودى فهو على ما قيل :

ولى طمع فى قلب ظمياء : كهـده

بعيد . . . وكم خابت لديها المطامع

من حكم الشعراوى :

الموت : سهم انطلق معك يوم مولدك ، عـمرك ، بمقدار سفره إليك ، من أخذ ما ليس له . . . استحق ما ليس عليه .

شاهد الزور : تـرتفع هامتك على الخـصم بشهادته . . . وتدوس أنـت بحذائك على كرامته .

حسبك من الحاسد : أنه يغتم لفرحك .

لاكرب . . . وأنت رب .

إذا أردت أن تسب الناس فسب أباك وأمك . . . فهما أولى الناس بحسناتك . .
من كذّبك فيما تعلم . . . فلا تصدقه فيما تعلم .

فى إحدى الغزوات :

أراد أبو بكر رضى الله عنه أن يدخل فى « مبارزة » غـير محسوبة . . . فقال له ﷺ : « **متعنا بك يا أبا بكر** » !!

فليس المهم أن ترمـى بنفسك فوق لجة الخطر . . . وأهـم منه هو : أنه لابد من تكافؤ القوى بين الحق والباطل . . . وإلا فالخسارة التى ليس لها رصيد من الاستعداد لا تخدم الدعوة بقدر ما تضعف من وضعها فى المجتمع .

من أساليب الدعوة :

أحيانًا يقدِّم القرآن الكريم عنصر « الخوف » على « الجوع » . . . فما هو السر ؟ قالوا : حين يقـدِّم الخوف . . . فإنما ذلك للردع الذى هو فيـه أظهر فى الردع وحين يقدِّم « الجوع » فإن ذلك أبعد أثرًا فى الإحساس بالنعمة .

سمع العقاد من يقول : « هذا أدب جنس » فقال على الفور : إنه جنس فقط .

وإذا كان كذلك . . . فكيف يكون أدبًا ؟

إنها « حمية » الجدال التى تلجئ الجاحد ليقول باللسان مالا يعتقده الجنان !

كان عمر رضى الله عنه إذا قرأ الفاتحة على مريض شفاه الله تعالى ، فلما مات قيل : هذه هى الفاتحة . . . ولكن أين عمر ؟!

من دروس « الإسراء » :

من الآداب الاجتماعية الخاصة بالضيف : طرق الباب . . . ولا يكفى . . . ولكن لابد من ذكر الاسم .

من دروس الدعوة : التودد للمدعو : وذلك قوله عز وجل : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ .

فى أمريكا : الكلية الخوارزمية تدرس ما هو خاص « بالخوارزمى » فى الرياضيات والعلوم الحديثة فقط .

المتقون :

هم قوم : تحابوا فى الله ، تولى الله تعالى هدايتهم . . . وتولوا القيام بحق عبوديته سبحانه وهم « أولياء » ، ففيهم معنى القرب من الله :

بالقلب : استغراق بمعرفته .

واللسان : بدوام ذكره .

وبالجوارح : تعبدًا له .

إن أحدهم إذا رأى . . رأى دلائل قدرته . . . وإذا سمع . . . سمع آياته . . . وإذا نطق . . . نطق بالحق ، وإذا تحرك . . . ففى خدمته دائمًا ، إنه مستغرق فى تعظيم الله والقرب منه . . . فلا يخاف أحدًا .

يقول الله عز وجل فى سورة الشورى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) ﴾ .

إن المؤمنين أحيانًا إذا تبجح الشر وزعم أنه على الساحة وحده ـ فلابد من ردعه

ليتحقق بهذا الردع ما يلى :

١ ـ لا يستمر الشر ولا يتمادى .

٢ ـ وحتى لا يجترئ أحد على أحد .

٣ ـ والمفروض أن يكون هناك « رأى عام » بدليل الجمع فى ﴿ يَنتَصِرُونَ ﴾ يحاسب ويعاقب ليكون معنى الزجر .

أما الفرد وحده فإنه لن يتمكن من ذلك ؛ لأن همه طويل . وحزنه جليل .

من خصائص المجتمع المسلم :

يقول الله عز وجل فى سورة الشورى الآية ٣٦ : ﴿ **فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ...** ﴾ .

إن الوردة : يعتريها ذبول وأفول . وزوال وارتحال ... ولو عقلوا ... لعلموا ... ولو علموا ... لعملوا طاعة للشديد من قبل العبيد ، فكانت الشورى من فضل عقولهم ... وكان الإنفاق من فضل ما لهم !! لا يؤثرون الفانى على خساسته ... على الباقى مع نفاسته !!

أمرهم شورى : لافرق بين كبير وصغير : يعرض كل رأيه ... ويصغى إلى قول الآخر منزلاً إياه على أصول الشرع ... لا على نزوة الهوى .

وهم ذلك المجتمع القوى :

بالصلاة : التى تتحد بها الأبدان .

والشورى : التى تتحد بها الأقوال .

والاستجابة : التى تتحد بها الأعمال .

ومن ذكائهم : أنهم يحيلون القضية على من لم يرووا الإحسان إلا منه سبحانه ثم يرتاحون ... مجدِّدين التوكل عليه تعالى ، هاربين من الإثم ... وهو ما به تُدنس النفس .

والفواحش : وهى الكبائر التى أنكرها : الشرع ، والعقل ، والطبع .

وهم فى حال الغضب لا يستسلمون لفورته ... وإنما الذى يكون هو : تبريدُ حدِّه ... وإطفاء جمرِهِ !

وهم يغفرون : كلما جددوا غضبًا ... جددوا مغفرة سجية تلك فيهم ... إلاَّ إذا حاول الطغيان النيل منهم فإنهم لا يستذلون ... وإذا قدروا يغفرون ، غفران المتواضع وإلا فلو غضبوا لأنفسهم لكانوا متكبرين !!

منطق :

يقول الله عز وجل : ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ ...﴾ .

وقال محدثى : كيف تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم !!

وقلت له : إن الذى جعل الحديد ينطق ... هو قادر على أن يُنطق الألسنة والأيدى ، فلماذا تنكر نطق الألسنة والأيدى ... ولا تنكر نطق الحديد .

من واقعية الإسلام :

هناك فى حياته حاجات ثابتة ... مثل : حاجته للأمن ... للغذاء ... للتوالد (ضمان العيش) .

وهناك حاجات ثانوية ، وإذن فالإنسان : يتطور محتفظًا بهذه الحاجات الثابتة وبذلك تتطور الحياة فى ضوء هذه القواعد الثابتة ... مثل : لا ضرر ولاضرار . ونفى الحرج فى الدين .

والماركسية تهضم حق الإنسان : فهى تبارك « الرق » فى المجتمع البدوى : لأن مثل هذا المجتمع لا يضاعف إنتاجه ... إلا بالسوط ؟!

وإذن : فالماركسية تقرر أن التقدمى هو من يمسك بالسوط .

والرجعى : من لا يمسك بالسوط ، ويجب أن يظل الرجعى رجعيًا .. والتقدمى تقدميًّا !!

ومع هذا فهى تدَّعى « المساواة » ؟

وأين هى من المساواة التى قررها الإسلام فى مثل : كلكم لآدم .. وآدم من تراب ... لا فضل ... إلا بالتقوى .. والناس سواسية : كأسنان المشط .

« ومن ترك دينًا فعلينا قضاؤه » .

ومن منابع مبادئ القرآن : أن الفقر ليس نابعًا من طبيعة الإنسان ، وإنما هو نابع من سوء التوزيع ، فما جاع فقير ... إلا بمنع غنى !!

رئيس العمل ... يؤدب الموظف !! :

كتب عمر بن عبد العزيز إلى عامل يؤنبه : إنه ليخيل إلىَّ أنى لو كتبت لك أن تعطى رجلاً شاة ... كتبت إلىّ : أضأنًا أم ماعزًا ؟

ولو كتبت إليك بأحدهما ... لكتبت إلىّ : أذكرًا أم أنثى ؟

ولو كتبت إليك بأحدهما ... لكتبت إلىّ ... أصغيرًا أم كبيرًا .

فإذا كتبت إليك فى مظلمة فلا تراجعنى !!

وهكذا يريد الخليفة أن يجعل من الموظف رجلاً يستطيع أن يتحمل مسؤولية القرار ، ولا يتكل على رئيسه فى كل صغيرة وكبيرة .. وإلاَّ لتعطلت أعمال كبار !!

كان أبو الأسود الدؤلى عالمًا بالنحو : يعرف من دقائقه ما لا يعرف غيره .. ولكنه من الناحية الأسرية لم يكن موفقًا .. بدليل أنه طلق امرأته .. وبعد زمان قضاه معها متطاول ... بدليل تلك الذرية التى بقيت بعد طلاق أمهم حائرة ضائعة ومهما كان الظن حسنًا بالزوج ... إلا أنَّ مخلفات الزواج .. كانت شائكة ، فقد صايرت زوجته المطلقة ظروفها .. ولكنها لم تصبر على فراق ولدها .

إنَّ من حق أبيه أن يجدد الفراش بغيرها .. لكن من حقها أو من حق ولدها أن يجتمعا .. وألا يكون وحده الذى يتحمل آصار هذا الطلاق ... أو هذا الفراق !!

وفى مبادرة جريئة قررت أن تقاضى طليقها مطالبة بضم ولدها إليها ... وكان القضاء بينهما فى ساحة المحكمة .. والتى دافعت فيها المرأة عن نفسها فى أدب رصين ومنطق سليم .. أما أدبها : فإنها لم تعب عليه فى خلق ولا دين .. ولم تعرِّض بنقص فيه .. وإنما كانت « موضوعيًا » تطلب ولدها .

وكان من أدب الوالى أو القاضى أن طلب من الزوج أن يدافع عن حقه فى حضانة « الولد » فقال : أنا أحق به منك ... ولماذا ؟ يجيب الزوج : فإننى قد

حملته قبل أن تحمليه . ووضعته قبل أن تضعيه .

وقبل أن تأخذ الزوج نشوة الانتصار ترد عليه مطلقته فى أدب جم لتقول : لقد كنت حملته قبل أن أحمله : لقد حملته خفًا . . . وحملته ثقلاً !! ولقد كنت وضعته قبل أن أضعه . . لقد وضعته شهوة . . . ووضعته أنا كرهًا . . وشتان بين الأمرين .

وإزاء هذا المنطق القوى . والأدب النادر . . كانت أحق بولدها الذى قضى لها به .

ولاحظ فى منطقها بركة القرآن الذى استمدت منه قوتها . . وذلك قولها : ووضعته أنا كرهًا مشيرة إلى قوله عز وجل فى سورة الأحقاف : ﴿ **حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا** ﴾ [الأحقاف :١٥] ، ويعنى ذلك أنها كسبت القضية لا بالدجل ولا بالمهاترة. . . وإنما بأدبها الذى استمد من القرآن قوته وفصاحته وحسنه . . وبهذا كله. . خرجت من المحكمة وفى يدها ولدها الذى كان من سعادته أن ينشأ فى ظل أمٍّ على هذا المستوى من الكمال والجمال .

الاحترام المتبادل :

يقول الله عز وجل فى سورة مريم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا** (٩٦) ﴾ وهذا الرد الجامع له أسبابه :

- فليست هناك دنيا يتقاتلون عليها .
- وليست هنا مناصب يتدافعون إليها بالمناكب .

وإنما هو الزهد فى الدنيا . . . والطمع فى الآخرة .

وإذن فلاخلاف بين المؤمنين . . . وإنما هو الرد الجامع المانع ، الجامع على الحب، المانع من الاختلاف .

وخذ مثالاً على ذلك ، قال الشعبى : ركب زيد بن ثابت فدنا منه عبد الله بن عباس ليأخذ بركابه . . فقال له زيد : ما تفعل يا ابن عم رسول الله ؟ فقال : هكذا أمرنا أن نفعل بعُلمائنا . . فقال له زيد : أرنى يدك . . فقبلها . . وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ .

لقد احترم عبد الله رضى الله عنه نفسه ساعة احترم زيدًا حبر الأمة .. ولم يكن غريبًا أن يرتد إليه احترامه وعليه مزيد من الحب الذى يجمع العلماء والأمراء . وباتحادهم تفوز أمة التوحيد .

وقد خرجت وفى عقلها وقلبها ذلك الذى صار قاعدة للحياة .

من السهل أن تحب الناس .. ولكن من الصعب أن تجبر الناس على حبك .

ومن السهل أن ترى الناس على حقيقتهم ... ولكن من الصعب أن ترى نفسك على حقيقتها .

من السهل أن تخسر صديقًا .. ولكن من الصعب أن تسترده !!

من بين خطط أعدائنا لتنحية الإسلام وإبطال مفعوله ، ما يلجؤون إليه من فتح النار على رموز الإسلام عبر التاريخ .. حتى إذا ترنَّحوا واهتزت القيم الأخلاقية باهتزازهم .. كان ذلك مدخلاً إلى تنفير السذج من هذا الدين الذى أكرم الله تعالى البشرية به .

وإلى هنا والقوم هناك منطقيون مع أنفسهم ... حين يفعلون ما هم مقتنعون أنه دفاع عن النفس .. وهو حق مشروع !

أما أن نتطوع نحن المسلمين لنمهد بين أيديهم السبيل ليجهزوا علينا .. وبأيدينا فذلك هو الخطر الذى يجب التنبه له !

وذلك بفتح النار على واحد من رموزنا هو : « الظاهر بيبرس » لذنب واحد .. كان وسط آلاف من الحسنات :

وإذا الصديق أتى بذنب واحد

جاءت محاسنه بألف شنيع

وتؤكد : أنَّ حسن النية هنا لا ينهض دليلاً فى يد المهاجمين .. الذين كان هجومهم سلاحًا فى يد أعدائنا !!

المشكلة والحل :

وقد دفع ذلك الموقف الباحثين إلى تلمس أسباب الانحراف .. التى حصرها

فى: التدليل أولاً ، ثم فيما يراه الطفل من أبويه ،وإنَّ من أسباب فساد الأجيال :

أولاً : رأى الطفل الصغير صورة القمر على صفحة ماء .. حوض السباحة فطلب ما رأى .

وعجزت الأم عن التعامل الأمثل مع الموقف ولكننا نلمح معنى « التدليل » الذى يرى المستحيل ممكنًا !!

وثانيًا : من أسباب فساد الأجيال ما يقوله واحد من الباحثين : (وقد يكون من أسباب تلك المشكلات ما يدور أمام ناظرى الطفل من الخلافات العائلية والأزمات الاجتماعية بين الأب والأم أو الأخوة والأخوات مما ينعكس على الطفل ويسبب له كثيرًا من الاضطرابات النفسية والانفعالية .

وعزت الدراسة بعض أسباب الانحراف الجنسى عند الأطفال إلى ما يراه الصبى من مناظر مثيرة داخل الأسرة أو المحيط الفاسد الذى يعيش فيه . والمربى الناجح هو الذى يجنب أولاده الضياع والهياج الغريزى والآثار الجنسية وبذلك يحفظ أولاده من الانحراف والفساد وينشئهم على العفة والطهارة والنزاهة ، وقد يكون من أسباب تلك المشكلات أيضًا التزمت والتشدد والجمود فى اتباع المعايير والنظم الاجتماعية ، وكذا المفاضلة بين الأولاد وما ينجم عنها من مشكلات تدوم مع الشخص وتؤثر فى علاقاته المستقبلية فى الحياة العائلية والمجتمع الذى يعيش فيه) أ . هـ .

بشائر النصر :

ولقد كان من آثار الاستمساك بالحق : انتزاع هذه الشهادة التى أعلنها القوم هناك فكانت نصرًا لنا .

صور من مجلس النواب الأمريكى بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر :

١ ـ الاعتراف بأنَّ الإسلام أعظم أديان العالم .

٢ ـ احترام المسلمين .

٣ ـ نحن أصدقاء المسلمين . وندعم المسلمين فى العالم ،ونرفض العنف ضدهم .

٤ ـ شكر المسلمين الرافضين للعنف ، والاعتراف بكل الأديان مذهبنا ، فنحن

نرحب بهذه البادرة الطيبة .

وقل معي :

رب ضارة نافعة .

من الآداب الاجتماعية :

يقول الله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝١١ ﴾ [المجادلة : ١١] .

تمهيد : ربما تعتريك هيبة عن دخولك مجتمعًا حافلاً . . وقد أحسست بذلك شخصيًّا فى الوقت الذى أقف فيه خطيبًا أمام الملايين . . فلا أهتم . . ومن أجل ذلك كان للإسلام توجيهاته التى يجب أن تراعى . وتؤكد فى النهاية أحقية الجالس فى مجلسه لو تركه لحاجة وأنَّ على الإنسان أن يجلس حيث ينتهى به المجلس ثم إن :

١ ـ القادم إلى المجلس أولاً . . قد ترك عمله الأساسى مبكرًا . . فهو بذلك البكور أعمق فى العلم رغبةً .

٢ ـ وفى إقامته من مجلسه كسر لخاطره .

٣ ـ وقد يكون تلميذًا نجيبًا نُحرم من أسئلته .

٤ ـ ثم إنَّ فى إقامته للكبير القادم تعظيمًا لغير الله تعالى .

٥ ـ تنحية للمجدِّين من طلبة العلم .

٦ ـ تعكير للجو الروحى بهذا الكبير القادم .

ولهذا جاء التوجيه القرآنى هنا يحفظ لهذا الراغب كرامته . . فمع أنَّ التوسعة للكبير القادم قد تكون شيئًا عاديًّا لاتأبه له . . لكنه شعبة من الإيمان .

وقد جاءت توجيهات الإسلام :

أولاً : تحفظ للكبير القادم هيبته بحيث لو قال أى واحد : تفسحوا . . فيجب الالتزام ، وذلك مفهوم من صيغة التمريض (قيل) .

وكان من بين هذه التوجيهات : ذلك الأمر الصريح : « **لا يقيمن** » وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه لو قام له أحد : رفض عرضه!! ولم يجلس مكانه!!

قال يهودى لعلىّ رضى الله عنه :

اختلفتم بعد نبيكم .. قبل أن يجف ماؤه ؟

فرد عليه الإمام قائلاً :

قلتم : اجعل لنا إلهًا ... قبل أن تجف أقدامكم !!

﴿ وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) ﴾ [النور: ٣٢] ويشرح النبى ﷺ هذا التوجيه ، فيقول: « **إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد عريض** » [(١)] ، ووكل ذلك بداهة إلى تقدير ولي الفتاة وإلى تصور الأسرة للنفقة وما يتصل بها .. والواقع أنّ هذا التقدير لا يمكن أن يَبُتّ فيه قانون ، إنما الذى يَبُتُّ فيه مجتمع مؤمن ، والذى يَبُتُّ فيه رجال يتقون الله ويريدون أن يشيعوا العفة والقناعة فى المجتمع .. وإلى أن يتزوج طالب الزواج ، وإلى أن يستكمل دينه ماذا يصنع ؟ يقول الله: **﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ... ﴾** [النور : ٣٣] فلابد أن يستعفف .. وعبارة الاستعفاف تعطى أنّ المرء يتكلف أو يعانى أو يتعب نفسه ، ولابد من ذلك فى كبح الهوى وضبط الغريزة.. فإنّ الغريزة العاتية تحتاج إلى إرادة حديدية .. وهنا نجد أنّ الإسلام حارب الانحراف والجنس بمحاربة بوادره الأولى أو المقدمات التى تُغرى به .. وكان فى هذا دينًا عمليًّا.

فى هذه السورة نقرأ قوله تعالى وهو يمنع الانحراف الجنسى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) ﴾ [النور :٢٧] وكما قال أحد السلف : إذا

(١) رواه الترمذى فى النكاح ، باب ماجاء فيمن ترضون دينه فزوجوه .. وقال : حسن غريب... تحفة الأحوذى ٤ / ٢٠٥ ، وابن ماجة ١ / ٦٣٣ والحاكم ٢ / ١٦٥ .

سمعت الآية تقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فأعرها سمعك فإما خير تؤمر به أو شر تُنهى عنه . . . هذا النداء يستثير الإيمان . . لماذا ؟ لأن الإيمان هو الذى يخلق الضمير اليقظان الحى الـذى يجعل الإنسان إذا قرع بيتًا ولم يجد الرجل فيه يرجع من حيث جاء . . لا يجوز بَتَّة اقتحام بيت ليس فيه صاحبه . . لايجوز دينًا ولا مروءة واقتحام البيت وفيه المرأة وحدها فإنَّ البيت حصنها ، وينبغى أن تبقى فى هذا الحصن مصونة . . والإسلام يرفض كل تقليد اجتماعى يتواضع الناس عليه لجعل الخلوة بالمرأة ممكنة . . يرفض الإسلام هذا لأنه بذلك ـ فعلاً يَسُدُّ أبواب الفتنة .

ثم توجيه آخر لابد منه وهو : غض البصر . . . فإنَّ الإنسان إذا أرسل عينه تتلصص على الأعراض من هنا أو من هنا فإنه يفتح أبواب الشر على نفسه . . وقد قال شاعر قديمًا :

والمرء مادام ذا عين يقلبها فى أعين الغيد [1] موقوف على الخطر
يسر مقلته ما ضر مهجته لا مرحبًا بسرور عاد بالضرر

إنَّ فتح باب الفتنة يكون بالعين المحملقة والبصر الطامح . . والإيمان أساس ـ هنا ـ فى كبح الهوى لأنه مِنْ الذى يعلم خائنة الأعين ؟ مِنْ الذى يعرف كيف ترسل بصرك وما النية الكامنة وراء هذه النظرة ؟ إنَّ الإيمان هو الأساس الذى لابد أن يُثَبَّت فى القلوب : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) ﴾ [النور : ٣٠] .

توجيه ثالث وهو : منع المثيرات الحسية : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] ومعنى هذا : أنَّ جسد المرأة عورة ينبغى أن يُوارى أو أن يُدارى وما عدا الوجه والكفين ينبغى ستره . . فلا يجوز أن تلبس ملابس تصف البدن أو تشف عن مفاتنه أو تغرى العيون الجائعة باستدامة النظر إليه فإن هذا كله فتح لباب الفتنة . . والإسلام عندما يأمر بالعفة ، وعندما ينهى عن الفحش فهو يَسُدُّ الطريق

---

(١) الغِيد : النعومة ، وامرأة غَيداء ، وغادة أى ناعمة .

ابتداء أمام المثيرات التى ينزلق بعدها القدم ، لهذا كانت السورة كما قلنا سورة آداب جنسية إلى جانب أنها ضمانات وحصانات للأعراض وللشرف وللقيم . . من ذلك فى أول السورة وآخرها أدب الاستئذان . . ففى أول السورة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) ﴾ [النور: ٢٧ ، ٢٨] .

وفى آخر السورة يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) ﴾ [النور : ٥٨ ، ٥٩] .

إنّ الأولاد فى البيت ينبغى أن يُعلموا أدب الدخول فى الغُرف . . هذا المعنى معنى أنّ الأسرة التى تسكن شُقة وفيها غرف يُنبه على الأطفال فى أوقات ألا يدخلوا إلا بعد استئذان واضح . . هذا أدب إسلامى ينبغى أن يعرفه المسلمون وأن يلتزموه . . . هذا أدب إسلامى لا ينبغى أن نتجاهله أو نزدريه لأنه من ضوابط العرض وصيانات الشرف التى تُربى عليها الأسرة الإسلامية .

فإذا حدث بعد ذلك أن انحرف أحد فإنَّ العقوبة الإسلامية هى الجَلْد بإجماع المسلمين يُجلد الزانى الذى لم يحصن . . أي لم يتزوج . . وجمهور المسلمين على رجم المحصن . . والآية فى هذا واضحة : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور: ٢] والجلد عقوبة للإنسان إذا هبط إلى درك الحيوان . . وكما أنَّ الحيوان يضرب بالعصا حتى يُنفذ الأمر الذي صدر إليه ؛ لأنه لا عقل له فكذلك إذا هبط إنسان عن منزلة العقل والضمير وارتكس فى حمأة الشهوة

وأصبح منقادًا لغريزته الحيوانية فإنه يتعرض للعقوبة التى يتعرض لها الحيوان . لأنه أصبح حيوانًا إذ يسطو على عرض كان ينبغى أن يصونه . . إذ ينتهك حرمات الله كان ينبغى أن يحفظها وأن يرعاها . . فإذا هبط إلى مستوى الحيوان فهو مستحق لعقوبة الحيوان . . على أنَّ الرجم الذى جاءت به السنة إنما جاء إحياء لشريعة قديمة . . فالإسلام لم يبتدع عقوبة الرجم للزانى أو الزانية إذا كانا محصنين . . إنما هذه الشريعة شريعة التوراة [1] ولا تزال برغم ما أصاب كتب اليهود من تحريف . . لا تزال هذه الشريعة موجودة إلى الآن تنص على رجم الزانى والزانية ماداما محصنين[2] ويقول أحد الأدباء تعليلاً طريفًا لهذا الحكم : إنَّ من هدم بيت الزوجية بزناه أو من هدمت بيت الزوجية بزناها ينبغى أن تنتقم أحجار البيوت كلها من جلده ومن بدنه حتى يتعلم كيف يصون البيت !! ولذلك قال القرآن : ﴿ **وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ** ﴾ [النور : ٢] .

وإلى جانب صيانة الأسر عن طريق منع العمل الردىء فإن الأسر يجب أن تصان عن طريق رفض أى اتهام لا يليق من هذا القبيل ، والإسلام فى هذا كان حاسمًا . . فمن قذف إنسانًا بالزنا أو قذف أصله أو قذف فرعه الذى يتصل به ويَمُتُّ إليه بسبب وثيق فإنه ينبغى أن يعاقب بالجلد ثمانين جلدة : ﴿ **وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤)** ﴾ [النور : ٤] .

---

(١) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنَّ اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أنَّ رجلاً منهم وامرأة زنيا . فقال لهم رسول الله ﷺ : « **ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟** » فقالوا : نفضحهم ويجلدون ، فقال عبد الله بن سلام : كذبتم إنَّ فيها الرجم . فأتوا بالتوراة فنشروها ، فوضع أحدهم يده على آية الرجم ، فقرأ ما قبلها وما بعدها ، فقال له عبد الله ابن سلام : ارفع يدك . فرفع يده فإذا فيها آية الرجم ، فقالوا : صدق يا محمد !! فيها آية الرجم ، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرُجما . قال عبد الله بن عمر : فرأيت الرجل يجنأ على المرأة يقيها الحجارة » أخرجه البخارى فى كتاب المناقب ـ باب قول الله تعالى : ﴿ **يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ** ﴾ ٤ / ٢٥١ ومسلم فى كتاب الحدود ـ باب رجم اليهود أهل الذمة فى الزنى ٥ / ١٢١ ، ١٢٢ .

(٢) ففى سفر التثنية ـ إصحاح ٢٢ « إذا وجد رجل مضطجعًا مع امرأة زوجة بعل يُقتل الاثنان» .

هذا الغنى : يساوى الحياة .

والفقر : يساوى الموت .

بعض تناقضات سفر التكوين فى العهد القديم : لأنه أشهر ما قرأه الغربيون من الإنجيل أو التوراة .

تعليق : فهل هذا وحى ، منزل من السماء ، لقد نقده أتباعه . . . كثيراً .

فكيف بالمسلمين أصحاب الكتاب المحفوظ ؟

١ ـ وهذا هو سبب خلو المعابد والكنائس من الزوار ، بل بيع بعضها . بعد هجرها .

٢ ـ كثرة الأحزاب حين ادعى كل فريق أنه حصل على أقدم نسخ الإنجيل . . وأنَّ التناقضات فى نسخته أقل .

٣ ـ أما الأصل : فلم يدَّع أحدهم أنه فاز به .

من مظاهر قدرة الله عز وجل :

يقول سبحانه وتعالى فى سورة الأنبياء : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ . . . ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠] .

يلاحظ فى الآية الكريمة ما يلى :

أنّ الله سبحانه وتعالى لم يذكر النِّعم هنا بالترتيب ليكون الإصلاح قبل الإنجاب . . وكان ذلك لحكمة لاحظها المفسرون ، فقالوا: لم يذكر بالترتيب ليشعر السامع بأنَّ القدرة الإلهية مطلقة ، وهى فوق الأسباب العادية المعروفة لدى البشر .

الشباب والشيوخ :

فى سورة يوسف يقول الله عز وجل : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي . . . ﴾ [يوسف: ٩٧، ٩٨] .

وأما فيما يتعلق بيوسف عليه السلام فيقول عز وجل : ﴿ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ

الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ [يوسف:٩١، ٩٢] .

وقد لاحظ العلماء التعبير بقوله عز وجل : ﴿ سَوْفَ ﴾ فى جانب الوالد الشيخ وهو مالم يعبر به يوسف الذى طلب لهم المغفرة بدون سوف .

وقد حمل هذا المفسرين على أن يقولوا : ويؤخذ أنَّ طلب الحوائج إلى الشباب أسهل منه إلى الشيوخ كما جاء فى تفسير البقاعى .

العفو :

قال الطبرى : ليعفوا عما كان منهم إليهم من جرم كجرم مسطح إلى أبى بكر في إشاعته ما أشاع فى حديث الإفك ، وليصفحوا : أى ليتركوا عقوبتهم على ذلك بحرمانهم ماكانوا يعطونهم قبل ذلك .

ولا تفرقه فى هذا بين العفو والصفح .

ولم يعرض الزمخشرى وابن كثير والنيسابورى لشرح الكلمتين .

بعد هذا التطواف لم أستطع الحصول على تفرقة بين العفو والصفح والمغفرة ، إلاَّ ماجاء في تفسير ابن كثير والنيسابورى للآية الثانية ، إذ جاء العفو بمعنى التجاوز عن العقوبة ، وجاءت المغفرة بمعنى التجاوز عن العقوبة مع الستر .

فهل نستطيع أن نستنبط من هذا أنَّ العفو هو التجاوز عن عقاب المذنب المستحق للعقاب تجاوزاً كاملاً خالصًا ، ولا يكون إلاَّ من أعلى إلى أدنى ؟

وأنَّ الصفح هو الإعراض عن عقاب المذنب ، لأن الذنب هين مثلاً ، والتجاوز فيه مصحوب بشيء من الضيق أو الأسف ، ولا يكون الصفح إلا من مساوٍ إلى مساويه أو ما يقرب من هذا .

وأما الغفران : فهو التجاوز عن عقاب المذنب مع ستر ذنبه ، حتى لا يعلم به أحد، وهو مثل العفو من أعلى إلى أدنى .

ولو قيل للمجنون : ليلى ووصلها

تريد .. أم الدنيا وما فى طواياها

لقـال غبـار مـن تـراب نعالـــــهـا

ألذ إلى نفسى وأشفى لبلواهـــــا

بعد هزيمة بدر :

كانت هزيمة بدر حدثًا موجعًا إلـى حد أنَّ « أبا سفيان » أقسم ألا يمس امرأة ولا يمسه ماء حتى يأخذ ثأره من محمد ﷺ .

وقال قائلهم :

ولست بخالع درعى وسيفى

إلى أن يخلع الليل النهار!!

وإذا كان هذا هو إصرار المبطلين على نصرة باطلهم . . . فأين منه أصحاب الحق اليوم بعدما احتُلت « فلسطين » .

أولاً : فلنقاتلهم بالسلاح . . . وإلاَّ . . . فلنترك غيرنا يقاتل لنا ؟

وثانيًا : هناك الجهاد السياسى : نقطع صلتنا بعدونا : سياسيًا واقتصاديًا .

والجهـاد الاقتصـادى بمقاطعـة بضائعـهم ، والجهاد بـالمال ، ثم الجهـاد الروحى بالدعاء بنصرنا وهزيمة عدونا !!

أما الاعتماد على المؤسسات العالميـة . . . فلا يجدى . . . لأنها كلها لعبة فى يد أمريكا .

ومما أسعدنى :

أولاً : كان ممـا أسعدنى وزادنـى ثقة بإسـلامى ما تناقـلته وكالات الأنـباء : أنَّ إسرائيل أضعف من أن تواجه إيران .

ثانيًا : أنَّ « إسحاق » وهو باكستانى مسلم صار عمدة لولاية فى أمريكا .

هذا الرجل الذى لم يكن تديـنه « احترافًا » ولكنه كان احتراقًـا . . فاخترافًا !! وموت مثله ليس فراق لحبيب . . . ولكنه على ما قيل : (ولكنه بنيان قوم تهدَّما) .

يقول الله عز وجل فى سورة النحل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ...﴾ .

نزلت هذه الآية الكريمة بشارة للمؤمنين بدولة يقوى فيها المسلمون إلى حد يُخشى عليهم فيه أن تحملهم قوتهم على نقض العهود .. والمعنى :

لا تحملكم قلة محمد وكثرة المشركين على نقض ما بايعتموه عليه .. ولاتتخذوا الأيمان للخداع ، إذا وجدتم فرصة للخداع فتتركوا أمة معاهدة ؛ لأنها أضعف .. إلى غيرها .. لأنه أقوى .

وهذا الذى حذر الله تعالى المسلمين منه .. هو ما وقع فى العصر الحاضر . وفى الحربين الأخيرتين :

١ ـ نقضت إنجلترا عهدها مع الشريف حسين ، ومع سوريا .

٢ ـ خرق « هتلر » حياد « بلجيكا » وهاجم روسيا على غرة . بعد أن ساعده حلفاؤهما على الانتصار على « بولندا » .

٣ ـ غرّرت « اليابان » بأمريكا فأغرقت أسطولها ... ولكن سنة الله : ﴿ **فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ** ﴾ فقد هزموا بعد ذلك ولسوف تهزم إسرائيل .

وفى الإسلام : الأمان : فقد يُقدَّم حق لأهل العهد على حق مثله لأمة الإسلام.

ونقرأ فى ذلك : ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَئًا ...** ﴾ .

وقوله عز وجل : ﴿ **وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ...** ﴾ .

التصحيف : تغيير اللفظ حتى يتغير المعنى المراد .

وأصله : الخطأ . يقال : صحفه ... فتصحف أي : فتغير حتى التبس .

نقح : من باب نقع . ونقحت العود : نقيته من عقده .

والشيءَ : خلصت جيده من رديئه ، ونقحت العظم : استخرجت ما فيه من مخ ونقّحت : مبالغة وتنقيح الكلام من ذلك .

مسؤولية الدعاة :

يقول الله عز وجل : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

ولاحظ أنَّ هذه الأمة أخرجت : أخرجها مالك أمرها سبحانه . . أخرجها : للناس . . وليس على الناس .

تهديهم وتأخذ بأيديهم إلى الخير . . وليست أمة متسلطة . . وإنما كانت خيريتها بسبب أنها : تأمر بالمعروف . . وتنهى عن المنكر : إنها أمة مخلصة : صادقة الحس والنفس . جاءت لخير البشرية . . وليست كغيرها من مثل اليهود الذين قال تعالى فيهم : ﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾ . . فصب الله تعالى عليهم اللعنة . . وحقت عليهم كلمة العقاب . . بما قدمت أيديهم .

كان الشريف فيهم يسرق . . . فيقبِّلون يده . . بدل أن يقطعوها ؟ يستبقون حياته . . . بدل أن يمحقوا هذه الحياة !!

وإذن . . فالقيام بمهمة الأمر والنهى مهمة صعبة المنال : لأنَّ الحق مرّ . . والداعى إليه مكروه . . لأنه يذكرك بقيد الفضيلة ؟ الأمر الذى يتطلب أن يكون الداعية من الصابرين : الصابرين على الحق . الثابتين عليه . . أما الذين يفرون من هذه المعركة المكلِّفة . . فليسوا دعاة !!

ولكن الإنسان قد يكون صابرًا . . بل مصطبرًا متحملاً تبعات الدعوة . . ولكنَّ الشيطان المريد لا ييأس . . إذ يدخل عليه من باب آخر وهو : باب الزهو والغرور وهو ما يفرض عليه أن يحارب فى جبهتين : والشيطان الرجيم عدو مبين مقيم . . وعلى الداعية أن يتسلح فى مواجهته بما يمكن أن نطلق عليه مانعة الصواعق . . حتى لايكون ضحية مكر الشيطان الرجيم والذى يقعد للداعية بكل سبيل ويحاربه بكل سلاح . . . ومنه : سلاح المال . . والانتصار عليه إنما يكون بإنفاقه فى سبيل الله تعالى . . خروجًا من جاذبيته .

وهناك سلاح « الشهوة » أيضًا : وإذا كان المال هو العدو الخارجى . . . فإنّ الشهوة هي العدو الداخلى ، وقد قيدها الله تعالى بالصوم الذى يقلم أظافرها . .

ويقف بها عند الحد المشروع .. ويأتى مسك الختام من أسلحة المؤمن فى مواجهة الشيطان الرجيم ، وهو : الذكر الذى يصاحب كل فضائل النفس .

يستصحبه الإنسان وهو يجاهد . وهو يتصدق . وهو يصوم . وإذن فليس الذكر خاضعًا لعدو معين .. كما يفهم بعض الطيبين من الصالحين .. ولكنه مرتبط بكل فضائل النفس . فهو الزاد الذى يُمدّ النفس بالطاقة الدافعة .

ويلاحظ من ملامح المنهج القرآنى فى الدعوة :

أنه لايعرض الفضيلة على « العقل » جافة مجردة .. فتسأم النفس ، ثم هو لايعرضها عاطفية خالصة .. حتى لايفلت الزمام .

وإنما يعرضها مزيجًا من الاتجاهين .. لإرضاء ملكات النفس كلها وكأنما الدعوة مائدة حافلة بأطايب الطعام والشراب .. حتى تستهوى الأفئدة . وتقبل عليها النفوس .

فى الميراث :

الجيل الجديد هو المستقبل الواعد ، ومن أجل ذلك يرث أكثر من الجيل القديم الذى تتضاءل مسؤولياته :

البنت ترث أكثر من الأم .

والابن يرث أكثر من الأب .

يدور الإرث على محورين :

١ ـ درجة القرابة .

٢ ـ حاجة الورثة .

ولما كان الذكر متكفلاً بنفقة الأسرة كان له مثل حظ الأنثيين .

وليس ذلك لتدنى مركز الأنثى .. بدليل أنه لو لم يكن الرجل مسؤولاً عن الأسرة فالنصيب متساو .

﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ

أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ ﴾ .

١ ـ ترث الأم الثلث مالم يكن للميت ولد ولا جمع من الإخوة ، أما الوالد فيرث السدس مطلقًا .

ويتساوى الجدّان إن لم يكن للميت أبًا (السدس) .

أهمية الأخلاق :

تمهيد : يقولون إنَّ الأخلاق أقوى جيش . . وأهنأ عيش ، ومما يدل على أهمية الأخلاق :

١ ـ هدف العبادات كلها : الأخلاق :

أ ـ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم ﴾ .

ب ـ ﴿ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ .

جـ ـ وفى الصوم : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ ، وفى الحج : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ . . . ﴾ .

٢ ـ المرأة التى كانت تعبد الله تعالى : ولكنها كانت تؤذى جيرانها .

٣ ـ إنّ المؤمن ليدرك بحسن خلقه . بحركته فى المجال الاجتماعى مالا يدركه بعبادته .

شاهد من القرآن :

وفى القرآن الأخلاق : قبل العلم ، بدليل تقديم الرحمة على العلم ، فى قوله عز وجل : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ .

إن النّاس إنما يتفاضلون بالأخلاق . . . وفى هذا يقول ﷺ : « **أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم أخلاقًا** » .

ومن هنا قيل :

أقبل على النفس واستكمل فضائلها

فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ومن أجل ذلك كانت الأخلاق محور النشاط الإنسانى .

جمعية للتسلح الخلقى فى مصر :

من بين آلاف الجمعيات الأهلية فى مصر هناك جمعية اسمها « التسلح الخلقى » والأغرب من اسمها أنها موجودة بيننا منذ ٢٠ عامًا د . ناجية عبد المغنى نائب رئيس الجمعية تقول : (نعتبر نحن الفرع المصرى لحركة التسلح الخلقى العالمية . والتى نشأت عقب الحرب العالمية الثانية ، ويقوم فكرها على أنّ أى نزاعات بين البشر يجب ألا تحل بالأسلحة العسكرية وإنما بسلاح آخر أكثر فعالية وهو الأخلاق ، وأنّ البشر فى مختلف أنحاء العالم هم أسرة إنسانية واحدة) .

وتضيف د . ناجية : أنّ التسلح الخلقى يقوم على أربعة أسس هي : المحبة والأمانة والطهارة والإيثار ، ولا يقتصر دورها فقط على أوقات الحروب أو حتى فى تحقيق الحوار بين الحضارات والثقافات المختلفة ، وهو ما كنا نركز عليه فى الفترة الماضية ، وإنما فى أشد الحاجة إلى فكر التسلح الخلقى فى مصر بعد انتشار «الأنامالية» ، والسلبية ، وغياب التسامح ، وقد نظمنا بعض الندوات حول الارتقاء بسلوكيات الشارع المصرى والغش التجارى ، ولكن ما زال أمامنا الكثير لتحقيقه على المستوى المحلى . وهو ما يتطلب مساندة ودعمًا من مؤسسات المجتمع المختلفة .

ومن معانى هذا الخبر :

أنه لما كان العالم أسرة إنسانية واحدة . فذلك يستدعى تنحية الأسلحة العسكرية لتكون « الأخلاق » وحدها هى القادرة على حل النزاعات بين أفراد الأسرة الواحدة، فراراً من الجماجم . والأشلاء . والضحايا .

والمبادرة إنسانية فى نزعتها وهدفها : الحفاظ على دماء الإنسان أن تراق بددًا . مهما كان دين ذلك الإنسان منطلقة من هذه الأسس الأخلاقية ، وهى :

الحب . والأمانة . والطهارة . والإيثار . . ونائب رئيس هذه الجمعية سيدة فاضلة مسلمة . . . وهى تنوه بدور هذه الجمعية فى ترسيخ قيمة السلام بين البشر .

وإذا كنا نرحب ببادرة السلام هذه . . . فإنّ وفاءنا لإسلامنا يفرض علينا أن نشهد

بالفضل لأهله .

وأهل الفضل هنا . . . والمنبع الصافى الذى تنطلق منه تلك الدعوة الإنسانية هو الإسلام : الذى كان أول دعوة إلى هذه الأخلاق . . التى يفض الله تعالى بها الاشتباك لتعيش الأسرة الإنسانية حياتها فى أمن من الخوف . . وشبع من الجوع ، ونقرأ فى ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [القلم: ٤، ٥] . .

وأرجو أن يلاحظ ما يلى :

فالله عز وجل يشهد ـ والله أعظم شهادة ـ أنَّ الرسول ﷺ على خلق عظيم متمكن منه . راسخ فيه ، طبعًا . . . لاتطبعًا .

ثم تجيء « فاء التفريع » فى قوله تعالى : ﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ ، وكأنما يريد الله تعالى إخبارنا وإخباره بأنه ، وبهذه المنظومة من الأخلاق العظيمة سوف ينتصر غدًا انتصاراً يراه هو ويراه المعاندون أيضًا . . . بمعنى : أنه لما كنت متسلحاً بالخلق العظيم . . . فسوف تكون النتيجة أنَّ المستقبل لك .

وإذن : فالإسلام دعوة إلى التسلح الخلقى ، ومنذ اللحظات الأولى : لأن سورة القلم هى السورة الثانية فى ترتيب النزول .

فإذا تصورنا شناعة تهمة « الجنون » التى يرمى بها أعقل العقلاء . فإنها ومع ذلك فلم تقابل بالعنف وإنما بالخلق العظيم إذا تصورنا ذلك اتضح لنا كيف كانت الأخلاق سلاح المؤمن فى مواجهته لأعدائه . . . وهذا هو معنى الجهاد فى الإسلام . . الجهاد الذى لا يكون بالسلاح إلا إذا فرضت المعركة فرضًا .

وفى ضوء هذا المعنى يمكننا إدراك أمل الرسول عليه الصلاة والسلام فى التزود بكريم الأخلاق ـ لتكون سلاحًا بتارًا فى مواجهة الإلحاد .

فمن دعائه ﷺ : « **اللهم كما أحسنت خَلْقى فأحسن خُلُقى** » رواه أحمد، وفى رياض الصالحين ٣٩٣٢ .

وهنا ـ مع التسليم سلفًا بحسن نوايا المتسببين لهذه الجمعية ـ لابد لنا من رجع

قيـاس مع الفارق :

والغرب معذور حين يعزل الدين عن الحياة . . وعن العقل . . فلذلك أسبابه فى سوء رجال الدين فى العصور الوسطى .

لكنّ الله تعالى لم ينـزل دينًا كما تصوروا . . وإنما الدين حقيقة علـمية يشهدها العقل على صفحات الكون = الواحد نصف الاثنين !

فإذا كان العـلمانيون يفهـمون أن العلم حصيـلة النظر فى الكون . . غيـر متأثر بخرافات أو أوهام ، فتلك الحصيلة ذاتها دين ، أى إنها علم . . ودين معًا .

عناصر الخلق :

١ ـ **الرحمة** : وتحمى المؤمن من العجلة والطيش . . وبنفس القوة تزوده بالحلم أو التحلّم . . على الأقل .

٢ ـ **العـفة** : وتزود المؤمن بسليقة الحياء . . المانع مـن مباشرة القبيح من الأقوال والأفعال .

٣ ـ **الشجـاعة** : تحمله على العزة ، والحريـة . . وامتلاك زمام النفس . . وعلى العطاء والبذل ، وبكل هذا تكون له أجنحة . . . يطير بها وراء معالى الأمور .

٤ ـ **الـعـدل** : وبه ينصف الناس منه . . فـلايكون ظلم . . ولاغضب . . وإنما الأمن الذى هو حاجة الإنسان الأولى .

معنى الخلق :

للعلماء فى تحديد معنى الخلق مذاهب :

ـ مذهب اللذة .

ـ مذهب المنفعة .

ـ ومذهب الفرد .

ـ أو مذهب المجموع .

ولكن منـشأ الأخلاق فى الإسلام : أنـها هبة من اللـه بدليل : « **لا يـهـــدى**

لأحسنهاْ إلا أنت » .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس: ٥٨].

مجالات الخلق :

الخُلق : سجية الإنسان وطبعه ، وهو : هيئة راسخة فى النفس تصدر عنها الأفعال بيسر . . وبلا تكلف أو تفكر وروية .

وهو مطلق . . غير ملون . . أتعامل به فى كل مجال من مجالات الحياة :

مع الله : منشرح الصدر لما أمر به .

ومع الناس : يحسن إلى من أساء إليه .

فإذا مرض . . . ولم يُزر .

وإذا سلَّم . . . فلم يُرد عليه السلام .

أو شفع . . . فلم يُجَبْ .

أو أحْسَنَ . . . فلم يُشكر .

قابل ذلك النكران . . . بالإحسان .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣) وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٣ ـ ٣٥] .

رمضان والأخلاق :

غاية الصيام هى : الأخلاق وذلك بعض ما يُفهم من قوله عز وجل : ﴿ ...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ .

والتقوى : بذل ، وعفو ، وإحسان ، وندم .

وذلك قوله عز وجل فى وصف المتقين : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ

وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٤، ١٣٥] .

وفى ضوء الآية الكريمة نذكر قول الشاعر :

وإنَّ كثيرًا أن تبيت ببطـــنة

وحولك أكباد تحن إلى القدِّ

وقد قالوا فى حسن الخلق : (الكرم . والبذل . والاحتمال) .

(ألا تغضب . . ولا تحقد) .

حسن الخلق : كظـم الغيظ . وإظهار البشر إلا لـلمبتدع والفاجـر . والعفو عن الزَّالِّين . . إلا تأديبـا . أو إقامة لحد . وكـف الأذى عن كل مسلم ومـعاهد . . إلا تغييرًا لمنكر أو أخذًا بمظلمة لمظلوم من غير تعد .

الأخلاق فى مجال التطبيق :

ولم تكن هذه الأخلاق مـجرد توجيهات . . أو حبرًا على ورق ، ولـكنها كانت حقائق عملية : رآها الناس بأعينهم فدخلوا فى دين الله أفواجًا .

(لما تم الصلح بين أميـر جيوش المسلمين فى فتح الشام وبـين الروم . جاء أمير الروم بطعـام فاخر . وقـال له : هذا طعام الأميـر . . فقال له الـقائد المنتـصر « أبو عبيدة» : وأطعمتم الجند مثل هذا الطعام !!

فقال : لم يتيسر مثله للجند .

فرد أبو عبيـدة قائلاً : لاحاجة لنا فيمـا يقتصر علينا وحـدنا من ألوان الطعام ؟ وبئس المـرء أبو عبـيدة إن صـحب جندًا مـن بلادهم ، أهرقـوا دماءهـم دونه أو لم يهرقوا، فاستأثر عليهم بشىء يصيبه .

لا والله : لا نأكل إلا مما يأكلون) !!

وفى التابعين :

ولقد استمـرت هذه الروح سارية المفعول فى الأجيال الآتيـة : فهذا هو « الحسن البصرى » سيد التابعين وقد سئل جماعة من البصرة : من أميركم ؟

قالوا : الحسن !!

فلما سئلوا عن السبب قالوا : استغنى عن دنيا الناس . . واحتاج الناس إلى علمه !!

وفى باب العفو أيضًا كان إمامًا : فقد كان يحدث يومًا بحديث . فقال له رجل: عمن . . . أصلحك الله ؟

فقال له : وما تصنع « بعمن » ؟ أما أنت : فقد نالتك موعظة . وقامت عليك حجته .

بل حدث يومًا أن سأله واحد من تلاميذه : أمؤمن أنت ؟

فكان جوابه : إن كنت تريد قول الله عز وجل : ﴿ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] ، فنعم : به نتناكح . ونتوارث . ونحقن الدماء . وإن كنت تريد قول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال : ٢] فنسأل الله أن نكون منهم .

كان الرجل فى البعيد من عمره . . وعلى فراش الموت . . وهو يحتضر . . ماذا كانت أمنيته ؟ قال معبرًا عنها :

(لو أتيح لى أن أعيش حياتى مرة أخرى : لقرأت الشعر . . واستمعت إلى الموسيقى مرة كل أسبوع فعسى أن يبقى الشعر والموسيقى الحياة نابضة فى تلك الأجزاء الهامدة من مخِّى الآن . لقد انكشف لى أنَّ ضياع هذه المتعة هو ضياع للسعادة .

ولكن ما هو الشىء الذى يتمناه المؤمن لو استقبل من أمره ما استدبر ؟ هو ما يقوله عمر رضى الله عنه : لئن بقيت . . لآخذن فضل مال الأغنياء . . ولأقسمنه فى فقراء المهاجرين) [مصنف ابن أبى شيبة ، كتاب الجهاد (٣٢٣٢٦)].

وهو ما سجله مؤمن وهو يحتضر :(اللهم ارحمنى وأنا على فراش تقلبنى أيدى أحبابى ، اللهم ارحمنى فى مغتسلى ، يغسلنى أحد أقربائى ، اللهم ارحمنى محمولاً على الأعناق والناس من حولى ، اللهم ارحمنى فى القبر المظلم فريدًا وحيدًا لا أنيس لى إلا رحمتك) .

كان « فتىً » : فتًى : ليس هو تلك الحمامة الوديعة : فى رقتها وجمالها ، ودلالها . . . ولكنه كان : ذلك الأسد الهصور : بل الذى يطاول الأسود شجاعة .

قيمة النظافة :

روى ابن ماجه : « **تسوَّكوا ، فإن السواك مطهرة للفم . مرضاة للرب** » .

وقال ﷺ : « **ما جاء جبريل إلا وأوصانى بالسواك ... حتى خشيت أن يفرض علىَّ وعلى أمتى .. ولولا أنى أخاف أن أشق على أمتى لفرضته عليهم وإنى لأستاك حتى أخفى مقادم فمى** » .

إنها الوقاية . . . قبل العلاج والتى تنده بقيمة النظافة والجمال معًا .

عندما لا يكون المسؤول أهلاً للسؤال ؟

قال التلميذ لأستاذه : هل يمينى غموس ؟ فما كان من الشيخ إلا أن شنّ الغارة الشعواء على شهادة الزور ذاكرًا نصوصها . . وأحوالها .

وهذا كله يعرفه السائل . . . ولكنه يسأل عن شىء آخر . . لم يفطن له المفتى المتعجل . . . إنَّ الفتى هنا يسأل : هل ما فعله داخل فى الزور أم لا ؟ وبدل أن يجيبه الشيخ . . . فضَّل أن يلعن شاهد الزور ؟

يقول تعالى : ﴿ **سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ ...** ﴾ .

قال السفهاء : إن كانت القبلة الأولى حقًّا . . فقد تركتم الحق ، وإن كانت باطلاً . . . فقد كنتم على باطل ، وقالوا : لو كان نبيًّا ماترك قبلة الأنبياء قبله ، ولايفعل اليوم شيئًا . وغداً خلافه ، وقال المشركون رجع إلى قبلتكم . . . فيوشك أن يرجع إلى دينكم ، وقال أهل الكتاب : لو كان نبيًّا ما ترك قبلة الأنبياء .

والجواب : مقدمات توضحه وتقرره ومن هذه المقدمات :

١ ـ ذكر النسخ ودلالة ذلك .

٢ ـ ذكر البيت بالتعظيم لبانى البيت .

فاستعدت القلوب بعد هذه المقدمات لاستقباله . . . ولكن فى انتظار الأمر . . . فلما صدر الأمر فرحوا ونفَّذوا ، وقد نُقلتم مما يرضاه وأمر به إلى ما رضيه وأمر به

فلا بأس .

ينضح ثوب الرضيع الذكر إذا تبول فيه ، أما إذا كان أنثى فيغسل ، هكذا يقرر علماء الفقه ، فما هو رأى الطب ؟

كان حسن البنا سهلا روحانيًّا ، أما الهضيبى فكان قاضيًا صارمًا ، كانت زوجته قبل حضوره إلى البيت . تلبس أولاده أجمل حللهم ، ثم تصفهم خلف الباب ، ثم إذا أتى يقبلهم واحدًا واحدًا .

يقال : (وبدءة ذى بدء) ، (ذيع وانتشار) .

القراءات الشاذة ليست من القرآن . وبالتالى . . . لايتعبد بتلاوتها . ولكنها تذكر فى الاستشهاد للغة والنحو ولا ذكر للعامة .

يقول الله عز وجل فى سورة الحجر : ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ** ﴾ [الحجر:٦] إنهم يكذبون على أنفسهم ، فهو صاحبهم الملازم لهم فى الليل وفى النهار ، يرونه ﷺ وهو يتقلب بينهم فى حياته العادية ومع ذلك . . فهم يتهمونه بالجنون . . بل يؤكدون هذه التهمة النكراء كما يفيد حرف « اللام » فى ﴿ **لَمَجْنُونٌ** ﴾ !!

وإذن . . . فَلِمَ يتهمونه بالجنون ؟

والجواب : لأنه دمر حياتهم بدين كان ثورة على أوضاعهم العفنة والسبب هو مذكور فى الآية الكريمة وهو : (الذكر) .

ويعنى ذلك : أنهم لا يتهمونه ﷺ بالجنون . . . وإنما هم فى الحقيقة يتهمون القرآن العظيم . . . لماذا ؟

لأنَّ التهمة صدرت عنهم لما جاءهم به ، وإذن فلاحاجة لتبرئته من هذه التهمة الساقطة . . ولكن الرد هو : أنَّ القرآن العظيم شيء فوق هذا ، إنه ذكر : ليس لفئة معينة . . ولا لعصر من العصور . . . ولكنه ذكر للخلق جميعًا . . . منذ نزل . . وإلى يوم الدين .

من وسائل الدعوة :

يقول الشاعر العربى :

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل إدراك العلا قبلا

ويعنى ذلك : أن كل إنسان يستهدف بحركته غرضًا ولكنّ الداعية يجعل هدفه معالى الأمور ، كل من فى الوجود يطلب صيدًا ـ غير أنّ الشباك مختلفات ، كل له أسلوبه الذى يتخذه وسيلة لتحقيق هدفه .

ومن وسائل الداعية : الأسلوب الواضح ؛ لأنه للأمة كلها ، ذلك بأنّ سلاحه هو القرآن ؛ ولأن القرآن للناس كافة . . . فكان أسلوبه مفهومًا للجميع . . ومن آثار ذلك : أنّ سيد الأمة لا يخاطب بأسلوب العامة ، وإذا كان ولابد من تدقيق وتنميق فإنّ ذلك فى خطاب الفلاسفة لاغير .

وهكذا كان القرآن الكريم . . . والذى كان من مظاهر كرمه : أنه خاطب كل طائفة بما يناسبها ، فقال عز وجل :

﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾ خطابًا للمفكرين والفلاسفة .

﴿ **لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ وتلك هى الموعظة المتجهة إلى القلب .

﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ وذلك هو العمل .

ومن وسائل الدعوة :

١ ـ البدء بالأظهر .

٢ ـ سنة التدرج : ﴿ **وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ** ... ﴾ .

وذلك لإزالة الصدأ الذي تراكم فوق المشاعر . . .

٣ ـ الانطلاق من نقطة اتفاق : وهو أسلوب الحكيم ، ومثاله : ﴿ **وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ** ... ﴾ .

٤ ـ التذكير بالنعم وبالنقم . . ولاحظ : أنه من معانى الوعظ : التذكير بشىء معلوم ، والداعية به لا يعلّم جاهلاً . ولكنه فقط يذكّر ناسيًا ، وذلك قوله عز وجل :

﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

النبى ﷺ يقول : « **تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا** » وقد تقدم لك أنّ الروايات ثلاث فى ضبط عودًا عودًا وأنّ رواية ضم العين مع الدال المهملة ترجح أو تعين تفسير الحصير بالمنسوج المعروف ، وأنّ معنى عرض الفتن على القلوب توجيه الدعوة من شياطين الإنس القائمين بها والحاملين لواءها إلى المسلمين ليخوضوا فيما خاض فيه هؤلاء الشياطين ولينضموا تحت رايتهم ويكونوا لهم جنودًا طائعين . وأعوانًا ناصرين وأنّ مثل المدعوين إلى الفتن وهى تعرض عليهم فتنة بعد فتنة ويدعون إلى ضلال يعقبه ضلال . ويوحى إليهم بإثم يتبع إثمًا قبله مثلهم كنسج الحصير إذ تعرض عليه أعواده متكررة متعاقبة مرة بعد مرة وعودًا بعد عود ولاشك أنّ الحصير إذا أحكم نسجه يكون غطاء منيعًا وسترًا حصينًا للمكان الذى يفرش فيه .

وكذلك الفتن إذا تعاقبت متماسكة . وتلاحقت متداركة . فإنها تكون نسيجًا من الظلمات يرين على قلوب من يقبلها ويغطيها فيطبع الله عليها بطابع الضلال . ويلقى عليها أقفالها ويختم عليها بخاتم الحيرة والعمه فلا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرًا . هذا على رواية « عودًا عودًا » بضم العين والدال المهملة ، وأما رواية « عودًا عودًا » بفتح العين والدال المهملة فقد علمت إعراب عودًا فيها ومعناهما . ويحتمل أن يراد بالحصير على هذا الوجه المنسوج المعروف أيضًا ويكون معنى التشبيه حينئذ أن تلك الفتن تعرض على القلوب متوالية متعاقبة متداركة ، آخذًا بعضها بتلابيب بعض ، وممسكًا سابقها بحجز لاحقها كما يتكرر على ناسج الحصير أعواده وتتلاحق أفراد تلك الأعواد كرة بعد كرة وعودًا بعد عود كما يحتمل أن يراد بالحصير على هذه الرواية الوصف بمعنى الحاصر كالسجن مثلاً ويكون معنى التشبيه على هذا المعنى أن تلك الفتن لا تزال تتواتر وتتكرر الفينة بعد الفينة والحقبة بعد الحقبة حتى تكون حاصرة للقلوب ومحيطة بها إحاطة السجن بمن فيه وهى لعمر الحق إحاطة تأخذ السبيل على المحاط وتقيده تقييدًا منيعًا وتمنعه الحرية ، وتسلبه قيمة الحياة .

مراتب الانحراف :

يبدأ المنحرف رحلة حياته بالإعجاب بما يسمع . . . ثم يكون التنفيذ فى نهاية

المطاف عبر هذه المراحل التى ترسمها الآية الكريمة من سورة الأنعام : ﴿ وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴾ [الأنعام:١١٣] .

فشياطين الإنس والجن يتواصلون بالإثم والعدوان يعكرون به الجو ، يوحى بعضهم إلى بعض القول المعسول المصحوب بالصور الخادعة والأمانى الكاذبة . . فيما يشبه أن يكون « إعلامًا ماديًا » يصبّ في أدمغة ناس فارغين من الإيمان بيوم الحساب ثم يتم لهم ما أرادوا . . . ولكن فى قلوب لاتؤمن بالآخرة . . . فلا رادع لها ولا وازع .

أنواع القول :

الخطبة : انفعال وإثارة بالضرب على الوتر الحساس كما قال نابليون : تقدموا أيها الجنود .

المحاضرة : معالجة مشكلة بهدوء . . بلا انفعال .

الكتابة = الرسائل

الكتابة قيد .والمعانى صيد ـ كتاب الوحى:علىّ وعثمان وأبىّ . وزيد بن ثابت .

المثل ، الجدال ، وسائل الإعلام ، القصة ، وآخر الدواء : الجهاد باللسان والسنان .

الفرق بين القصة والمسرحية :

القصة	المسرحية
١ـ أبطالها غير مستقلين يصرفهم المؤلف.	١ ـ يختفى المؤلف بعد أن يجرى على ألسنة الممثلين .
٢ـ مطلق الحرية .	٢ ـ المرح : قيود .
٣ـ لا تتحمل .	٣ ـ تتحمل آراء متعارضة .
أهداف القصة	
أحيانًا يكون ترك الذكر:أفضل من الذكر.	
أحياناً يكون الصمت:أفضل من الكلام .	
أنطق : إذا لم تنطق .	

بالآيات الكونية : كان الصحابة يسمعونهـا فقط . ونحن بعد تقدم العلم نسمعها مثلهم . ولكن نراها فى المعامل ، فنحن مسؤولون بالدعوة بالعلم ، آيات الجنة اليوم مسموعة ، وغداً مرئية .

الإصلاح :

﴿ وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ﴾ .

ـ إصلاح فى الأسرة : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَمًا ... ﴾ .

ـ الإصلاح على مستوى الأمة : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ ﴾ .

ـ رفاق السلاح : أول الأفعال : فاتقوا .

الإصلاح بين فردين لأنك ـ دونهما ـ هادئ الأعصاب .

من صور التكافل الاجتماعى :

يقول الله عـز وجـل : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد: ١١] ، ويقول سبحانه : ﴿ إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [التغابن : ١٧] .

ويقول تـعالى : ﴿ ... لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ١٢] .

أهمية القرض :

١ ـ متصل بغريزة قوية .

٢ ـ قدر له قيمة .

٣ ـ مظنة ألا يعدد .

٤ ـ ليس له جزاء مرئى .

٥ ـ حيرة الدائن بين عقله ، يعطى ؟ مروءة عليه ؟ أم يمسك .

التحـريض على القـرض « الحسن » وتحـريض الفقـير من آثار القـرض بالآيات السابقة ـ والأحاديث (هم بالليل) ، « **لا تخيفوا أنفسكم بعد أمنها** » بالدَّين !!

أ ـ من كثر دينه وأفلس . . تحذير للمدين تاجر أصيب فى سلعة . . فأفلس .

ب ـ من كان يداين الناس . . . تحريض للدائن .

الحسن مسؤولية من :

الدائن : إخلاص ـ طيبـة به نفسه ، يتابع : ـ إنظار أو وضع عـدم الاستغلال ، لاداعى للإلحاح فى الطلب لو أحيل غنى . . . قيل (آثر مرادى) .

المدين : نية الرد ـ الوفاء فى الموعد (آثر حكمى على مراده) .

تأمل الآية : ﴿ **مَن ذَا** ﴾ . . . و ﴿ **إِن تُقْرِضُوا** ﴾ .

السعادة : هى جلب السرور (يضاعفه) ومنع الشرور (ويقضي) .

فضل العالم :

العلم : تركـة الأنبياء . وتراثهم . وأهله : عـصبتهم ووتداتهـم ، وهو : حياة القلب . ونور الـبصائر . وشفـاء الصدور ورياض العـقول ، ولذة الأرواح . وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين .

ميزان الأقوال والأفعال والأحوال .

حاكم : يفـرِّق بين الشك واليقين . والغىّ والرشـاد به يعرف الله ويعـبد ويذكر ويوحـد ، وهـو : الصـاحب فـى الغـربـة والمحدِّث فـى الخلـوة . والأنيـس فى الوحـشة . . . والكاشف عـن الشبـهة ، والغنـى : لافقر علـى من ظفر بـكنزه ، والكنف الذى نأوى إلى حِرزه .

مذاكرته تسبيح ، والبحث عنه . جهـاد . وطلبه قربة وبذله صدقة ، ومدارسته تعدل الصيام والقـيام ، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الشـراب والطعام ، وطلبه أفضل من صلاة النافلة .

وأهل العلم شهداء فى أخطر قضية ، شهد الله أنه . . . والملائكة وأولو العلم ،

العلم والمـال ، وحال المريد السالـك . العلـم خيـر من المال ، المال محكوم عـليه . والعلم حاكم .

العلم هادٍ ، المال تابع .

المال سيف : فإن لم يصحبه علم فهو كالمنديل ، يلفُّ ليضرب به .

المال : مركوب ، بلا علم مصاحب هو ملقٍ بصاحبه فى المهالك .

دائرة العلم : تسع الدنيا والآخرة .

ودائرة المال : ربما تضيق عن صاحبه .

العلم : هادٍ ، والمال : مهتدٍ به .

حجـة الله فى أرضـه . ونوره بين عبـاده . . وقائدهم ودلـيلهم إلى جنـته . . ومدنيهم من كرامته .

فضل أهله على الـعبَّاد . كفضل القمـر ليلة البدر على سائر الكواكـب وكفضله ﷺ على أدنى الصحابة منزلة .

الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم .

والعالم : يسـتغفر له حتى الحيـتان . والنملة فى جحرها ، وأن اللـه وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير .

ثم أمره ﷺ : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

« . . . إن قومًا طلبوا العبادة وتركوا العلم حتى خرجوا بأسيافهم على أمة محمد ولو طلبوا العلم لم يدلَّهم على ما فعلوا » جامع بيان العلم لابن عبد البر ١ / ١٣٦ .

قال ابن وهب : كنت بين يدى مالك ـ فوضعت ألواحى . وقمت أصلى فقال : ما الذى قمت إليه بأفضل مما قمت عنه ـ يعنى قام لصلاة النافلة ـ مدارج السالكين .

العلم قائد . والخوف سائق . والنفس حرون .

(أفضل العبادة الفقه . . .) الطبرانى .

فضل العلم خير من فضل العبادة (الطبرانى والبزار) .

عن ابن عباس رضى الله عنه : (فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد) الترمذى وابن ماجه والبيهقى .

قال أبو هريرة : « لأنْ أجلس ساعة فأفقه أحب إلىّ من أن أحيىَ ليلة القدر) الدارقطنى والبيهقى وفى رواية : « من ليلة إلى الصباح » .

وجدنا قومًا يصلون . ويقرؤون القرآن . . . وقومًا يتذاكرون الحلال والحرام ، ويحكم فذاك ميراث محمد ـ الطبرانى .

بر الوالدين :

لأن الابن مقبل بغريزته على المستقبل . . . أمر بالبر (بل واقع تحت ضغط أكثر من غريزة . بقاء النوع والجنس) .

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾ ، و ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ ﴾ ، الأم . . . ففيهما فجاهد ، وقصة الغار والصخرة.

الصدقة :

الإسلام يأمر بالصدقة ـ وينهى الفقير عن السؤال . . . شعور الصديق .

المهم : صدقة السر حفاظًا على المشاعر :

أ ـ سبعة يظلهم . . . قبل أن يسأل حتى لا تأخذ من عليه وتملأ جيبه وسيدنا علىّ كذلك .

ب ـ ومن يتصدق من الفقراء يوم العيد . . الأهم : الأقارب ، وأن تعطرّ الصدقة .

الغيبة والنميمة :

لا يدخل الجنة قتات . . . هم شرار العباد : المشاؤون ، طوبى لمن شغله . . مرّ بقبرين يعذبان . كلنا نعتًا ولكن : خطورة النميمة !!

الهم فى طلب الرزق :

أفضل ما تنفق : ما كان على أهلك .

قيمة العمل ، مجرد الهم . . . فضلاً عن الحركة .

﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ .

من كان يدعو بعد صلاة الجمعة : « وعلىّ جمع الحطب » .

إعفاف الزوجة . وصيانة الذرية من الانحراف وتحرير الإرادة من استعباد الغير وإلا فإهمال الوالد استغلال للطفولة فيما يضرها .

الرسول ﷺ وعلىّ رضى الله عنه وفاطمة . والخادم ، وتقبيله يده : هذه يد يحبها الله ، وأسماء بنت أبى بكر تدق النوى . وتعلف الفرس .

خصائص الدعوة الإسلامية :

هدفها : المواطن الصالح . المصلح عن طريق : الربانية ، والعموم ، والشمول، والخاتمة .

أما غيرها فمحكى : كل نبىّ مرسل إلى قومه .

الربانية

مصدرها :

أ ـ القرآن الكريم .

ب ـ السنة المطهرة .

وإذن :

١ ـ من الناحية القلبية : نحبها إلى درجة التقديس .

٢ ـ ومن الناحية العقلية : تثق بها .

٣ ـ ومن الناحية النفسية : تحرير للإنسان من عبودية غيره .

٤ ـ ومن الناحية التشريعية : معصوم من التناقض والاختلاف .

٥ ـ من الناحية الخلقية : مطلقة ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ... ﴾ .

بدليل تشريع تحريم الخمر والربا ، والمنهج هنا : التدرج فى النهى عن العادة .. لماذا ؟ أما العقيدة فلا مساومة فيها ؟

العموم :

آية الأعراف : ١٥٨ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

آية البقرة : ٢١ ، ٢٢ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ .

١ ـ الذى خلقكم : دليل الخلق .

٢ ـ الذى جعل لكم : دليل العناية .

وكتبه ﷺ للملوك وهو رد عن من قال : إنها للعرب خاصة .

الشمول :

تخاطب فى الفرد كل أقطاره ، وجاءت بما يصلح كل جوانب الحياة : سياسية واقتصادية ، وإذن . . . فهى رد عن من يريد حصرها فى المسجد فقط .

الخاتمة : فهى كاملة . . لا تحتاج إلى زيادة ، تامة غير قابلة للنقص ، وإذن فلسنا فى حاجة إلى الاستجداء من غيرنا .

الكتابة والكتَّاب : العلم : صيد . والكتابة قيد : وإذا ضاع القيد . . ذهب الصيد !

جاء فى جمهرة أنساب العرب لابن حزم (٨٣) : أنَّ « خالد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان » هو الذى أمر به « يزيد بن عبد الملك » أن يحمل إلى الكتَّاب . حتى يتعلم القرآن مع الصبيان فمات كمداً .

وذلك يعنى : الحرص على تعليم من فاته التعليم . وفى حرص « الولاة » على تعميم التعليم .

تنظيم خدمة العلماء : جاء فى كتاب « الحيوان » للجاحظ ج ٧ / ٢٦٢ : « كان أهل المربد يقولون : لا نرى الإنصاف إلا فى حانوت فرج الحجَّام : لأنه كان لا يلتفت إلى من أعطاه الكثير . دون من أعطاه القليل : ويقدم الأول . ثم الثانى . ثم الثالث أبداً حتى يأتى على آخرهم ، وعلى ذلك يأتيه من يأتيه ، فكان المؤخَّر

لايغضب ولا يشكو .

وفاة الإمام أحمد بن حنبل فى بغداد سنة ٢٤١ ، وكانت مثار حزن وأسى فى ربوع بغداد . . . ووقع المأتم والنّوح فى أربعة أصناف من الناس : المسلمين . واليهود والنصارى . والمجوس .

كما يقول البغدادى فى تاريخ بغداد ٤ / ٤٢٢ ويروى بسنده : أنه حضر جنازة أحمد بن حنبل مع من حضر قال : فكانت الصفوف فى الميدان إلى قنطرة « ربع القطيعة » وحَزَر من حضرها من الرجال : ثمانمائة ألف ، ومن النساء : ستين ألف امرأة . . . الكنّاسة / ١٦ .

بم يكون الاعتبار ؟ وهو : العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله ، فإذا رأى المدعو من أصابته محنة لسبب ما . . . علم أنّ من ارتكب السبب كان كحكمه .

١ ـ حياة العقل صحة الإدراك ، وقوة الفهم .

وهو نور متفاوت عند الناس . وعلى قدره يبصرون ـ كنور العين .

٢ ـ معرفة الأيام : وأنها أنفاس معدودة تمر وكل يوم شاهد عليك أو ﴿ **وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ** ﴾. بنعمه ونقمه . كالسلامة من الأغراض ، ولايتم ذلك إلا بمقاومة الهوى والغرض ، فالهوى يطمس نور العقل ، فيفسد رأيه ، فيرى حسنًا ما ليس بالحسن . فالتبس عليه الحق بالباطل فكيف ينتفع ؟

الداعية المحبوب :

١ ـ دليله قوى .

٢ ـ رجل ثقة ، فهما مؤثران . . . لا مؤثر واحد .

متى تنفع الموعظة ؟ عن مدارج السالكين ج١ / ٤٧٩ وما بعدها

بعد حصول ثلاثة أشياء :

١ ـ الحاجة إليها .

٢ ـ العمى عن عيب الواعظ .

٣ ـ تذكر الوعد والوعيد .

وإنما تكون حاجته إذا : ضعف تذكره . . . وإن اشتدت حاجته إلى معرفة المدعو إليه .

ميلاد المسيح :

جاء فى كنَّاشة النـوادر / ١٤ : (وقد تظن أنَّ الاحتفال بعيد ميـلاد المسيح بدعة حـديثـة ، وفى الحق أنـه بدعـة قديمـة جدًا) فـفى كـتاب : « الـتحـف والهـدايا للخالديّين/ ٩٧ » :

وليلة عيد ميلاد عيسى السـيد
قـد طالبتنـى بميثاقهـا
فهذى قدورى على نـارها
وفاكهتى مـلءُ أطباقها
وبنت الدِّنان فقـد أُبْـرزت
من الخذر تُجلى لعشاقـها
فكن مُهديا لى فدتك النفـوس
فجودك ممـا أرماقـها
نظائر صغراً غـدت فتنـةً
بلطف أنامل حُـذَّاقها
ومثل الأفاعى إذا ألهـبـت
وللروم زرقة أحداقهـا
ولـم أر من قبلها أنفـسًا
تذيب الجسوم بإحراقهـا
وإن مرضتْ لم يكن برؤهـا
بشىء سوى ضرب أعناقهـا

الغافل :

شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب (العظه) ليتذكر ما نسيه ، والمعارض المتكبر : إلى الجدال .

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ :

١ ـ لم يصف الحكمة بالحسن ـ لأنها حسنة كلها ،وحسنها ذاتى بخلاف الموعظة.

والجدل أيضًا .

٢ ـ وفى الجدال : معنى الأحسن يلاحظ حال الطرف الآخر :

أ ـ غليظ . . . أو رقيق . . . فنجادل كلا بما يليق به .

ب ـ باختيار الألفاظ ، الأدل على المقصود .

٣ ـ العمى عن عيب الواعظ ، الناس يسمعون من يكون قدوة . . . لا أن يكون مدخنًا وينهى عن التدخين .

قال شعيب عليه السلام : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ ... ﴾ [هود : ٨٨] .

٣ ـ تذكر الوعد والوعيد بسائق الرجاء والخوف بهما يلتزم المدعو :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ﴾ [هود : ١٠٣] .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٠] .

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ [النازعات : ٤٥] .

﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ [ق : ٤٥] .

دعوى ... وردها :

قال : تنهون عن موالاتنا !! قلت : وعن موالاة آبائنا وأعزائنا ماداموا على غير ديننا ؟

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ

وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) ﴾ [التوبة: ٢٣، ٢٤] .

دعوى ... وبطلانها :

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ : دعوى .

قل :

١ ـ أتخذتم عند الله عهداً : رو هذا منتف قطعًا لأنه لايثبت إلا بالوحى ... ولا وحى .

٢ ـ فتعين أن يكون خبراً كاذبًا قائله كاذب عليه تعالى (بلا علم ...) . ويطالبهم بتصحيح دعواهم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ٨٤ ، ٨٥] .

أخذت عليكم عهودًا ثلاثة :

١ ـ لا يقتل بعضكم أخاه .

٢ ـ ولا يخرجه من داره .

٣ ـ وأن يُفدى الأسير .

ولكنهم خالفوا عهدين ، وأخذوا بالثالث ، والمعنى إن كنتم تفدون ـ فاديتم ـ الأسارى ؛ لأن الله أمركم بفدائهم فلم فعلتم ١ ، ٢ .

إن الأخذ ببعض يوجب الأخذ بالكل ، فكيف تكفرون ببعض .. فجزاؤكم .

﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ .

هذا ما يسمى : التشهِّر والتحكم .

ولو كان الشرع تابعًا للشهوة والهوى لكان :

أ ـ فى الطباع ما يغنى عنه .

ب ـ وكانت شهوة كل أحد وهواه شرعًا له : والنتيجة : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ .

يقول عز وجل : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ ... ﴾ [البقرة : ٨٩] .

والجواب : استفتاحكم : إقرار بنبوته ... فيتعين عليكم الإقرار بها بعد ظهوره .

أى : آمنتم به لما كانت المعرفة غيبًا فاستفتحتم .

فلما صارت يقينًا : كفرتم به (بعد الرؤية) .

أي : آمنتم به ، على تقدير وجوده .

وكفرتم : لما تحقق هذا الوجود .

ويمكن : استفتاحكم به ، عن دليل ؟ نعم .. عن دليل .

فآمنوا بكل شيء يؤيده ذلك الدليل .. ولايكفى الإيمان فى موضع وترك آخر . إلا أن التطابق دليل صدق الآن لأنهما لم يلتقيا ﴿ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ ﴾ .

﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ .

قل فَلِمَ ... ؟ لأن التعذيب بالذنب ثمرة الغضب . النافى للمحبة فلو كان حب .. لما كان ذنب .

والأب لايعذب ابنه ، ولا الحبيب يهجر حبيبه .

يقول الله عز وجل: ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾ [البقرة: ١١١] .

سؤال المطالبة : دليل إلزامى ، ﴿ قُلْ هَاتُوا ﴾ :

يايهود . . هاتوا دليلاً على دعواكم : لن يدخلها إلا من كان هوداً .

ويانصارى : هاتوا دليلاً على دعواكم : لن يدخلها إلا من كان نصرانيًّا .

المنع والمعارضة :

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة : ١٣٥] .

المنع : هو « بل » إضراب : ليس الأمر كما قالوا .

المعارضة : وهى مَنْ ملته الحنيفية والتوحيد . . فهى أولى بأن يُتبع ممن ملته اليهودية أو النصرانية . لأن التوحيد : دين كل الأنبياء ، فطرة الله التى . . . فالحنيفية : هى الإقبال عليه وحده بذلة وخشوع . والتوحيد : إفراده بذلك .

قياس الخلف :

إثبات المطلوب . . . بإثبات نقيضه ، مثل قوله عز وجل :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ من وَلَدٍ . . . ﴾ .

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيراً ﴾ .

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ .

﴿ لَوْ كَانَ معه آلِهَةٌ ﴾ .

أسوة فى الجواب :

سئل ﷺ عن : البعير يصاب بالجرب . . فتجرب لأجله الإبل ؟ فقال : « من أعدى الأول » ؟ وبهذه الجملة المركزة أبطل الدور والتسلسل .

والمعنى أنه : إن كان الجرب من إعداء غيره . . فإنه لا ينتهى إلى غاية . . وهذا هو التسلسل . . وهو باطل .

وإن انتهى إلى غاية . . . وقد استفاد الجرب من إعداء من جرب به . . . فهو الدور المستحيل أيضًا .

وهكذا . . . وبالإيجاز النبوى لسنا فى حاجة لإبطال التسلسل والدور إلى

مطولات الفيلسوف والمتكلم ؟

ومن ذلك أيضًا : قوله ﷺ فى قصة « ابن اللتبية » : « **أفلاجلس فى بيت أبيه وأمه . وقال هذا أهدى لى** » .

يفيد : أن الدوران يفيد العلّية . . فالهدية : لما دارت مع العمل وجودًا وعدمًا كان العمل سببها وعلتها ؛ لأنه لو جلس فى بيت أبيه وأمه لا نتفت الهدية ، وإنما : وجدت بالعمل فهو علها .

سئل ﷺ عن لقطة الغنم ، فقال : « **إنما هى لك ، أو لأخيك ، أو للذئب** » . فلما سئل عن لقطة الإبل . غضب ، وقال : « **مالك ولها ، معها حذاؤها وسقاؤها: ترد الماء ، وترعى الشجر** » .

وإذن فلا يخاف عليها من الهلاك فى البرية . مع احتياج الغنم لراع وحافظ . فهى - فى غيابه - عرضة للضياع والسباع بخلاف الإبل ، وهذه هى الفروق المؤثرة فى الأحكام لا الفروق المذهبية .

وقوله ﷺ فى اللحم الذى تُصدق به على « بَريرة » : « **هو عليها صدقة ، ولنا هدية** » فالذات الواحدة . لها حكمان مختلفان باختلاف الجهتين .

أسودين . . . فكذلك الولد الأسود : قد يتولد من أبوين أبيضين ، ويؤخذ مما سبق قواعد :

١ - اعتبار ما يجب اعتباره من الأوصاف .

٢ - وإلقاء بعضها كذلك .

٣ - حكم الشيء حكم نظيره .

فى مجلسه ﷺ : شمّت ﷺ أحد العاطسين . ولم يشمت الآخر ، فلما سئل قال: « **هذا حمد الله ، والآخر لم يحمده** » فافترق الحكم لافتراق العلة المؤثرة .

قوله ﷺ لوالد النعمان بن بشير لمّا خصّ ولده بالثمن : « **أتحب أن يكونوا فى البر سواء** » .

فيه بيان الوصف الداعى إلى شرع التسوية بين الأولاد وهو : العدل .

بمعنى : كما أنـك تحب استواءهم في برك . . فسوّ بينـهم فى العطية ، وإلاّ . . فإفرادك أحدهم بالهدية . . . كيف يجوز ؟!!

قولـه ﷺ لعمـر رضى الله عنـه لما سأله عـن « القُبلـة » للصائـم : أرأيت لو تمضمضت :

١ ـ إلغاء الأوصاف التى لا تأثير لها فى الأحكام .

٢ ـ تشبيه الشيء بنظيره وإلحاقه به .

فالممنـوع هو : الشرب . . . لامقدمـته . . . فكذلك : الممنـوع : الجماع . لا مقدمته .

سئل عن الحج عن الميت ، فقال : « **أرأيت لو كان عليه ديـن أكنت قاضيه ؟** » قال : نعم : قال : « **فدين الله أحق بالقضاء** » .

قياس الأول وهو : إذا كان دين المخلوق يقبل الوفاء مع بخله . . . فدين الموسع الكريم أحق بقبـول الوفاء ، بمعنى : إذا بكت الحكم فى محـل الأمر . ثم فى محل آخر أولى بهذا الحكم . . . فهو أولى بثبوته فيه .

علَّم الصحـابة أن يقولوا : السلام علينـا وعلى عباد الله الصـالحين ، ثم قال : «فإذا قلتم ذلك أصابت كـل عبد صالح لله فى السماء والأرض» فقـرر بهذا : عموم اسم الجمع المضاف .

سئل عن زكاة الحُمُر ، فقال : « **لم ينزل عليّ فيها إلا هذه الآية الجامعة : ﴿ فمن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾** [الزلزلة :٧] فسمّى الآية جامعة أى : عامة شاملة بعتبار اسم الشرط ، فدل على أنّ أدوات الشرط : العموم .

قوله ﷺ لمن استفتاه عن امرأته وقد ولدت غلامًا أسود . . . فأنكر ذلك . . قال له : « **ألك إبل** » ؟

ـ نعم .

« **فما لونها ؟** »

ـ سود .

ـ « **هل فيها من أورق** » .

ـ نعم .

ـ فأنى له ذلك ؟ !

ـ « **وهذا عسى أن يكون نزعه عرق** » .

تضمن إلغاء الوصف الذى لا تأثير به فى الحكم وهو : مجرد اللون . ومخالفة الولد للأبوين فيه ، وأن مثل هذا لايوجب ريبة ، ونظيره ـ الإبل ـ مشاهد بالحس ، والله تعالى خالق الإبل والبشر ، فكما أن الجمل الأورق قد يتولد من أبوين .

من صور الورع :

كان المسؤول يكلف سائق السيارة أن يذهب إلى مكتب البريد ليسجل له خطابًا ، وكانت الرحلة على قصرها مكلفة . . ولافتة للنظر فى نفس الوقت ، لافتة للنظر إلى ماضينا البعيد يوم أن كان المسلم حريصًا على دينه أن يسلم !!

ومن هؤلاء : عبد الله بن المبارك رحمه الله ، فقد استأجر حمارًا ذات يوم . . ليصل به إلى صديق له . . وقد علم جار له بسفره ، فرجاه أن يحمل معه « كتابًا » استعاره من صديق له . . وكانت المفاجأة أن اعتذر ابن المبارك عن حمل الكتاب حتى يستأذن صاحب الحمار !!

إنه الورع الذى يدرك صاحبه أن طعم الخيانة فى الأمر الصغير كطعمها فى الأمر الخطير ؟

ومن أجل ذلك كانوا حراصًا على رفض ما يتساهل الناس فيه اليوم ، الأمر الذى يحمل على أن نقول : إنَّ ضمائر بعض الناس اليوم مستترة وجوبًا !! وأنَّ مانعانيه من غلاء الأسعار من أجل هذه الجرأة على الخيانة !!

واقعية الإسلام

إذا كان الأصل أن نطيع الله عز وجل ، فإنَّ من رحمته تعالى أن شرع لنا من الدين ما ينسجم مع طبيعتنا ، أنه تعالى يعلم من خلق . . . ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ وهو عز وجل يعلم أنه خلقنا من طين ، وفى الطين كدورة ، وإذن لابد من التورط فى الخطأ ، الذى يجىء إفرازًا لهذا التراب ، إننا نغالب الشيطان ، فيغلبنا أحيانًا ، وهذا هو القاسم المشترك .

هذا قدر الكل ، وليس قدر الجُلّ . كل الناس فردًا . . . فردًا . . وليس إجمالاً ، وهذا من أسرار التعبير فى الحديث الشريف ، والذى قال : « **كل ابن آدم** » ولم يقل : « كل بنى آدم » ليكون الحكم عامًّا ، حتى على مستوى القمة : إذ يخطئ حتى المتقون لكنهم فى النهاية يعودون ، ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

وتلك هى واقعية الإسلام ، الذى يعاملنا كبشر ، لا كملائكة راجعًا بهذه المعاملة الواقعية إلى عامل الوراثة والبيئة . الذى أشار إليهما سبحانه بقوله : ﴿ **هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ** ﴾ [النجم : ٣٢] . وهكذا « **نسى آدم فنسيت ذريته ، وخطئ آدم فخطئت ذريته** » رواه الترمذى .

الواقعية المثالية : هناك من يؤذن فى النوّام ساعة السحر قائلاً : هبوا املؤوا كأس المنى ، قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر .

وهكذا يريدون الحياة سباقًا إلى مناعمها ، وقبل فوات الأوان ، يسرقون من الإنسان أثمن ساعات يومه ، وهى ساعات السحر !! متملقين عواطفه التى يحاولون دغدغتها قبل أن تفوت فرصتهم ثم لا تعود !

ولكنَّ واقعية الإسلام مثالية ، تحاول الصعود بالمسلم إلى أعلى ، لتربطه بالمثل الأعلى ، من حيث إنه ليس فقط قبضة من التراب ، ولكن فيه من أشواق الروح ما يحرضه على الارتفاع فوق هذا المستوى الأرضى ، بمعنى : أنه يهيب بالمسلم ألا

يستسلم لجاذبية هذا الواقع ، وعليه أنه يغالبه صاعدًا صاعدًا فى جو السماء !

وقد كان هنـاك على جانبى الطريق ، هداة إلـى هذا الصعود من خيـرة البشر ، حاولوا الارتفاع بالإنسان ، بلفت نظره إلى سير الخواطر فى نفسه ، ليتصدى لها قبل أن تتخـلق ثم يصعب الإقـلاع عنها ، ومن هؤلاء المربـين : ابن القيم رحمـه الله ، حيث قال : « المعاصى مبدؤها خاطرة . فإن لم تدفعها . . . صارت وسوسة .

فإن لم تدفعها . . . صارت فكرة .

فإن لم تدفعها . . . صارت إرادة .

فإن لم تدفعها . . . صارت عزمًا .

فإن لم تدفعها . . . صارت عملاً » .

وهكذا ، صار المربـون حداة على الطريق ، همتـهم معقودة بمرافقـة الإنسان في رحلة الكمال ، حتـى لا يسقط فى مرحلة من مراحل الطريـق ، وأنَّ معظم النار من مستصغر الشرر ، والإصرار على الصغيـرة يجعلها كبيرة ، ونحن مطالبون بوأدها فى مهدها ، قبل أن يـكون لها قرار فى نفوسنا ، وقبل أن يـكون الشرر ، نارًا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى .

من التحذير إلى المراقبة . . ويترتب على ذلك ، مراقبة النفس حتى لاتزل فتضل على ما يقول الحكماء :

راقب أفكارك فإنها تتحول إلى كلمات . . وراقـب كلماتك فإنها تصبح أفعالاً . وراقب أفعالك فـإنها تتحول إلى عـادات . . وراقب عاداتك فإنها تصـبح طباعًا . . وراقب طباعك فإنها ظلال مصيرك .

ضـعف الإنسـان : مسكين ابن آدم : لو خاف من النار كـما يخاف من الفقر ، لنجا منهما جميعًا ، ولو رغب فى الجنة كمـا يرغب فى الدنيا . . لفاز بهما جميعًا ، ولو خاف الله فى الباطن ، كما يخاف خلقه فى الظاهر ، لسعد فى الدارين جميعًا .

اللهم ألـهمنى علمًـا أفقه به أوامـرك ونواهيك ، وارزقنى فـهمًا أعلم بـه كيف أناجيك يا أرحم الراحمين .

القدوة الحسنة :

بالقدوة يتأكد ما يلى :

١ ـ أنه مقتنع بصحة ما يقول .

٢ ـ أن مبادئه قابلة للتطبيق .

أما من لم يطبق ما يقول :

يا أيها الـــرجـــل المعـــلم غـــيره

هلا لنفســـك كـــان ذا التعليـــم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى

كيما يصح به ، وأنت عليــــل ؟!!

قدوتنا الحسنة : الرسول ﷺ والصحابة ﴿ كَزَرْعٍ ﴾ [الفتح:٢٩] .

من مـواطن الأسـوة : حرصه ﷺ حتى يظن من رآه أنه قـاتـل نفسه . . لا . . ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ ... ﴾ [فاطر : ٨] لماذا ؟ الهداية لـيست لك : وإنما البلاغ . . وقد بـلغت ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ... ﴾ [القـصص : ٥٦] ، سبـب إسلام أندونسيا . . تاجر واحد ، كان قدوة.

التبليغ بالقول :

تبقى للكلمة أهميتها : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ... ﴾ تشرح الآية وكذلك بلغ الرسل جميعًا . . بالقول : إذ قال لقومه : (معنى قومه . ودلالتها) .

ضـوابط القـول : الوضوح ، بلســان قومه ليبين لهم ، ومن الـوضوح : خلوه من الكلمات الملتوية ، ومن التعقيد : (افرنقعوا . . . مالكم تكأكأتم علىّ) .

القائل :

التأنى فى الكلام ، عدم التكلف ، التواضع والـتودد للمدعو : سيدنا إبراهيم : ﴿ يَا أَبَتِ ﴾ .

مسلم بن الحجاج القشيرى
صاحب الصحيح ٢٠٤ - ٢٦١ هـ

وصفه الذهبى ،فقال:الإمام الكبير الحافظ المجود:الحجة الصادق حجة الإسلام .

ولد بنيسابور عام ٢٠٤ هـ ونشأ وتعلم بها وأخذ عن علمائها وشيوخها ، وكان أبوه من أهل العلم ، وكان ميسور الحال ، إذ كان يتاجر فى البن ، وقد بدأ فى طلب الحديث وهو فى سن الرابعة عشرة ، ولما بلغت سنه السادسة عشرة توجه إلى الحج ، فسمع بمكة عن القعنبى .

ورحل فى طلب الحديث إلى الحجاز والعراق والرىّ وخراسان ومصر ، وأخذ عن كبار علمائها ، فمن شيوخه بخراسان يحيى بن يحيى وإسحاق بن راهويه وبالرىّ محمد بن مهران وأبو غسان ، وبالعراق أحمد بن حنبل وعبد الله بن مسلمة ، وبالحجاز سعيد بن منصور وأبو مصعب ، وبمصر عمرو بن سواد وحرملة بن يحيى وآخرون ، وقد أحصى الذهبى له فى « سير أعلام النبلاء » مائتين وعشرين من شيوخه الذين روى عنهم فى الصحيح فقط ، وذكر أنَّ له شيوخًا آخرين لم يرو عنهم فى الصحيح ، وقد تردد مسلم على بغداد مرات كثيرة مثله فى ذلك مثل البخارى .

وكانت له تجارة وضياع ينفق منها ، وقد ساعده ذلك على التفرغ للحديث ، وقد أخذ عنه خلق كثير أيضًا .

وقد بلغ مسلم درجة من الإتقان أن جعل كبار المحدثين يثنون عليه ، حتى إنّ بعضهم كان يفضله على البخارى فى المعرفة بعلل الرجال .

قال أبو عمرو بن حمدان : سألت الحافظ ابن عقدة ، عن البخارى ومسلم : فأيهما أعلم ؟

فقال : كان محمد عالمًا ، ومسلم عالم ، فكررت عليه مرارًا ، فقال : ياأبا عمرو ، قد يقع لمحمد الغلط فى أهل الشام ، وذلك أنه أخذ كتبهم فنظر فيها فربما ذكر الواحد بكنيته ، ويذكره فى موضع آخر باسمه ، يتوهم أنهما اثنان ، وأما مسلم

فقلمـا يقع له من الغلط فـى العلل ؛ لأنه كتب المسـانيد ، ولم يكتب المـقاطيع ولا المراسيل [١] .

صلته بالبخارى :

وكان مسلم معظمًـا للبخارى ، وثيق الصلة به ، مقدمًا له ، منـافحًا عنه ، فقد ذهب إليه وقـبّل بين عينيـه ، وقال : دعنى حتى أقبـل رجليك ياأستاذ الأسـتاذين ، وسيد المحدثين ، وطبيب الحديث فى علله [٢]، وقد وقف بجانبه لما تـعرض للتشنيع عليه من مـحمد بن يحيى الـذهلى بنيسابور بسـبب ما اتهم به البخـارى من أنه يقول اللفظ بالقرآن حـادث ، وهو لم يقل ذلك صراحة ، وإنما أخذ من قولـه بخلق أفعال العباد، وكان البخارى لما استوطن بنيسابور يكثر مسلم من التردد عـليه ، فلما اتهمه الذهلى ، ومنع الـناس من الاختلاف إليه ، فهـجره الناس إلا مسلمًا فـلم يمتنع عن زيارته ، ولما عرف ذلك محمد بن يحيى أنَّ مسلـمًا يتردد على مجلسه ، وكان مسلم يقول أيضًا: بأنَّ اللفظ بالقرآن مخلوق - وفى ذات يوم قال محمد بن يحيى : ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا ، فما كاد مسلم يسمع منه ذلك حتى نهض قائمًا على رؤوس الأشهاد وترك مجلسه ولم يكتف بذلك ، بل بعث إليه بكل ماكتبه عنه [٣] .

كتاب الصحيح :

قد استخرج مسلم كتابه الصحيـح من ثلاثمائة ألف حديث ،وقد ظل يجمع فيه خمس عشرة سنة ، وجميع أحاديثه اثنا عشر ألف حديث بما فيه المكرر ، أما إذا جرد عن المكرر فيكون مـا فيه ٣٠٣٣ حديثًا فقط ، فـتكون نسبة انتخابه تقـريبًا واحد فى المائة .

---

(١) تاريخ بغداد ، جـ ١٣ ، صـ ١٠٢ ، وسير أعلام النبـلاء ، جـ ١٢ ، صـ ٥٦٥ ، وتذكرة الحفاظ ، جـ ٢ ، صـ ٥٨٩ .

(٢) تاريخ بغداد ، جـ ١٣ ، صـ ١٠٢ .

(٣) سير أعلام النبلاء ، جـ ١٢ ، صـ ٥٧٢ .

منزلة الصحيح :

قال النووى فى مقدمة شرح مسلم : اتفق العلماء رحمهم الله على أنَّ أصح الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان : البخارى ومسلم ، وتلقتهما الأمة بالقبول ، وكتاب البخارى أصحهما وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة ، وقد صح أنَّ مسلمًا كان ممن يستفيد من البخارى ، ويعترف بأنه ليس له نظير فى علم الحديث ، وهذا الذى ذكرناه من ترجيح كتاب البخارى هو المذهب المختار الذى قاله الجماهير وأهل الإتقان والحذق والغوص على أسرار الحديث .

وقال أبو علىّ الحسين بن علىّ النيسابورى شيخ الحاكم أبى عبد الله بن البيع : كتاب مسلم أصح ، ووافقه بعض شيوخ المغرب [١] .

موازنة بين منهج البخارى ومسلم فى صحيحيهما :

يرى مسلم أنَّ الراوى إذا روى الحديث عن معاصر له بطريق العنعنة يعتبر متصلاً وإن لم يثبت عنده لقاؤهما يعنى يشترط أن يكون الراويان متعاصرين فقط وعلى شرطه هذا فهو لم يضع في صحيحه إلا الحديث المتصل الإسناد بنقل الثقة عن الثقة من أوله إلى منتهاه سالمًا من الشذوذ والعلة ، أما البخارى فلا يعتبر الحديث متصلاً إلا إذا ثبت عنده لقاء الراويين ، فلابد عنده من المعاصرة واللقاء ، ولذلك فضله علماء الحديث .

علم الحديث رواية :

هو النقل المحرر الدقيق لكل ما أضيف إليه ﷺ ، أو ما أضيف إلى الصحابة والتابعين فى رأى .

دراية : مجموعة من المباحث يعرف بها حال الراوى من حيث القبول والرد .

الحديث : كل ما أثر عنه ﷺ من قول أو فعل أو تقرير .

الخبر والأثر : ما جاء عن غيره من الصحابة والتابعين ، فى رأى يراد بهما ما أضيف إلى النبى ﷺ وما أضيف إلى الصحابة والتابعين .

---

(١) مقدمة النووى لشرح مسلم ، صـ ١٤ .

وفى رأى : الجميع بمعنى واحد .

الحديث المرفوع : ما أسند إلى النبى ﷺ .

الحديث الموقوف : ما أسند إلى الصحابى .

الحديث المقطوع : ما أسند إلى التابعى .

الحديث القدسى :

أضيف إلى القدس بمعنى الطهارة والتنزه ، هو حديث : لأن الرسول هو الحاكى له عن الله تعالى . بخلاف القرآن فإنه يضاف إلى الله تعالى : [قل . . .] .

الفرق بين القدسى ... والقرآن :

١ ـ القرآن معجزة يتحدى بها محفوظ من التغيير .

٢ ـ حرمة روايته بالمعنى .

٣ ـ حرمة مسه للمحدث وقراءته لنحو الجنب .

٤ ـ تعينه فى الصلاة .

٥ ـ التعبد بتلاوته [لكل حرف عشر حسنات] .

٦ ـ لفظه ومعناه من الله تعالى .

٧ ـ القرآن بوحى جلى . . . أما الحديث القدسى فقد يكون بجلى أو حتى فى المنام .

قال أبو البقاء : إنَّ القرآن ما كان لفظه ومعناه من عند الله بوحى جلى . وأما الحديث القدسى : فهو ما كان لفظه من عند الرسول ومعناه من عند الله بإلهام أو بالمنام أى الصياغة فقط للرسول ، وبعضهم قال : اللفظ أيضًا من الله تعالى .

أهمية السنة ، وكيف كانت بيانًا للكتاب الكريم :

جاء فى الحديث الصحيح أنَّ النبى ﷺ سئل عن الحُمر الوحشية أى عن صدقتها فيما ذكره الألوسى فقال : لم ينزل علىَّ فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفذة: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨)** ﴾ .

وفى حديث صحيح أيضًا : قالت امرأة قارئة لابن مسعود تسأله فيما بلغها عنه من قوله : «**لعن الله الواشمة والمستوشمة ، والمتفلجة للحسن المغيرة لخلق الله تعالى**» وكانت حجتها أنها قرأت القرآن الكريم كله فلم تجد ذلك فيه ، فقال لها : إن كنت قرأتيه فقد وجدتيه ! أما قرأت قوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ** ... ﴾ قالت : بلى ، قال : فإنه ﷺ قد نهى عنه .

وهذا دليل على أنهم فهموا أنَّ كل ما أمر به أو نهى عنه ﷺ فهو منصوص عليه من القرآن .

وقت الفراغ :

فى عام ١٩٧٠ صدر « ميثاق الفراغ » فى « جنيف » ومن بعده تم تأسيس «الاتحاد الدولى لأوقات الفراغ فى أمريكا » ومن قبل هذا وذاك سبق الإسلام الذى دعا إلى مسؤولية المسلم عن وقت فراغه الذى يجب أن يشغله بعمل إيجابى . . وذلك قوله ﷺ فيما رواه ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه الحاكم وصححه : «**اغتنم خمسًا قبل خمس ... وفيه شبابك قبل هرمك ، وفراغك قبل شغلك**».

فإذا رحت تتساءل عن أهمية هذا التوجيه . . . فوجئت بأنه خير علاج للنفس الفارغة . . . التى قد يستغلها « إبليس لحسابه » بقذف ما يراه من وساوس وهواجس . . . تحبط فيه معنى الإيجابية الفاعلة .

الحل القرآنى : لو أنَّ الناس أدركوا حقًّا أن حلّ مشكلاتهم فى آي القرآن الكريم لوفروا على أنفسهم دماءهم التى روت الأرض تشكو ظلم الإنسان إلى خالق الإنسان وفى هذا المعنى نقرأ ما نشرته الصحف اليومية :

كرامة الحمار من كرامة صاحبه : بكل حسن نية ، نزل الحمار إلى الحقل وأخذ "يرعى » دون أن يعرف أنه بهذا السلوك « البرىء » يكتب شهادة وفاة لصاحبه .

أخطأ الحمار ونزل إلى الحقل فى غفلة من صاحبه فاشتاط صاحب الأرض ، وقام بضرب صاحب الحمار على رأسه بقالب طوب حتى أرداه قتيلاً .

تلقى اللواء مدير أمن الشرقية إخطارًا من مدير المباحث الجنائية بوصول أحد

المزارعين من قرية شوبك إبراش مركز ديرب نجم مصابًا بنزيف بالمخ ، وغيبوبة وأنه توفى متأثرًا بجراحه .

أكدت التحريات أن المجنى عليه كان يسير بصحبة حماره ، وأنَّ الحمار تسلل للزراعات المجاورة للطريق ، فانفعل صاحبها وهب لعتاب صاحب الحمار . ثم قام بالإمساك بقالب طوب كان ملقى بالأرض . وظل يضرب الثانى على رأسه ، فأحدث به الإصابات السابقة تم القبض على المزارع وأحيل للنيابة التى تولت التحقيق .

لقد حدث مثل هذا الموقف فى زمن داود عليه السلام .. وكان الحل الإسلامى حافظًا للدماء أن تراق هكذا هدرًا .. وكان ذلك بسبب حكمة سليمان عليه السلام.. وذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** ... ﴾ .

سليمان : الفتى الشاب الذى أنقذ الأسرتين من مسلسل الثأر وما يترتب عليه من فساد .

أما بعد : فقد كان هناك « حكومة » تنتصر من الظالم ... للمظلوم .. وكان ولد القاضى « قاضيًا » .

قاضيًا : يحضر المحاكمات ... ويتعلم ... ثم يحكم .. ولم يكن الأمر ميراثًا !!

بكاء الثوار :

كان « سعد بن حازم » من التابعين ، ولما كان يحتضر زاره صديقه « سفيان الثورى » ولاحظ سفيان أنَّ صديقه كأنما هو يجزع من الموت .. فأنكر عليه ذلك قائلاً : لِمَ تجزع ؟ فو الله لوددت أنى مت الساعة .

فقال له سعد : أعد ... فأعاد عليه سفيان الكلام ... فقال له سعد : إنك إذًا لواثق بعملك ياسفيان !! لكنى والله ... لكأنى على شاهق جبل .. لا أدرى أين أهبط ، فبكى سفيان ... وقال : أنت أخوف لله عز وجل منى !!

فماذا نحن واجدون فى هذا المشهد المثير ؟

رفاق السلاح يتزاورون . وهذا هو سفيان الثورى يزور صديقه « سعد بن حازم » ليلقى عليه النظرة الأخيرة . . والفلك على وشك الرحيل ، ولعله كان يتصور «حازم» وهو يبتسم لأنه قادم على الرحيم الغفار . . ولكنه فوجئ بما ظنه جزعًا من الموت . فكان من شجاعته الأدبية ونصحه فى نفس الوقت أن نبه صاحبه إلى ما يبدو عليه من جزع أمر لايليق برجل مثل « سعد بن حازم » ثم شفع ذلك بقسمه أنه لا يخاف الموت . . . بل إنه ليتمنى أن يموت الآن . . . وقبل أن يموت سعد . .

ولفت نظره إلى ماغاب عنه وهو : أن موقفه موقف رجل وثق من قبول عمله . . وهذا أمر غائب لا يدرى عنه شيئًا .

ثم صحح له ما رآه : بأنه ليس الجزع . . . وإنما هو الخوف الشديد من الخاتمة . التى لايدرى كيف تكون . . وكأنما هو من الخوف يترنح على قمة جبل عال ولايدرى متى ولا أين يسقط ؟ ولم يقل ذلك إلا بعد أن أعاد عليه سفيان ما قاله : تعجب من أنَّ مثله يقول هذا ، وعندئذٍ بكى سفيان لما علم حقيقة الأمر . . . وهو بكاء الثوار الذين تملأ الآخرة وعيهم ، وكم رأينا من « ثوار » يبكون . . ولكن على فوت حظهم من الدنيا التى يبغون . . وليس على الآخرة التى لا يرجون ؟

فى الدعوة :

﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ ... ﴾ وهى دليل على أن كل كلام لا يصلح أن يكون دعوة . . . ولابد من اختيار الأصلح .

من آداب الداعية :

سائل سأله ﷺ « فرفع ﷺ رأسه إليه ، وفيه :

أولاً : لا بأس أن يكون المستفتى واقفًا .

وثانيًا : إقبال المتكلم على السامع .

مَنْ هو الجار :

قالوا : من سمع النداء فهو جار ،وقيل : من صلى معك صلاة الصبح فى المسجد ، وعن عائشة رضى الله عنها : «حقّ الجوار أربعون دارًا من كل جانب » .

وأقسام الجار هى : الجار الشريك فى العقار ، الذى يجير غيره ، والمستجير . والحليف ، والناصر . والزوج . والزوجة .

فضل الإحسان إلى الجار :

عن عمرو بن الحمِقَ قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا أراد الله بعبدًا خيراً .. عسَلُه** » قيل : وما عسله؟ ، قال : « **يحببه إلى جيرانه** » مسلم / ٢٦٢٥ ، بمعنى : يدفعه إلى أعمال صالحة ترضى جيرانه .

« **خير الأصحاب عند الله : خيرهم لصاحبه ، وخير الجيران عند الله : خيرهم لجاره** » الترمذى / ١٩٤٤ .

« **... لأن يزنى الرجلُ بعشر نسوة ... أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره** » .

« **ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع** » الطبرانى . وأبو يعلى .

« **ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع وهو يعلم** » ، البزار .

« **من سعادة المرء : الجار الصالح . والمركب الهنىء، والمسكن الواسع** » رواه أحمد .

قال ابن مسعود لرجل يشكو إليه جاره : « اذهب : فإن هو عصى الله فيك . . فأطع الله فيه » إحياء علوم الدين ٢ / ٢١٢ ، لماذا ؟ فراراً من صدام الأسرتين فشجار الوالدين يجر مع الأولاد من الأسرتين فيتسع الخرق على الراقع !!

والحفاظ على حقوق الجار قيمة راسخة فى الوجدان العربى الإسلامى . وأنشد أبو جعفر العدوى :

شِرَا (١) جارتى سِتْرًا فضول . . لأننى
جعلت جفونى ما حييت لها سِترًا

وما جارتى إلا كأنى . . . وإننى
لأحفظها سرًا وأحفظها جهرًا

---

(١) شراء جارتى .

بعثت إليها انعمى وتنعمى
فلست مُجلاً منك وجهًا ولا شعراً

وقال حاتم الطائى :

نارى . ونار الجار واحدة
وإليه قبلى تنزل القدر
ما ظفَّر جاراً لى أجاوره
أن لا يكون لبابه سِتر ؟!
أُغضى إذا ما جارتى برزت
حتى يوارىَ جارتى الخدر !!

وعن حقوق هذا الجار قيل :

وآغضبْ لابن الجار إن هو أُغضب
احفظ كرامته . ولكن عزاً له
أبدا . . . وعما ساءه متجنيًا
كن لينا للجار واحفظ حقه
كرمًا . . ولاتك للمجاور عقربًا !!

وقد ذكروا : أن جاراً لابن المقفع ركبه الدين وأراد أن يبيع داره سداداً لهذا الدين فماكان من ابن المقفع إلا أن قال ثم فعل :

أما القول : فهو ما قمت إذن بحرمة ظل داره إن باعها معدمًا ، وأما الفعل : فدفع إليه ثمن الدار . وقال له : لا تبعها .

بل إنَّ اختلاف الدين لايسقط حق الجار فى الإحسان إليه : فعن « الحسن البصرى » رحمه الله : أنه كان لا يرى بأسًا أن تطعم جارك اليهودى والنصرانى أُضحيته .

وكان لسلفنا الصالح توجيهاته ليبقى الود جامعًا للجيران : قال الحسن بن عيسى

النيسابـورى : سألنا عبد الله بن المبـارك فقلت : الرجل المجاور يأتينـى . . . فيشكو غلامى أنه أتى إليــه أمرًا . . والغلام ينكره . . فأكره أن أضــربه . . ولعله برىء . . وأكره أن أدعــه فيجد ـ بقـضب ـ علىّ جارى . فـكيف أصنع ؟ قال ابن المـبارك فى محاولة للخروج من هذا المأزج الحرج : إنّ غلامك : لعله أن يحدث حدثًا يستوجب فيه الأدب . . . فاحفـظه عليه . . فإذا شطاه جارك فأدبه علـى ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك . وأدبته على ذلك الحدث . وهذا تلطف فى الجمع بين الحقين .

وقال الغزالى مفصلاً هذه الحقوق : وجملة هذه الحقوق : أن يبدأه بالسلام ـ ولا يطيل مـعه الكلام . ولا يُكثـر عن حاله السـؤال ، ويعوده فى المرض . ويعـزيه فى المصيبة . ويقوم معه فى العزاء ويهنئه فى الفرح . . ويظهر الشركة فى السرور معه . ويصفـح عن زلاته . ولا يتطلـع من السطوح إلى عـوراته . . ولايضايقـه فى وضع الجذع على جداره . ولا فى مصب الماء فى ميزابه .

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الله عز وجل فى سورة المائدة : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُـمْ وَإِن تَسْأَلُـوا عَنْهَـا حِـينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢) ﴾ [المائدة: ١٠١ ، ١٠٢] .

ويقـول تعالـى في سورة الـنحل : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣] .

فى آية سورة المائدة كأنما يقول سبحانه : إنّ الكفار كانوا يطالبونه ﷺ بعد ظهور المعجـزات بمعجزات أخر . . عـلى سبيل التـعنت ، كما قال تـعالى حاكيًـا عنهم : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) ﴾ والمعنى : إنى رسول أمرت بتبليغ الرسالـة والشرائع والأحكام إليكم . . والله تعالى قد أقـام الدلالة على صحة دعواى فى الرسالة بإظهار أنواع كثيرة من المعجزات .

فبعد ذلـك : طلب الزيادة من باب التحكم . وذلك ليـس فى وسعى . . ولعل إظهارها يوجب ما يـسوءكم . مثل : أنها لو ظهرت . . . فكل مـن خالف بعد ذلك

استوجب العقاب فى الدنيا . .

ثم إنّ المسلمين لما سمعوا الكفار يطالبون الرسول ﷺ بهذه المعجزات وقع فى قلوبهم ميل إلى ظهورها . . فعرفوا فى هذه الآية أنهم لا ينبغى أن يطلبوا ذلك . . فربما كان ظهورها يوجب مايسوءهم وكأنهم فهموا ما يلى :

(ما بلغه الرسول إليكم فخذوه . وكونوا منقادين له . . ومالم يبلغه الرسول إليكم فلا تسألوا عنه . ولا تخوضوا فيه ، فإنكم إن خضتم فيما لاتكليف فيه عليكم فربما جاءكم بسبب هذا الخوض الفاسد من التكاليف ما يشق عليكم) وهذا هو الذى حدث بالفعل .

فقد سألوا عن الحج : هل يجب فى كل عام ؟

وسأل سائل عن أبيه : أين أبى ؟ فنهوا عن مثل هذه الأسئلة ؛ لأنه يترتب عليها إما فضيحة أو مشقة . . . بدليل أن ناسًا ممن سبقوا سألوا مثل هذه الأسئلة . . فلما أجابهم الأنبياء مبينين أحكامها ، لم ينهضوا بها لما فيها من المشقة . . . فصاروا ضالين بترك العمل بها .

وهو أمر يحتم على العاقل أن يسكت . . . فلا يسأل عما لم يكلف به . ويبقى حق الإنسان فى السؤال طلبًا لكشف المجهول . . . إلا أنَّ هناك ضوابطًا عليه أن يكون محكومًا بها وهو ما بينته آية سورة النحل . . . وهذه الضوابط هى :

١ ـ أن تكون هناك رغبة فى العلم من وراء السؤال .

٢ ـ وأن يُسأل المختص .

٣ ـ وأن يكون السؤال استرشادًا ـ أى طلبًا للمعرفة ـ وليس عنادًا .

٤ ـ أن تتحقق به مصلحة أو فائدة . . وألا تكون فى الإجابة عليه مضرة !!

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ ... ﴾ .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ ... ﴾ .

﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ... ﴾ .

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً ... ﴾ .

وعلى هذا الأساس يصير الإنسان عبداً لمن سخر له الكون سبحانه . . . وحده . . فى الوقت الذى صار فيه عبداً لله تعالى . . وكان فى عبوديته حرًّا عملاقًا عندما نفخ الله تعالى فيه من روحه . . . فكان هذا الكائن العجيب :

فيه رقة النسيم . . . وزئير العاصفة !!

فيه شراهة الدب . . . وعفة الملائكة !!

فيه وداعة الحمل . . . وروغان الثعلب !!

وكان من حكمة الله تعالى وقدرته أن نظم هذه القوى المتعارضة . . . حتى صار بها الإنسان سيد هذا الكون ، بل سيد الأكوان جميعًا :

فقد جلس الملائكة بين يديه يتلقون عنه العلم . . . وذلك قوله تعالى : ﴿ **يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ﴾ .

إن فى الإنسان طاقات اقتدار ، ولكنه لا يعرف كيف تدار !! وقد جاء رمضان كريمًا . . ومن كرمه : أنه يأخذ الإنسان بلون من العبادة يدرك فيه حقيقة نفسه وهى: أنه واسطة العقد فى هذا الكون . . . وأنَّ فى استطاعته أن يحصِّل ملكة التقوى . . . وبها تكون حضارة الإنسان . بالإيمان ؟

وهنا ندرك معنى قوله تعالى فى الحديث القدسى : « **كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى** » إنه جماع العبادات كلها . . . لما يحققه من غاية الرسل جميعًا وهى: التقوى ، وإذن : فالصيام مسؤولية الإنسان . . . حيثما كان !!

ميلاد الهلال
وميلاد الإنسان

ميلاد الهلال يذكرنا بميلاد الإنسان : يقول الله عز وجل : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ وهو المعنى الذى يشير إليه قوله عز وجل : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ﴾ [الروم: ٥٤] .

وهكذا يبدو الإنسان للعين المجردة الباصرة حجمًا يتناقص ويعتريه الذبول مع الأيام ولكنه الإنسان : فى جانبه المادى : إنه يتطور من الضعف إلى القوة ثم فى النهاية إلى الاضمحلال .

ولكن الإنسان المؤمن شيء غير هذا : إنه بالقرآن يتنامى وجوده .

وإذا كان القمر يتناقص حتى يتحول من « بدر » إلى خيط رفيع . . . إلى محاق فإنَّ الإنسان ـ دون مملكة النجوم ـ يتزايد ليظل بدرًا كاملاً . . ودائمًا . . . وذلك بعض ما يُفهم من قوله عز وجل : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ [النجم: ١ ، ٢] .

إنَّ النجم الذى يسقط فى لجة العدم يومًا . . . ليس كالإنسان الذى تزيد حياته بالإيمان . . بالوحى الأعلى !!

وإذا كان الشعراء يرون الهلال فينشدون :

وترى الهلال كزورق من فضة   قد أثقلته حمولة من عنبر !!

فإننا وفى رمضان نتحمل مسؤولية الإصلاح فى شهر القرآن الذى صار به الإنسان إنسانًا !! إننا نتأمل الهلال ـ لا كالشعراء الهائمين فى دنيا الظنون ـ وإنما نستقبله كما استقبله إبراهيم عليه السلام ، وكما ذكر القرآن :

﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ... ﴾ [الأنعام: ٧٦] ثم . . . وفى نهاية المطاف

يلفت النظر إلى هذا « المتغير » وهو القمر . . والذى لا يتغير . . وهو الله سبحانه وتعالى . . . وذلك مفهوم من قوله عز وجل : ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا . . . ﴾ .

إنه الحق الثابت : الذى لايعتريه تغير ، إننا إذن لانعبد النجوم . . . ولكننا نعبد الذى خلقها سبحانه وتعالى .

ولقد قال المشركون ما حكاه عنهم القرآن الكريم وهو : ﴿ وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ ﴾ توالى الليل والنهار . . ولكنَّ منهج القرآن شيء آخر ، فهو يعلّم المؤمن كيف يخضع هذا الدهر ذاته : من ليل ونهار ، كيف سخره الحق سبحانه وتعالى لنا .

أهمية الأخلاق :

نقرأ قوله عز وجل : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف: ٦٥] .

فقد قدَّم السياق القرآنى الخلق وهو : الرحمة على العلم الذى لاقيمة له إذا تجرد من الأخلاق . . وللك أن تتصور عالمًا بلا أخلاق : تراه مدمرًا . . عظيم بلا ضابط ، وفى السنة المطهرة نذكر قوله ﷺ : « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » .

ويعنى ذلك أنَّ جوهر الرسالات الإلهية هو : الأخلاق . . . التى جاء محمد ﷺ لإتمامها . . فتمت ببعثته ﷺ الأخلاق .

الأخلاق : التى صارت أسلحة أمضى من كل سلاح . . على ما يقول عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [القلم: ٤ ، ٥] والمعنى والله أعلم : أنك بما منحك الله تعالى من أخلاق ـ سوف يكون المستقبل لك . . . هذا المستقبل الذى سوف يظهر أنك المنتصر انتصاراً يشهده الأعداء أنفسهم .

وسيكون الانتصار بأسلحة الأخلاق كما يفيد حرف « الفاء » فى قوله عز وجل : ﴿ فَسَتُبْصِرُ ﴾ ويعنى ذلك : أنك منتصر حتمًا انتصاراً بسبب هذه الأسلحة الأخلاقية . . والتى لا بقاء للأمة إلا بها . . . على ما يقول الشاعر المسلم :

وإنما الأمم الأخلاق مـــا بقيـــت

فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبـوا

وهو المعنى الذى وضحه الشاعر القائل :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهـــم

فأقم عليهم مأتمـــًا وعـــويـــلا

ويعنى قول هذا الشاعر : أنَّ الأمة إذا تجـردت من الأخلاق . . . فقد ماتت فعلاً وكبرٍّ عـليها أربعًا . . لأنـها موجودة بأخلاقـها . . فإذا ذهبت هذه الأخـلاق فقل : عليها السلام ، ذلك بأن الأخلاق هى :

١ ـ الغذاء اليومى للأمة الإنسانية .

٢ ـ بل إنها الهواء الذى به يتنفسون ، والنور الذى به يهتدون .

وبها نحلق فى بالأجواء العالية : فنمسك بالنجوم من وراء الغيوم !!

عن أبى موســى رضى الله عنه قال : جـاء رجل إلى النبىّ ﷺ فـقال : الرجل يقاتل لـلمغنم . والرجل يقـاتل للذكر . والرجل يـقاتل ليُرى مكانـه . . . فمن فى سبيل الله ؟ قال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا ، فهو فى سبيل الله** » .

الذين يحملون السـلاح دفاعًا عن دينهم ووطنهم أصناف شـتى ، فبعض هؤلاء المقاتلين يخوض المعركـة من أجل الغنيمة . . . مدفوعًا برغبتـه فى الحصول على متاع الدنيا ، وآخرون يـقاتلون . . . لا من أجل المال والمتاع . . . بل من أجـل وجهة نظر إعلامية : حين يتناقل الناس شجاعتهـم ذاكرين صدر بطولاتهم فى جبهة القتال . . . بينمـا يقاتل البعض مـخاطرًا بحياتـه . . . من أجل إحراز بطولة نادرة تؤكـد أنه كان الوحيد على أرض المعركة !!

وهذه ألوان من الناس موجـودة فعلاً فى مجال الواقع . . . وقـد شاهدها واحد من الصحابة الكرام . فـاسترعت انتباهه . وحركت فيـه غريزة حب الاستطلاع . . . فاتجه إلى الرائد الذى لايكذب أهله ﷺ ، فعنده الخبر !!

وكان هذا السائل يضمر إرادته فى اكتشاف المجاهد حقًّا من بين هذه الأصناف .

والذى يشق بسلاحه طريقه إلى جنات عدن .. وهى غاية مراده .

ويجيئه الجواب النبوى العظيم رافضًا أن يكون واحد من هؤلاء جميعًا .. مجاهدًا فى سبيل الله الذى يقاتل للغنيمة . والذى يقاتل للشهرة . والذى يقاتل ليرى مكانه ، ولكنَّ المجاهد الحقيقى هو الذى يقاتل مدفوعًا بقلب سليم لتكون كلمة التوحيد هى الغالبة وهى العالية ! بحيث يُسقط من حسابه المال والجاه والمنصب !!

الذى يقاتل ـ لا من أجل مصلحة شخصية .. وإنما هو يضحى بحياته فوق كل اعتبار .. لينتصر الدين والوطن ولو فقد حياته !!

ولاريب أن توفر هذا اللون من الرجال يعنى ضمان انتصار الدين والوطن فى معركة الحياة .. ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج : ٤٠] .

وتبقى الدروس التى نستنبطها من هذا الحديث الشريف ، وهى :

١ ـ لابد لكى يكون العمل مقبولاً من النية الخالصة .

٢ ـ الرياء يحبط ثواب العمل .

٣ ـ ضرورة التوجه إلى الله تعالى وحده . وإطراح الدنيا ... ليتحقق النصر الذى نريده .

الشباب :

ليس فترة زمنية تنصرم ... ولكنه فترة الالتزام بالقيم ... ويعنى ذلك : إن انهزم ليس بالوقت والزمن ... وإنما يكون بترك الالتزام بهذه القيم العليا . فالشباب ليس فترة زمنية ... وإنما هو بالعمل .. وإذا كان مرور الزمن يؤثر فى الجسم ... فإنَّ ترك القيم يؤثر فى الروح ، فيكون من أمراض العصر : الملل . الكسل . التشاؤم !!

وفى هذا الزمان : لاتعجب ممن هلك .. كيف هلك ؟ ولكن العجب ممن نجا ... كيف نجا ؟! لأنَّ الأخيار قد فسدوا !! والضحايا على جانبى الطريق كثير !!

الطريق حافل بالمشكلات ... التى هى كالكلب العقور !! تبتعد عنه ولكنه يتحرش بك !! وإذا سخرت منه خافك !!

والمؤمن ناجٍ بإيمانه ، وذلك بعض ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿ **لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ** ﴾ ، ولكنَّ الخوف منهم أن ينحرفوا .

عن « زيد بن خالد » رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « **من جهز غازيًا فى سبيل الله فقد غزا ومن خلف غازيًا فى سبيل الله بخير فقد غزا** » .

إنَّ مباشرة الجهاد قد لاتتيسر لكثير من الناس .. لأسباب شتى ، فقد يكون الرجل صاحب عاهة تمنعه من حمل السلاح .. وقد يكون الرجل مريضًا لاتمكنه ظروف المرض من تحمل أعباء الكفاح .

وعندئذ نتساءل : هل يغلق باب الثواب فى وجه هؤلاء المعذورين ... ليفوز به القادرون وحدهم ... هل نحرمهم من الثواب لمجرد ظروف فُرضت عليهم ولم يكن لهم دخل فى إيجادها ؟! وقد يكونوا أشد شوقًا لملاقاة العدو من غيرهم !

ولقد كان الجواب الإسلامى شافيًا وكان كافيًا من حيث فتح الباب أمام هؤلاء.. وأتاح لهم فرصة يحققون بها ثواب من باشر القتال فعلاً فإذا وجد من هذا الطراز رجل فعبَّر عن إرادة القتال فى قلبه بأن جهز شابًّا غيره قويًّا وهيأ له أسباب سفره إلى جبهة القتال ... فإنه عندئذ يحتفظ بحقه من الثواب المرصود للمجاهدين ، هذا الحق المكفول له تفضلاً من الله تعالى كأخيه الذى باشر القتال فعلاً.

ومن سعة هذا الفضل وعمقه أيضًا : أنَّ هذا المعوّق إذا لم يكن صاحب مال يجهز به غازيًا فقد بقى حقه فى الثواب مكفولاً ففى إمكان هذا المقعد أن يظل فى الجبهة الداخلية أمينًا على أسرة المجاهد أثناء غيبته ، يرعى شؤونها ، ويجيبها إلى طلبها ... بحيث لاتحس بغيبة العائل ومهما طالت غيبته ... فإنه نائب عن المجاهد فى تدبير أمره ... الذى يحس معه المجاهد بالاستقرار ... وما يترتب عليه من تفوّق على أرض المعركة .

فإذا تمكن المقعد من تجهيز المجاهد . ورعاية أسرته معًا ... فذلك من فضل الله يؤتيه من يشاء ، فقد ضرب عصفورين بحجر واحد ... ونال من الأجر مثل مُجاهدَين !!

ويبقى من الناس من لم يُرزق مالاً . ولا خبرة .. وإذن فقد بقى له ما يسلكه

في زمرة المجـاهدين ، وذلك بأن يقـدم للشبـاب خبرته وتجـاريب حياته لـتكون مع المجاهـد نوراً يكشف بـين يديه مـجاهل الطـريق . وتقف مـعه سـلاحًا بتـاراً إذا ما التحمت الصفوف . . . وبدا شبح الموت !!

وهنا ندرك كرم الإسلام الذى يمنح هؤلاء جميعًـا ثواب المجاهدين تقديراً لعملهم الذى مهّد الطريق إلى النصر المبين بما ساعد وأرشد . . . ثم بما شجع قطاعًا كبيراً من البـشر ليحـملوا السـلاح دفاعًا عـن العرض والأرض والعـقيدة ، وكـثيرهـم الذين يستطيعون القتال . . ولكنهم لايجدون إليه سبيلاً . . فإذا وجد مانح المال . وصاحب الرعاية . فقد وجد الدال على الخير ، والدال على الخير كفاعله .

ولا ننسى هنا دور الأم والأخت والزوجة . . والتى تستطيـع تجهيز المقاتل بشحنه بالروح المعنويـة : فكلمة من أمه أو أختـه أو زوجته ربما دفعته إلـى أرض المعركة . . فصنع بها المعجزات .

وهكذا يبدو يسر الإسلام الذى يوسع دائرة الخير ، فكان الدال عليه كمن يباشره ولم يبق لدى المؤمن عذر فى الـتخلى أو التخلف عن مواجهة الأعـداء بما تيسر له من أسباب هو يملكها مهما كانت الظروف حتى يكون السؤال مقبولاً .

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهـم عند حسن الظن بهم حين سألوا محكومين بهذه الضوابط . . . ومن أمثلتهم ما حكاه القرآن الكريم من مثل قوله عز وجل :

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ** . . . ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ** . . . ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ** . . . ﴾ [البقرة: ٢٢٠] .

﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ** . . . ﴾ [البقرة: ٢٢٢] .

وهكذا : كانت أسـئلتهم متجـهة إلى الرسول ﷺ . . . وكانت موضـوعية . . . بالإضافة إلى مـا يدفع إليها من رغبـة فى العلم . . . وفراراً مما يضر . . فـلما سأل سائل قائلاً : متى الساعة ؟ كان جوابه ﷺ : « **وما أعددت لها !!** »

وهو لفت نظر قوى إلى طبيعة السؤال ومـا يترتب عليه من فائدة . . . إنَّ مجرد

علم السائل بموعد الساعة ؛ أولاً : قد يفضى إلى الكسل حتى قبيل قيامها . . . ثم إنَّ المهم هنا هو : الإعداد لمواقفها الصعبة بما يقدمه الإنسان من عمل صالح . . وقد كان شبابنا يسألون عن النافع من الأعمال إرادة العمل بـه . . . قبل أن يكون السؤال ترفًا عقليًا . . . ومن ذلك ما روى :

قال أبو برزة : يا رسول الله : علمنى شيئًا أنتفع به . قال : « **اعزل الأذى عن طريق المسلمين** » .

دلالات الحديث :

١ ـ اهتمام الصحابى بأمور المسلمين وكذلك فعل الخليفة عمر لما قال لو أن بغلة عثرت بالعراق لكنت مسؤولاً عنها .

٢ ـ استيعاب الإسلام لكل ما يحقق مصالح الأمة : صغيرًا وكبيرًا .

٣ ـ لكل شيء أهمية : الكبير والصغير ، وإذا كان فى الإسلام مهم . . وأهم فليس فيه ما ليس مهمًّا !

٤ ـ ينبه الإسلام إلى أمور نافعة لم تلتفت إليها الحضارات .

٥ ـ عزل الشوك . . . أو قشر الموز . . . جزء من الإيمان والعمل الصالح .

٦ ـ الأمور الصغيرة مهمة . . . لأنها لو أهملت تراكمت فكانت خطرًا .

٧ ـ رفع الأذى مطلب أساسى . وليس هامشيًا .

٨ ـ تنظيف الطرق . . . مسؤولية المجتمع كله .

٩ ـ ثبت علميًا أنَّ الإنسان قد يموت من « شوكة » بما يسمى التيتانوس وإذن . فعزل الأذى مهمة خطرة قد تحمى الحياة الإنسانية من الموت .

١٠ ـ وإذا كان هذا واجب المسلم ابتداء أن ينحى الأذى عن طريق المسلمين . فأحرى به ألا يكون هو سببًا فى هذا الإيذاء .

١١ ـ وهكذا يتضح تمامًا أنَّ المسلم لا يعمل لنفسه فقط . . وإنما هو عضو فى مجتمع . . . ومفروض عليه أن يحافظ على هذا المجتمع حتى لايلحقه أدنى أذى .

١٢ ـ وتظل قيمة النظافة مهمة فى التـشريع الإسلامى . . . هذه القيمة التى يبدو بها الإسلام فى أعين الآخرين نظيفًا جميلاً . وبالتالى مشجعًا الغير على الدخول فيه .

١٣ ـ وإذن . . . فلا يكفى أن ندعسو إلى الإسلام بأفواهنا . . لأنَّ المهـمة عندئذ يسيرة غـير مكلفة . . . وإنما لابد من التـدخل المباشر . . . ليظل المجـتمع الإسلامىّ بهيجًا جميلاً .

مفهوم التقوى
الهدف والوسيلة

فى معركتنا المستمرة مع أعداء الحق ... نتلمس الطريق إلى النصر ... فأين الطريق ؟ يجيء الجواب القرآنى فى قوله عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

إنها التقوى : إذن سبيلنا إلى النصر وإلى استدامته ، يقول الله عز وجل :

﴿ فَمَنِ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ .

﴿ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ ... ﴾ .

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ... ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ .

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا ﴾ .

وهكذا تبدو بركة التقوى ، فهى عاصمة من تآكل العمرى بسبب الحزن على الماضى . والخوف من المستقبل ، ثم إنها عادة حسنة تثبت قدم المتقى على الصراط المستقيم .. فلا يحيد ، ثم هى مفتاح الرخاء الذى يعم الأمة بسببها ... فضلاً عن أنها عنصر التميز يوم الحساب ، ثم هو السلاح الذى نواجه به الشيطان فيفر من أمامنا .

ثم بها تكون القدرة على التفريق بين ما هو حق وما هو باطل . . ثم هى أخيرًا : الثمن الغالى . . والذى نفوز فيه بحب الله تعالى . . . ومن أحبه الله تعالى رزقه نعمة التوفيق والنجاح فى كل ما يباشر من أعمال .

ولهذا كله كانت التقوى دعوة الرسل جميعًا :

﴿ . . . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ . . . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ . . . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ . . . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

﴿ . . . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ ﴾ .

الإسلام : يعمر ... ولا يخرب !! :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : أنّ رسول الله ﷺ . . . عامل أهل خيبر على شطر ما يخرج من ثمر أو زرع .

من مقررات الإسلام : أنَّ كل أرض يستولى عليها الجيش الإسلامى . . . تصبح ملكًا للدولة المنتصرة . . ولكنه ملك التعمير لاملك التخريب والانتقام .

وكمثال لذلك : ماحدث بعد انتصار المسلمين على اليهود فى خيبر ، ولقد فكَّر رسول الله ﷺ فى هذا الأمر . . . فتبين له ما يلى : تبين له أنّ خبرة الصحابة رضوان الله عليهم فى فن الزراعة محدودة ، وصحيح أنهم أبطال فى فن صناعة الموت !! ولكنَّهم فى التعامل مع الأرض ليسوا على نفس المستوى . . ولو وكل إليهم استغلال أرض خيبر . لظهر عجزهم عن استثمارها واستغلالها فلا تتحقق بذلك مصلحة ما .

ومن أجل هذه المصلحة . . . ولأنَّ الإسلام دين سلام ورخاء ، فقد وافق عليه الصلاة والسلام على ما يلى : إقرار اليهود فى أرضهم على ماهم عليه . . . على أن يكون الناتج من هذه الأرض المفتوحة مناصفة بين المسلمين وبين اليهود .

ولقد كان المتوقع أن يستولى المسلمون على كل محصول الأرض . . . بناء على

أنهم المنصورون القادرون بهذا النصر على فرض وجهة نظرهم على اليهود . . المهزومين !! ولكنه ﷺ لم يفعل . . ولن يفعل . . . وإذا كانت هناك للنصر نشوة قد تلعب بالرؤوس ولكن ذلك لم يمنعه من أن يكون عادلاً حتى مع اليهود مع ما لاقى منهم من عناء وأسى . . فضرب بذلك المثل فى « العدل » فى منطق الإسلام الذى يتفرد دون مذاهب الأرض جميعًا بأنه دين الإنسانية . . والتى ظهر من سماتها :

أولاً : احترام الخبرة الإنسانية مهما كان مصدرها فالعبرة بالاختراع وليس بالمخترع :

١ ـ إقرار مبدأ الصلح على جزء من محصول الأرض .

٢ ـ إقرار عقد المساقاة القائم على قيمة الإنصاف .

٣ ـ والإسلام دين يرعى المصلحة العامة . . . ولا يحمل المسلم فى صوره قلبًا قاسيًا ولكنها الرحمة المهداة . . وهو دين بإقراره المساقاة يؤكد أنه ضد « التصحّر » .

٤ ـ عقد المساقاة جائز عند جمهور المسلمين . . . ما عدا الإمام أبا حنيفة والذى منعه مستدلاً بما روى عن نهى الرسول ﷺ عنه .

والصحيح : أنه جائز لما يترتب عليه من مصلحة الناس . . . وليبقى الباب مفتوحًا أمام كل راغب فى الإسلام . . مما يدل على أنه دين سلام . . لا دين صدام .

أما بعد : فقد تترامى إلينا أنباء « الجرافات » الإسرائيلية . . والتى يسلطها اليهود لتهلك الزرع والضرع . . على نحو يبدو فيه الإسلام دين تعمير . . لادين تخريب كما يزعم المغرضون . . . أما الإسلام الذى يتحدثون عنه متهمين . . . فهو الإسلام الذى يريدون وليس هو الإسلام كما هو فى واقع حياة الناس .

الناس الذين يقرؤون ويتأملون حديث المساقاة هذا ليشهدوا للإسلام بأنه دين العمارة أو دين الحضارة . . الحريصة على أن تظل الأرض خضراء . . . مثمرة . . ولا تريد تدمير هذا الإنسان بالإكراه .

وقد يسأل سائل : كيف تذكر حرص الإسلام على عمارة الأرض التى يجب أن تظل خضراء مثمرة . . . وماذا أنت قائل أمام تصريحه بل تحريضه على إتلاف الزرع

والضرع فى مثل قوله عـز وجل : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا ﴾ [الحشر : ٥] .

ونقـول ردًّا على هذا الاعتراض : إنَّ القطع هنا كـان « بإذن » الله سبحانه . . . ومادام بإذنه سبحانه فلا تطلب علة لذلـك . وهذا ما فهمه « القشيرى » الذى علق على هذه الآية الكريمة ، فقال : وفى هذا دليل على أنَّ الشريعة غير معللة . . . وإذا جاء الأمر الشرعى بطل طلب التعليل . وسكنت الألسنة عن التقاضى بـ « لِمَ » . . وحضور الاعتراض . والاستقباح بالبال . . خروج عن حد العرفان .

ولكن لما كان أعداؤنا غـير طالبين للرشاد . . وإنما هم فقط مـشاغبون . . . كان من رحمة الله تعالـى وحكمته بيان السبب فى قطع تلك النـخيل . . وذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

والقـصة هنا كـما رواها جـابر رضى الله عنه أنه قـال : رخص لهم فـى قطع النخيل. ثم شـدد عليهم . فأتوا النبى ﷺ فـقالوا : يا رسول الله : علينا إثـم فيما قطعنا . أو علينا فـيما تركنا ؟ فأنزل الله الآية ، ويبدو أنَّ بعـض المؤمنين أثَّرت فيهم دعاية اليهود فـمالوا إلى الكف عن القطع . . . بينما رأت طائفة مـنهم الاستمرار فى ذلك تأديبًا لهم . . . لأنه مما يغيظهم . . . فنزلت الآية الكريمة تدل على ما يلى :

جواز إفسـاد أموال أهل الحرب على أى حـال كانت ؛ مثمـرة كانت أم لا . . . وذلك لإخـزائهم وما يتـرتب على الخـزى من توقف العـدوان من قبل هـؤلاء الذين «فسقـوا » الذين خرجوا على كل الأعراف الـدولية والإنسانية ، ويبـقى الإسلام دين العمار الذى كـان فيه قاعدة يستثنى مـنها ما كان سبيلاً إلى توهـين القوى المعادية . . حتى تضع الحرب أوزارها . . وتصان دماء الإنسان كيفما كان !!

وتاريخ الإسلام شاهد بـذلك : فقد أعطى الفاروق رضى الله عـنه « أهل إيليا» من اليهود الأمان علـى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم . ومن قـبله وحتى أبو بكر رضى الله عنه قـائده « يزيد بن أبى سفـيان » قائلاً له : (إنك سـتلقى أقوامًا زعـموا أنهم فرغوا أنفسهم لله فى الصوامع . . فدعهم وما فرغوا أنفسهم له) .

كما صـالح « خالد بن الوليد » وهو القـائد المنتصر . . صالـح أهل « الحيرة »

على ألا يهدم لهم بيعة ولا كنيسة . ولا يمنعون من ضرب النواقيس . . ولا من إخراج الصلبان فى يوم عيدهم . . . وهذه هى روح الإسلام الراغبة فى السلام .

فمع أن من كانوا فى الصوامع يزعمون . . . لكن القائد المسلم مأمور بتصديق هذا الزعم ، وعلى رغم أن « ضرب النواقيس » و « إخراج الصلبان » قد يساء استغلالهما فى التشويش على المجتمع المسلم . . . إلا أنَّ الإسلام لم يمنعهما . . . من حيث كان ذلك تلبية لرغبة المهزومين . . ولأن العقيدة الإسلامية لا تفرض . . وإنما فقط تُعرض !! إنَّ القائد المسلم لا يزد هيبة النصر . . ولا يتمسك بها الخيلاء وإنما هو التواضع مع القدرة على الانتقام .

ومن معانى ذلك : أنَّ التسامح فى الإسلام لم يكن حادثة فردية ، وإنما كان ظاهرة اجتماعية إسلامية حتى على مستوى القمة !! هذا التاريخ المقبل بكل ما هو جليل وأنَّ ذلك « التسامح » لم يكن ليُسقط قيمة العدل . . حتى فى التعامل مع المذنبين المسلمين !! هذه القيمة التى طبقت حتى فى أصعب الظروف . . بحيث لم تكن قيمة ملونة وإنما طبقت فى ظروف لاتكاد تصدّق . . . ولكنها حدثث بالفعل . . . إلى الحد الذى تقرر فيه أنَّ هذه القسوة التى يضيفونها إلى الإسلام إنما هى الحكمة الحازمة التى تصبح نكالاً . . . حتى لا ينحرف أحد .

ونقرأ فى ذلك : ما كان من القائد المسلم محمود الغزنوى مع ابن أخيه الذى أذنب يومًا ؛ فقتل نفسًا بغير نفس ، وعلى نفس الخط سار القائد النبيل (نور الدين محمود) ، إنَّ « محمود الغزنوى » مجاهد إسلامى عظيم : شكا إليه ناس « ابن أخيه» أنه قتل نفسًا بغير حق ، فحقق القضية بنفسه . . . ولما علم بظلم ابن أخيه لم يتردد فى القصاص منه مع أنه كان يحبه حبًّا جمًّا ، وقاده بنفسه إلى غرفة فى القصر . . ثم أطفأ المصباح . . وذبحه ، وإنما أطفأ المصباح حتى لا يمنعه حبه من شفقته عليه لو رآه بين يدى الذبح متألمًا !!

لقد كان ولاؤه للحق وحده . . دون سواه . . ولم يكن للانفعال أن ينال من عزيمة الرجال !!

هذا الحق لا ينتصر بالسيف وحده ،وإنما هو مرهون بالضعاف . . على ما يقول

ﷺ مهلاً عن الله مهلاً : « **فلولا شباب خشع . وشيوخ ركع . وأطفال رضع ، وبهائم رتع . لصب عليكم العذاب صباً** » البيهقى فى السنن الكبرى/ ٣٤٥ .

إنه منطق القائد المسلم الذى يرجع بالنصر إلى سببه المتبقى . . رافضًا أن ينسبه إلى نفسه كبطل مغوار !!ولكنه ساكن . . فى هدوء لا يغلى صدره غيظًا ولا يشتعل أنفه غمًا .

ففى مقاومة نور الدين محمود للصليبين فإن أخوه « مجير الدين » صاحب دمشق فوقف إلى جانب الأعداء . . ضد أخيه . . المسلم ؟

ولم يقتل أخوه نور الدين ، وكان قادراً على قتله جزاء خيانته لماذا ؟

والموقفان ينبعان من مشكاة واحدة : فقد علم « محمود الغزنوى » أنَّ الظلم مرتعه وخيم . . وأنَّ الذى أهلك الأمم من قبله هو « **إذا سرق الشريف .. تركوه . وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد** » فكانت مبادرته حماية للأمة من الهلاك . . إذا ما تفشى فيها الظلم كان لابد من إقامة الحد . . وبنفسه على ابن أخيه .

وهو هو نفسه المعنى الذى لاحظه « نور الدين » الذى لم يقتل أخاه الخائن محكومًا بهذه القاعدة . . ولتبقى الأمة فى حماية من الفناء بوحدتها . . تلك الوحدة التى تعتبر سلاحًا نواجه به أعداءنا . . . بقدر ما يكون التفرق مشجعًا لهم على هزيمتنا !!

وقوله تعالى : ﴿ **عَفَا اللَّهُ عَنْهَا** ﴾ [المائدة : ١٠١] هو عفو من الله الرؤوف الرحيم عما سلف من الأسئلة وما ترتب عليها من إغضاب للرسول ، روى أنس : أنهم سألوا النبىّ ﷺ . فأكثروا المسألة . . . فقام على المنبر فقال : « **سلونى فو الله لا تسألونى عن شىء مادمت فى مقامى هذا إلا حدثتكم به** » .

فقام عبد الله بن حذافة السهمى وكان يُطعن فى نسبه ـ فقال : يا نبىّ الله : من أبى ؟ فقال : « **أبوك حذافة بن قيس** » وقال سراقة بن مالك : يارسول الله : الحج علينا فى كل عام ؟

فأعرض عنه النبىّ ﷺ . حتى أعاد مرتين أو ثلاثة . فقال عليه الصلاة والسلام:

« ويحك وما يؤمنك ؟ أن أقول : نعم والله لو قلت نعم لوجبت ، ولو وجبت لتركتكم ولو تركتكم لكفرتم فاتركونى ماتركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم ، فإذا أمرتكم بشىء فأتوا منه ما استطعتم ، وإذا نهيتكم عن شىء فاجتنبوه ».

وقام آخر فقال : يا رسول الله : أين أبى ؟ فقال : « فى النار » !! ولما اشتد غضب الرسول ﷺ قام عمر وقال : « رضينا بالله ربًّا . وبالإسلام دينًا . وبمحمد نبيًّا» فأنزل الله تعالى هذه الآية .

ثم قال تعالى : ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴾ قال المفسرون : يعنى قوم صالح : سألوا الناقة . . . ثم عقروها !! وقوم موسى قالوا : أرنا الله جهرة . . . فصار ذلك وبالاً عليهم ، وبنو إسرائيل : ﴿ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٦] ، ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة:٢٤٦] . وقالوا : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ ﴾ !!

وقد سأل اليهود الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتابًا من السماء قائلين : إن كنت نبيًّا فأتنا بكتاب دفعة واحدة كما أتى موسى بالتوراة دفعة واحدة ، فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ . . . ﴾ والمعنى : أنتم مقرون برسالة نوح . وبكل الرسل المذكورين فى الآية الكريمة . ومعترفون بأنَّ الله سبحانه أوحى إليهم . . والحال أنه سبحانه ما أنزل على واحد من هؤلاء الرسل كتابًا جملة واحدة . . . ومع ذلك لم تعيبوا هؤلاء الرسل فَلِمَ تقصرون العيب على محمد الذى لم يكلمه الله ، إنكم تطعنون محمداً وحده لأن الله لم يكلمه كما كلم موسى عليه السلام مع أنه تعالى لم يكلم واحداً من هؤلاء الرسل !! إنكم تجهلون الحق الذى يفرض نفسه وهو: أنّ المقصود من بعثة الأنبياء هو : البشارة والنذارة والتى تحقق سواء كان الكتاب دفعة أو مفرقًا بل إنَّ الواقع شاهد بأنَّ الكتاب لو نزل مفرقًا لكان أفضل . . . بدليل أنَّ تاريخ اليهود شاهد بأنَّ كتابهم لما نزل جملة فثقل عليهم فتركوه . . . وإذن: شهدوا أو لم يشهدوا . . . فكفى بالله شهيداً .

يقول الله عز وجل فى سورة الحديد : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ

فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحديد : ١٦] .

تمهيد : كان المسلمون قبل الهجرة يعيشون فى مكة المكرمة مجديين . . . فلما هاجروا إلى المدينة تغيرت الظروف ، فقد كانت أرض المدينة خصبة تنبت من كل زوج بهيج . . . فأقبل المسلمون على هذا النعيم وتلك الثمرات التى لم تكن من قبل فى مكة . . . واستمروا على هذا التنعم أربع سنين .

والجسم الذى يستسلم لسكرة النعيم يترهل . . . ثم يفقد لياقته العسكرية . . . فلا يصلح من بعد لقتال ؟ من طول ما حب من نعيم ، وذلك بأنّ القلب في البدايات يكون رطباً ، مغلوبًا للأحوال والواردات يتأثر بأدنى شيء وشاءت إرادة الله تعالى أن يتوقف مسلسل التنعم هذا . . . فرارًا من آصاره . . وهو الأمر الذى أدركه البعض فعلاً :

(عن أبى بكر رضى الله عنه : أنَّ هذه الآية قرئت بين يديه . . وعنده قوم من أهل اليمامة : فبكوا بكاء شديدًا . فنظر إليهم فقال : هكذا كنا حتى قست قلوبنا . . .) .

وتعنى القسوة : جمود القلب . وتحجره بحيث لا تؤثر فيه المواعظ . . وهو المعنى الذى عناه الشاعر القائل :

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة   كالأرض إن سبخت لم ينفع القطر

ومن أجل ذلك نزلت الآية الكريمة تشير إلى ما يلى :

١ ـ إنَّ القلوب سميت قلوبًا ؛لأنها تتقلب فإذا طال أمرها فى الاغتراف من النعيم قست وتبلدت .

٢ ـ تحذير من عقبى الانطلاق فى النعيم كما حدث لأهل الكتاب الذين استمروا ويتنعمون فقست قلوبهم وذلك يعنى :

أولاً : لا رأى عام ينهى عن الفساد فى الأرض .

وثانيًا : كيف أسلم التنعم الزائد أكثرها إلى الفسق . . فكانوا فيه رموزاً . . . الأمر الذى قيَّم جلاء هذه القلوب ، بذكر الله تعالى . . والذى به تطمئن القلوب

وثانيًا باستيعاب مواعظ القرآن التى تؤكد أن الآخرة . . . ونعيمها هى الأبقى . . . فهو الأولى باهتمام الإنسان .

من أساليب الدعوة :

ولأن المقصود هنا هو الزهد : بمعنى الإقلاع عن الرفاهية التى كان أمرها ، وهو أمر شاق على النفوس . . فكان التحريض عليه متعدد المسالك . كما يظهر من السياق القرآنى :

١ ـ فالأسلوب هو : الاستفهام الذى لا يحس معه المدعو بضغط أو إكراه .

٢ ـ ثم هى تقول لهم : تمتعتم كثيراً بثمرات المدينة . وهذا حقكم . . . ولكن ذلك الحق لا يلغى واجبكم وهو : أن تكفوا عن التمتع وإن كان مباحًا من أجل تدعيم الحق الذى هو قضيتكم الكبرى .

٣ ـ يضاف إلى ذلك ما كان من مقارنة بموقف أهل الكتاب فراراً من مثل عقباهم .

٤ ـ موضوعية المنهج القرآنى فى الدعوة والذى لم يدفع الكل بوصف الفسق . . ولكن كثير منهم .

٥ ـ عادة الترف من شأنه أن تصيب الكيان الإنسانى بالخمول ـ فلا تصلح الأمة معه لمواجهة خصومها على أرض المعركة .

ثم تجىء الآية الكريمة بعد ذلك : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ .

والآية الكريمة تبعث الأمل فى بعث جديد . . تستأنف به الأمة بالتقشف حياتها من جديد . . . وليس ذلك بعزيز على الله عز وجل ، فهو الذى يحيى الأرض بالمطر بعد ما ماتت . . وكذلك القلوب التى يحييها الله سبحانه بالعلم والذكر بعدما ماتت بالجهل والنسيان .

ولقد كان من رحمة الله تعالى أن بين لنا ذلك . . إعانة لنا على إدراك ما فى هذه الآيات من دلالات تذكر لك أن محاولة البعث من جديد أمر ممكن . . كما أنَّ الأرض من تحت أرجلكم كذلك .

إنَّ الفرصة مواتية إذن . . فعودوا إلى طبعكم . . . والأمر سهل ميسور ، عودوا إلى طبعكم عـودًا حميدًا ، يصيـر به المال دماء فى عروق الشبـاب . . بدل أن يسيل شرابًا على موائد القمار !!

عودوا وتصدقوا على المحتاجين إلى الضرورات . . . ولن يكلفكم العود إلا ترك الكماليات . . . فـالذين يتصدقون . لا تضيع صدقاتـهم سدى . . . وإنما أجرها فى الآخرة مضـاعف . . وبينما البـاخلون من الكافـرين فى أسفل سافلـين . . . فالذين تصدقـوا من المؤمنين فـى روضات الجنات . . وقبـل ذلك فهم فى الـدنيا فى نعـمة التوفيق التـى لا تفارقهم أبدًا ، فهم ينفـقون المال فى مصارفه . . وينفـقونه عن رضا وقبول .

وهكذا يربى القرآن الكريم الأمة بالتحـريض على الزهد . . فرارًا من عقبى الذل وما يترتب عليه من فساد يأباه الإيمان .

الاستقامة
طريق السلامة

أهمية الاستقامة :

تبدو « الاستقامة » على غاية ما تكون الأهمية : لأنها التطبيق العملى لكل ما عرفه المؤمن نظريًا . . . وذلك بعض ما يفهم من قوله عز وجل : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا** ... ﴾ .

ومن براهين أهمية الاستقامة من الآية الكريمة : أنّ الآمر بها هو الله عز وجل ، ثم هو الآمر بمجموع الفضائل من حيث كانت « الاستقامة » مضمومة على أمهات هذه الفضائل والشمائل .

ففيها معنى : الثبات . . وذلك قوله عز وجل : ﴿ **أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ** ... ﴾ .

وفيها معنى : الحفظ وفيها كذلك معنى : الالتزام وذلك بعض ما يفهم من قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا** ﴾ أى : عملوا بطاعته . ولزموا سنة نبيه ﷺ .

قال ابن حجر رحمه الله تعالى : الاستقامة : كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلاً وتركًا [(١)] ، والاستقامة : تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات . . . فالاستقامة فيها : وقوعها لله ، وبالله . وعلى أمر الله . . . فلا التفات لغيره تعالى فى أى أمر من الأمور : أمرًا أو نهيًا .

« وقد سئل صدِّيق الأمة . وأعظمها استقامة أبو بكر الصديق رضى الله عنه . عن الاستقامة فقال : ألا تشرك بالله شيئًا ، يريد الاستقامة على محض التوحيد ويعنى بذلك : الاستقامة على تكاليف عقيدة التوحيد . . وهو ماعناه عمر رضى الله عنه بقوله : الاستقامة : أن تستقيم على الأمر والنهى . ولا تروغَ روغان الثعالب»[(٢)] .

---

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ١٩٣ .

(٢) مدارج السالكين ٢ / ١٠٩ .

ويعنى ذلك كله : الإيمان بالله تعالى عقيدة وعملاً . . على أن يكون ذلك معينًا على طريق السداد المستقيم بلا سبيل عنه أدنى ميل . . بمعنى : أن تصرف كل مواهب الإنسان وإمكاناته لتكون كلها فى خدمة ما خلقت من أجله . . ومن يفعل ذلك عظمت حرمته . وعلت درجته . فوجبت محبته . .

وهذا الجزاء بسبب اتساع دائرة الاستقامة التى تحسن بها التعامل مع ربك . ومع مجتمعك ومع نفسك .

وقد ذكر القشيرى : أن واحدًا من الصالحين رئى في المنام . . . فسئل : ما الذى شيَّبك ؟ قال : ﴿ **فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [هود: ١١٢] .

وقفة بين يدى حديث شريف : وإذ يقول ﷺ : « **شيبتنى هود** » فلأن فيها أمرًا بالاستقامة وفيها تشم رائحة التهديد . وثقل التكليف !!

هذه التكاليف التى يشى بها الأمر بالاستقامة التى إن باشرها المؤمن كان فى المقدمة :

ألِفُ الكتابة ـ وهو بعض حروفها

لما استقام على الطريق تقدَّما !!

ولكن هذا التقدم لا ينشأ من فراغ . . وإنما هو بسبب ما يعانيه المكلف من تبعات وهو يحاول نقل خطاه على الطريق المستقيم . . وما يناوشه من خوف يترتب عليه الشيب . . وقد حاولنا سؤال « العلم » هنا والذى أجاب بما يلى :

تحت كل شعيرة من شعيرات الإنسان بصيلة ماء ، وبها يبدو الإنسان كالشجرة الخضراء ولكن بسبب الالتزام بمنهج الطاعة وبسبب الحزن على فوات مأمول . . يحدث الآتى : يجف النبع تحت كل شعيرة . . . فتتراجع الرطوبة . . وهنا يبدأ إعصار فيه نار . . . فتحترق الشجرة . . وهكذا : ومن مشاهد الطبيعة إلى الطبع البشرى لتجد نفسك أمام نفس المعنى : النبع المائى يمد الجسم بالنماء وبالقوة .

والبصيلة ـ النبع ـ تحيط بها شعيرات دموية . . وغدة دهنية تسهِّل عملية خروج الشعيرات من الجلد . . . وتكسبها ليونة تحول دون تفتتها . . كما يتصل بها «عضلة» تحركها إذا ما انقبضت .

فإذا تعطل ذلك كله جفت الرطوبة . . . فكان المشيب .

موانع الاستقامة :

أما عن الموانع التى تحول بين المكلف وتحقيق الاستقامة فقد أشير إليها بقوله عز وجل : ﴿ وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ... ﴾ [هود : ١١٣] .

فالركون إلى الظالمين يشجع على أن تكون مثلهم ظالمين . . . متحللين من نبات الاستقامة ذلك بأن الركون إليهم يعنى : الرضا بما يفعلون وبما يقولون ، كما يعنى أننا دخلنا فى منطقة نفوذهم . . بقدر ما يكون البعد عنهم كسراً لشوكتهم . . لايستطيعون معها مباشرة فسادهم .

مع العلم بأنَّ شياطين الإنس كإخوانهم من شياطين الجن ، لا يقصدون مواطن اللهو . . . فأهلها جاهزون للتبعية وللفساد ، أما أهل الطاعة . . وبالذات من كانوا فيها رموزاً وقدوة حسنة . . . فإنَّ الشياطين تخاف منهم . . . فلاتقترب منهم !!

الاستقامة وظيفة المؤمن :

وفى هذا المعنى يقول عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ [فصلت : ٦] .

فالمؤمن مطالب بالاستقامة على طريق الحق أولاً : (فإن لم يقدر عليها فالمقاربة) .

وقد روى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه . عن النبىّ ﷺ قال : « **سددوا وقاربوا . واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله** » . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « **ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل** » .

وقد جمع فى هذا الحديث مقامات الدين كلها : فأمر بالاستقامة وهى : السداد . والإصابة فى النيات والأقوال .

(وأخبر فى حديث « ثوبان » أنهم لا يطيقونها . فنقلهم إلى المقاربة . وهى : أن يقتربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم : كالذى يرمى إلى الغرض . وإن لم يصبه يقاربه ومع هذا . . فقد أخبرهم أنَّ الاستقامة والمقاربة لاتنجى يوم القيامة ، فلا يركن أحد إلى عمله ولا يرى أن نجاته به . . بل إنَّ نجاته برحمة الله وغفرانه وفضله) .

وفى ذلك يقول بعض العلماء : (كن صاحب الاستقامة لا طالب الكرامة : فإنَّ نفسك متحركة في طلب الكرامة - وربك يطالبك بالاستقامة) .

ومن معانى ذلك : أنَّ الاستقامة كالـروح لله . . . وبدونها يصير الإنسان هيكلاً عظميًّا !!

والمهم أولاً : استقامة القلب . . . لتستقيم به الجوارح . . . ومن معانى ذلك : الإعراض عما سواه تعالى . ونسيان كل حول وطول متاح لك ، وقال بعض المفسرين المعاصرين فى تعـريف الاستقامة : هى (عدم الاعوجاج والميل) والسين والفاء فيها للمبالغة فى التقدُّم .

وقالوا : وَجـمَع قوله : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ [الأحقـاف:١٣] : أصلَ الكمال الإسلامى: فقوله : ﴿ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الأحقاف:١٣] .

يشير إلـى الكمال النفسـانى . وهو : معرفة الحق لـلاهتداء به . ومعرفـة الخير لأجل العمل به . . .

ومن معانى الاستقامة : تجنب الإفراط والتفريط معًا . . ثم الالتزام بالوسط وهو خط أمة الوسط وقدرها .

وقد شاءت إرادة الله لها أن تبقى فأقامها تعالى برحمته وفضله على الخط الوسط المستقيم ، فـكانت فى « وسطيتها » ممنوعة من الـسقوط أو التآكل وكانت باستـقامتها موفِّرة طاقاتها فلاتبددها فيما لا يفيـد ؛ لأن الخط المستقيم هو كما يقول الرياضيون : أقصر مسافة بين نقطتين . . .

ومن معانى ذلك : وصولها إلى أهدافها رأسًا «بأقل » التكاليف .

وهو الأمر الذى بسببـه يركز الأعداء علينا اليوم حسدًا وحقدًا علـينا ولكنا تغلبنا عليـهم فى الوقت الذى نعـطى فيه السـطحيون ، ونـقرأ فى ذلك قولـه عز وجل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ .

له : ادخرها لشيخوختك . . . إن كلا طرفى قصد الأمور : ذميم !!

ورحم الله الشاعر القائل :

فوفر دموعك لا تمحها فبين يديك زمان طويل

من مشاهد الاستقامة :

يوسف فى مواجهة ضغوط امرأة العزيز . . . ، ومريم . . . لما وجدت نفسها فى مواجهة شاب قوى سوى ، فقالت ما حكاه القرآن الكريم عنها : ﴿ **إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا** ﴾ .

ثم هذا الـذى ضاع منه درهـم . . . ولما رجع وجده فـى الطريق . . ولكـنه لم يأخذه فربما لم يكن درهمه الذى ضاع منـه . . . يفعل ذلك وهو فى أشد الحاجة إليه فى حارس حديقة الرمان الذى جاع . . . ولكنه لم يأكل مما ائتمن عليه !!

كل ذلك دليل يؤكد أن الاستقامة وإن كانت مرتقى صعبًا وعرًا . . . لكنَّ المؤمن بعزيمته الإيمانية قادر على أن يحتفظ بتوازنه مهما كانت القمة عالية ومدببة !!

﴿ **إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى** ... ﴾ لكل من أراد أن يكون مستقيمًا !!

معركة الاستقامة :

يقـول الله عـز وجل : ﴿ **وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧)** ﴾ [الجن : ١٦ ، ١٧] .

والمعنى : أنَّ الـصلة وثيقـة بين الاستـقامة وغـلاء الأسعار واخـتفاء السـلع من الأسواق ، فالأمـة التي تستـقيم على طريق الحـق . . . ملتزمة بطـاعة ربها سبـحانه وتعالى . . . يحميهم الله تعالى من البلاء والغلاء بالماء الكثير . العظيم النفع .يكثر به الرزق وتزين به الأرض ويرغد به العيش .

وكان ذلك الإنعام أولاً : فضلاً منه تعالى ورحمـة . . وثانيًا : امتحانًا يستخرج الله تعالى به ما فى طبائع الناس من حسن ومن قبح . . . بمعنى : أنه ينكشف عندئذ مَنْ الشاكر ومن هو الـكافر . . . وقال عمر رضى الله عنه : أينـما كان الماء . . . كانَ المال . . . وأينما كان المال ـ كانت الفتنة !!

• وقال الحسن وغيره : كانوا سامعين مطيعين . . . ففتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر . . . ففتنوا بها . . فوثبوا بإمامهم فقتلوه ـ يعنى عثمان رضى الله تعالى عنه.

ويعنى هذا ـ كما تشير الآية الكريمة ـ أن من تنكب طريق الاستقامة معرضًا عن شكر النعمة . . . فإنَّ له مع العذاب . . . والضنك موعدًا لا يخلفه : تغمره موجات الغلاء رويدًا رويدًا . . كلما تمادى فى جحوده لأن تعوّد الإعراض ماضٍ بالأمة إلى الضيق . وضنك العيش من سيِّئ إلي أسوأ كما قال عز وجل : ﴿ **وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا** ﴾ [طه: ١٢٤] .

وإذن . . . فمفتاح الرخاء فى أيدينا . . . وبه نستطيع التخلص من هجمة الغلاء وهو : ذكر الله تعالى بصفات كماله وجماله . . . وإلاّ فإنَّ نسيان ذلك مؤدٍّ بالأمة إلى الغلاء . . . أو إلى البلاء .

وحتى نكون « موضوعيين » فى حمل مسؤوليتنا فعلينا أن نأتى البيوت من أبوابها وبدل أن نرضى غرورنا بالبحث عن « شماعة » نعلق فيها أخطاءنا . . . فلنعد بالبحث فى أنفسنا . . ففى أعماقها الأسباب والأبواب !!

يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ** ﴾ [الحج: ٣٨] ولقد سوّل الكفر والخيانة لقوم أن يسيؤوا إلى النبىّ ﷺ . فدافع الله تعالى عنه دفاعًا حقق به سبحانه من النتائج عكس ما كان يريد الكافرون ونذكر من ذلك :

ذكر الحافظ ابن كثير أنَّ رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى يدعوه إلى الإسلام ، وأنَّ كسرى مزّق الكتاب وكتب إلى « باذام » : أما بعد ، فإذا جاءك كتابى فابعث من قبلك أميرين إلى هذا الرجل الذى بجزيرة العرب الذى يزعم أنه نبىّ فابعثه إلىَّ فى جامعة ، فلما جاء الكتاب إلى باذام بعث من عنده أميرين عاقلين وقال : اذهبا إلى هذا الرجل فانظرا ما هو ، فإن كان كاذبًا فخذاه فى جامعة حتى تذهبا به إلى كسرى، وإن كان غير ذلك فارجعا إلىَّ فأخبرانى ما هو ، حتى أنظر فى أمره ، فقدما على رسول الله ﷺ إلى المدينة فوجداه على أشد الأحوال وأرشدها ، ورأيا منه أمورًا عجيبة ، يطول ذكرها ، ومكثا عنده شهرًا حتى بلّغا ما جاءا له ، ثم تقاضياه الجواب بعد ذلك ، فقال لهما : « ارجعا إلى صاحبكما فأخبراه أن ربِّى قد قتل الليلة ربَّه » .

فأرخا ذلك عندهما ثم رجع سريعاً إلى اليمن فأخبرا باذام بما قال لهما ، فقال : أحصوا تلك الليلة . فإن ظهر الأمر كما قال فهو نبى . فجاءت الكتب من عند ملكهم أنه قد قتل كسرى فى ليلة كذا وكذا ، لتلك الليلة .

وقام بالملك بعده ولده يزدجر . وكتب إلى باذام : أن خذ لى البيعة من قبلك ، واعمد إلى ذلك الرجل فلا تهنه وأكرمه ، فدخل الإسلام فى قلب باذام وذريته من أبناء فارس ممن باليمن ، وبعث إلى رسول الله ﷺ بإسلامه ، وبعث إليه رسول الله ﷺ بنيابة اليمن بكاملها ، فلم يعزله عنها حتى مات ، فلما مات استناب ابنه شهر ابن باذام على صنعاء ، وبعض مخاليف ، وبعث طائفة من أصحابه نوابًا على مخاليف أخر ، فبعث أولاً فى سنة عشر ، عليًا وخالدًا ، ثم أرسل معاذًا وأبا موسى الأشعرى وفرق عمالة اليمن بين جماعة من الصحابة ، وبعث معاذ بن جبل معلمًا لأهل البلدين ـ اليمن وحضرموت ـ يتنقل من بلد إلى بلد ، قال : ذكره سيف بن عمر ، وذلك كله في سنة عشر ، آخر حياة رسول الله ﷺ .

على « ولى الأمر » إلا إذا رأى كفر بواحًا .

الحزم والجد فى تناول الأمور : ذلك بأنّ « الموحد » عرف هدفه . . ووسيلته إلى ذلك الهدف . . فحرص على عمره . . مستغلاً كل لحظة فيه منطلقًا من إيمانه بالجزاء .

ثم هو يعمل ويحب ويكره . . ولكن لله تعالى وهو سعيد . . حتى وهو مريض إنّ فى التوحيد راحته النفسية التى تعلو فوق نباح الألم ، ففى الشرك تمزق وفساد وصدق الله العظيم : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ .

ويعنى ذلك كله : أنّ التوحيد هو جوهر الحياة . . . ومعرفتنا بحقيقة الصفات العلية أساس حضارتنا . هذه المعرفة هى : العلم الذى يهتف بالعمل . فإن أجابه . . وإلا رحل .

ومن آثار ذلك : سعادة الأسرة والزوجين بالذات ، وإذن . . . فواجبنا هو تربية أولادنا . ومن جعلنا الله تعالى أولياء عليهم لينشأ ناشئ الفتيان على إدراك معنى التوحيد . والعبادة .

وللأسف الشديد : قد ترى الناشئ فى المسجد يتلو القرآن . . ولكن !! ولكن

تعامله مختلف . . . لأنه لم يفهم معنى التوحيد !!

إننا ضعفاء . . إلا بربنا الواحد الأحد . . . الأمر الذى يفرض علينا أن نتذلل إليه سبحانه وتعالى كلما خلا كل واحد منًّا بنفسه فى مناجاة هى أجمل ما فى هذه الدنيا .

أما في الآخرة . . . فأملنا الجنة : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ ﴾ .

أ ـ فما حقيقة هذا الإيمان .

ب ـ وكيف نكتسبه ؟

حقيقة الإيمان :

١ ـ حقيقة فى القلب تصديق جازم . والانفعال بنتيجته : ﴿ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات: ١٥] ثم ظهرت آثاره عليهم : وجلاً . . وخوفًا منه تعالى .

٢ ـ اللسان يعلن الالتزام بالإيمان شعاراً ودثاراً .

٣ ـ يترجم السلوك هذه الحقيقة .

٤ ـ ولن يستقر الصديق إلا بالعلم . . . ولا علم بلا دليل . . أو بنور يقذفه الله تعالى في القلب ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ ... ﴾ [محمد: ١٩] ، ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ ... ﴾ [محمد: ١٩] وهو معنى العمى .

كرامة الإنسان

كان « جعفر الصادق » رضى الله عنه يقول : « نظرت إلى المعروف فوجدته لايتم إلا بثلاث : تعجيله وستره وتصغيره » .

فإنك إن عجلته ... هنأته (١) ... وإن سترته ... تمّمته ... وإذا صغرته .. عظمته .

وقد كان أمير المؤمنين « علىّ رضى الله عنه » ممن تعلم منهم « جعفر الصادق » هذه الخلال .. فبينما كان رضى الله عنه - أيام خلافته - جالسًا فى ضواحى المدينة إذ وفد عليه أعرابى يسأله حاجته ... والحياء يمنعه أن يذكرها ، فخط بعصاه على الرمل هذين البيتين :

لم يبق عندى ما يباع بدرهم
تنبيك حالة منظرى عن مخبرى
إلا بقية ماء وجه صنتُه
عن أن يباع ... وقد أبحتك فاشتر !!

ولما قرأها الخليفة جاءه رسول الخليفة يخبره : أنّ نصيب أمير المؤمنين من الغنيمة من الفضة محمول على أربعة جمال بباب المدينة وقال : هى لهذا الأعرابى ... ثم أرسل إليه هذين البيتين :

وافيتنا .. فأتاك عاجل برِّنا
فاهنأ ... ولو أمهلتنا لم نقتر
فخذ القليل وكن كأنك لم تبع
ماء الحياة وكأننا لم نشتر !!

وهكذا ندرك كيف كانت حكمة جعفر رضى الله عنه لما رأى من كرم الخليفة علىّ رضى الله عنه .. مما يؤكد أنّ المعروف لم يكن كلامًا يقال أو يكال .. ولكنه

---

(١) بتخفيف النون : ساغ ولذ أو بلا تعب ولا مشقة .

كان كرمًا . . وتكريمًا فى نفس الوقت .كان كرمًا : يجود ولو بكل ما يملك الإنسان.

وكان تكريمًا . . . حين حاول الخليفة من مركـزه العالى أن يشعر السائل بأنه يأخذ حقه بلا منة من أحد .

أسوة فى تربية الأولاد :

كان « الكسائى » يقـوم بتربية أولاد « هـارون الرشيد » ولـم يكن . . . هارون الرشيد فقط رجل دولـة . . ولكنه قبل ذلك كان مربيًا بدليل هـذه الرسالة التى بعث بها إلى الكسائى لتكون منهجًا يسير المربون عليـه : كتب إليه يومًا يـقول : (أقرئه القـرآن . وعرفـه الآثار . وروِّه الأشعـار . وعلمـه السنن . وبـصِّره بمواقـع الكلام وبدئه. . .) .

ثم وبعد هـذا الإعداد النظرى يجىء دور التربية العـملية وذلك قولـه فى نفس الرسالة : (. . . وامنعه من الضحك . . . إلا فى أوقـاته . . . وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا عليه .

ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلـسه . . . ولا تمرَّن به ساعة إلا وأنت مغتنم منها فائدة تفـيده إياها . . . من غير أن تخرق به . . . فتـميت ذهنه . . ولا تمعن فى مسامحته . . . فيستحلى الفراغ ويألفه .

وقوّمه ما استطعت بالقرب والملاينة . . . فإن أباهما ؛ فعليك بالشدة والغلظة).

وبهذا المنهج صـار التلميذ « موسوعيًا » ولقد كان « ابن سينا » حكيمًا فيلسوفًا ومع ذلك فقد كانت له دراية بالموسيقى .

أولادنا ... بين الوقاية ... والعلاج :

يقول الله عـز وجل فى سورة طه : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ...﴾ [طه: ١٣٢] فالاصطبار على الصلاة : هو الوقاية .

والعلاج هو : ﴿ قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ .

الكسل هو :

أن يقول الطفل : عندما أكون غلامًا أفعل .

ويقول الغلام : عندما أكون شابًا أفعل .

كيف نتعامل مع العصاة ؟ :

يختلف منشأ المعصية لدى العصاة . . . وبالتالى يختلف أسلوب مواجهتهم ؟

فقد يكون منشأ المعصية : ضعف الإرادة كما كان آدم عليه السلام .

وقد يكون المنشأ : فساد التصور كما كان إبليس عليه لعنة الله .

وقد يكون الباعث التجاهل ، وقد يكون « الجهل » : وهذا بعض ما يفهم من قوله عز وجل : ﴿ **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ** ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ** . . . ﴾ .

﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ .

وإذن . . . فلابد من دراسة بواعث المعاصى . . . ليكون التوفيق إلى الوسيلة المناسبة . . . وإلاَّ . . . فإنَّ العشوائية فى اختيار الأسلوب تضر بالدعوة ذاتها !!

الجاهل : تأخذ بيده لتنقذه من الحفرة التى تردى فيها . . . والمتجاهل : لا تخرجه من حياتنا بالمرة . . . وإنما تعود إليه بين الحين والآخر . . . وبطريق غير مباشر ؟ !

تقديم

يقولون : إنَّ الكتب حصن العقلاء ، إليها يلجأون . . . وفى بستانها يتنزهون .

ورأس العجز : أن تقيم فلا تريم . . . أن تظل جامدًا فلا تبرح .

إنك عندئذٍ تصير ماء آسنًا .

وأنت مطالب أن تتحرك . وفى الاتجاه الصحيح . . وفى صحبة الأخيار . . تقتبس من فكرهم وتختار .

ألا إنَّ أجمل شيء فى الدنيا : أن تتنزه فى عقول الآخرين ! لتضيف من أعمارهم إلى عمرك . . . ومن تجاربهم . . إلى تجاربك .

وهذه الصفحات التى بين يديك أيها القارئ العزيز ، ليست نزهة فى عقول الآخرين فقط . . . ولكنها أيضًا نزهة فى قلوبهم ، كيف يشعرون ؟

وفى سلوكهم . . ماذا يعملون ؟

ولا يضيرك أن تتريض فى البساتين ثم تحمل من ثمارها وزهورها ما تهديه إلى الآخرين .

إنك إن تقتبس من كاتب واحد : فهذه سرقة ، وإن تقتبس من ألف كاتب : هذه ثقافة .

ثقافة : لا تكون بها مجرد . . . ساعى بريد ، ينقل فقط ، ثم تنتهى مهمته .

ولكنه يضيف من عقله إلى فكره .

ومن حرارة عواطفه . . إلى الموقف . . فإذا أنت أمام شيء جديد . . قد تراه كل يوم . . وقد تسمعه . . ولكنك لا تحس بجماله .

وإذا بالكاتب يحمله إليك مضمخًا بروحه وبذوقه فإذا هو شيء جديد كهذا الغاز الخامل والذى يمضى عبر شرارة كهربية فإذا هو فعّال . . إيجابى .

إن بائع الزهور . . لا يخلق الزهر . . كما وأنه لا يوزع ألوانه .

وإنما ينحصر دوره فى :

١ ـ نوعية اختياره .

٢ ـ ثم . . فى التنسيق بين الألوان لتبدو الطاقة جميلة تسر الناظرين .

كذلك المؤلف : إنه لا يخلق . وإنما يؤلف . . وليس مجرد جامع للأفكار .

ـ إنَّ النملة تجمع . . ثم تحتفظ بما تجمع وبلا تغيير .

أما النحلة : فإنهـا تجمع . . ثم تهضم . . ثم تخرجه من بطونها شـرابًا مختلفًا ألوانه .

وقد حاولت أن أكون هذه النحلة .

ـ فربما رويت الموقف . . أو الفكرة بأسلوب جديد . . وتوزيع جديد .

وقد يقوم « الممثل » بدور . . ومع أنه يقـول كلامًا صيغ له . . لكنك وأنت تراه أو تسمعه تنسى أنه الإنسان الذى تعرفه . . من فرط اندماجه فى الدور !

إننى أتعجب من النملة ! ولكننى معجب بالنحلة .

أما بعد :

فهذه نزهة المؤمن . نزهـته : التفكير ، وربيعه : الشتـاء ، إن ليله طويل ، فهو يقومه ، ونهاره قصير ، فهو يصومه .

لقد سجلت فى هذا الكتاب ما تـرامى إلىّ من أفكار ومعان وأذواق . . لمتحدثين وكتاب لا أعرفهم .

وإنما كنـت أفتح المذيـاع فإذا بى أمـسك بأهداف فكرة يـختم بهـا متـحدث . . حديثـه. فأسرع بتـسجيلـها ، أو أستمع إلـى متحدث لا يـكاد يبدأ حتـى تطوح به «الموجة» إلى حيث لا أتبين حديثه من بعيد .

وكنت أهرع إلى قلمى أسجل ما علق بذهنى ، لأخرجه من بعد إخراجًا .

وقد كـنت أضيف إلى الـفكرة من فـهمى الخـاص ، ولقد ترى أفكـارًا هى من إنشائى أساسًا .

وعلى أى حال فهو لون من التأليف ، يبدو فى النهاية رحلة ممتعة . . عبر العقول . . والقلوب . . يفر بالقارئ من عمق القراءة المتخصصة المتعمقة . . . إلى حيث الطبيعة الساجية ، استجمامًا . . تنطلق بعده النفس إلى الجاد من أمورها . . بعد أن تكون قد نفضت عن كاهلها هموم العمل . . فى صحبة أمل . . يزدهر به العمل .

أما بعد :

[فما كان فيه من حق وصواب . . فمن الله . . وهو المانّ به .

فإن التوفيق بيده .

وماكان فيه من زلل . . فمنى . . ومن الشيطان .

والله ورسوله منه براء .

يا أيها القارئ له . والناظر فيه : هذه بضاعة صاحبها المزجاة . مشوقة إليك .

هذا فهمه وعقله معروض عليك . لك غنمه ، وعلى مؤلفه غرمه . ولك ثمرته وعليه عائدته . فإن عدم منك حمدًا وشكرًا . فلا يعدم منك عذرًا .

وإن أبيت إلا الملام . . فبابه مفتوح . . وقد استأثر الله بالثناء وبالحمد .

وولى الملامة الرجلا . والله المسؤول أن يجعله لوجهه خالصًا .

وينفع به مؤلفه . . وقارئه . . وكاتبه . فى الدنيا والآخرة . إنه سميع الدعاء .

وأهل الرجاء . وهو حسبنا ونعم الوكيل] [1] .

د . محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

---

(١) طريق الهجرتين ، لابن القيم : ٦ ، ٧ .

ولأن القواد هم رموز الأمة التى اختارتهم لها رموزًا ، ولأن الناس على دين قوادهم ، فقد حاول بعض العلماء بيان طبيعة كل شعب من خلال تصرف قائده .

اجتمع ثلاثة قواد : هتلر ، وموسيلينى ، وتشرشل أمام بحيرة سمك .

فحاول « هتلر » صيده بالرصاص . . . وحاول « ستالين » أن يمسكه بيده . . ففشلا معًا .

لكن « تشرشل » أمسك بملعقته ينزح بها الماء قائلاً :

قد يطول الزمن . . لكننى سأصطاده أخيرًا .

من طبائع الشعوب

الإباء فى الطبيعة المصرية :

رفض السحرة ـ المصريون ـ رفضوا وصاية فرعون على رأيهم وعقيدتهم !

كانت « هاجر » مصرية . . لكنها بالإيمان صارت قدوة فى الخير .

كانت : مؤمنة ، فقيهة ، أُمًّا رؤومًا . . وحكيمة فى نفس الوقت .

مرَّ بها « جرهم » واستأذنوها فى الإقامة عندها . . لإيناسها . ثم الانتفاع معها بالماء ، فقبلت . . لكنها اشترطت ألا يكون لهم حق فى الماء ، فوافقوا .

فانظر كيف كانت « امرأة » . . وامرأة واحدة . لكنها فرضت احترامها على العصبة أولى القوة .

الاستسقاء :

هو تكريم لنبيه . . بإجابة دعائه : فقد جاءه الرجل يشكو الجفاف . . فدعا . . فنزل المطر .

ثم جاء نفس الرجل يشكو من غزارة المطر . . فدعا ﷺ : « **اللهم حوالينا** » .

وبالإضافة إلى هذا التكريم فإن الاستسقاء رد على الملحدين الظانين بأن المطر مرتبط بالنجوم . ثم هو رد على الجغرافيين الذين يقننون ، فيقولون : ظاهرة المطر راجعة إلى : البحر . . والشمس .

هذه تبخر ذاك . . فتنعقد السحب التى تنزل من بعد مطرًا ، ولكن الاستسقاء يثبت أن المطر . . بقدرة الله . . وإمساكه أيضًا بقدرته !

أدب الحلف :

قال ﷺ : « **إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفًا ، فليحلف بالله أو ليصمت** » ، وقال : « **من حلف بغير الله فقد أشرك** » .

قالوا : الحلف : توكيد العزم على ترك ، أو فعل بذكر الله تعالى . أو صفة من صفاته ، على نحو يمنع الحالف من مواقعة المحلوف عليه .

وهذا إنما يكون لله تعالى وحده .

والحلف بالآباء : يعنى عبودية الحالف لغيره سبحانه وتعالى .

ولذلك سُمى الحالف بغيره سبحانه مشركًا .

التحذير من كيد الشيطان

﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) ﴾ [طه : ١١٥] يحذر الحق تعالى آدم من كيد الشيطان .

ويلاحظ أنه تعالى لم يقل له : حذار من كيده لتظل طاعمًا شاربًا . ولكنه سبحانه يركز على أضداد ذلك . . إضافة له . حتى لا تنحل عروة عزيمته .

وقد استنتج الفقهاء : أنه لا حق للزوجة على زوجها إلا هذه الأصول الأربعة ؛ لأن بها بقاء الحياة ، وهى : الطعام ، والشراب ، والمسكن ، والكسوة ، وما زاد فلاحق لها فيه .

وذهب الحنفية : إلى أنه لاحق لها فى التطبب إذا مرضت .

المبادئ ... فوق المنافع :

أورد ابن القيم ما يرويه بعضهم : « من أحب وعف وكتم فهو شهيد » . أقر معناه . وطعن فى سنده .

قال ﷺ : « **من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن**

قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد » .

يرشد الحديث إلى : استرخاص الحياة فى سبيل الكرامة ، والمبدأ ، والحرية .

أما انتحار المغنية . . أو المعجب بها . . فهو الهلاك . والإلقاء بالنفس إلى التهلكة. (راجع الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى) لابن القيم .

العلم .. لمن يستحقه :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى

ولا أنثر الدر النفيس على البَهَمْ

فإن قدر الله الكريم بلطفه

ولاقيت أهلاً للعلوم وللحكمْ

بذلت علومى . . واستفدت علومهم

وإلا فمخزون لدىّ ومكتتمْ

فمن منح الجهال علمًا . . أضاعه

ومن منع المستوجبين فقد ظَلَمْ

سأل جاهلٌ عالمًا . . فلم يجبه . فقال له الجاهل : . . أما علمت أن من كتم علمًا ألجمه الله تعالى بلجام من النار .

فقال له : ضع اللجام هنا . . فإذا كتمته عن فاهم فألجمنى به !

سد باب الغرور

يقولون : إن أجمل صوت فى الدنيا . . صوت إنسان يمدحك ، وقد وقع فى هذا الشَّرَك كثير . . فاستسلموا للمديح .

وكان هذا الاستسلام سبيل الشيطان إلى دخول القلب .

والإسلام يسد منافذ الغرور الناشئ من الثناء ولو كان المثنى محقًّا .

وقد بلغ فى سد الذرائع هنا مبلغًا عظيمًا :

فقد منع أن يكون الإمام فى مكان مرتفع ، ولكن لا بأس أن يقف المأموم فى

مكان مرتفع من حيث مظنة الغرور فى الأولى . . وغيابه فى الثانية .

وقد قال علماؤنا فى تفسير قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ... ﴾ [الأعراف:٩٨] .

قالوا : تكون الاستعاذة بعد الفراغ من القراءة تجنبًا للعجب والغرور .

حب الوطن :

قال عمر رضى الله عنه : لولا حب الوطن لخربت بلاد السوء ، وقد قالوا : من علامة مروءة الرجل : حنينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى خلانه ، والتلهف على ما مضى من زمانه .

ومن تجاربى : كان من أسباب تقديرى للرئيس السادات حنينه إلى قريته ، وخيركم خيركم لأهله ، ومن لا عاطفة تربطه بمسقط رأسه . . فلا عزيز لديه بالمرة .

أجوبة مسكتة .. محرجة للمتحذلقين :

مدحه رجل كاره له ، فقال له الإمام : أنا دون ما ذكرت ، وفوق ما فى نفسك .

وقيل للحسن يومًا : ما ألين ثوبك ؟ فقال : لِينُ ثوبى . . لا يباعدنى عن الله ، وخشونة ثوبك . . لا تقربك منه ، إن الله تعالى لا ينظر إلى صورنا .

الانفطار :

١ ـ انقلاب كونى .

٢ ـ ثم انقلاب نفسى ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ (١٤) ﴾ .

٣ ـ ما غرّك : عتاب رقيق .

٤ ـ لحافظين . . فلا نِسْيان

٥ ـ وإذن : فلا تعصى الله تعالى : حتى لاتحرج الملكين . . وفوق هذا وقبله . حتى لا تغضب الرحمن . . وترضى الشيطان .

الربيع الدائم :

ولد ﷺ فى ربيع . . وبعث فى ربيع . . وتوفى فى ربيع .

وإذن فحياته من ألفها إلى يائها ربيع دائم . وحياته ﷺ لم تكن لنا وحدنا . . فقد كان رحمة للعالمين ، ومن واجب من ليس على متن أن يرد إليه الجميل ، فيحتفل بميلاده معنا .

هذا هو الاحتفال الذى لا يكفى فيه يوم واحد . . وإنما هو الاحتفال الدائم . . نظير عطائه الذى لم يكن يومًا ، وإنما كان دومًا !

وإذا كان شهر ربيع هو شهر الرسول ﷺ فإن « رمضان » هو شهر الرسالة . . شهر القرآن . . والذى ولد به الإنسان .

ويبقى أن يجدد المسلم حياته بالقرآن . . فى رمضان .

مع الإمام محمد عبده :

فسر محمد عبده قوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) ﴾ فأشار إلى أنَّ هناك هدايات أربع . . تبدو منظومة متناسقة :

- العقل . . والنقل .
- والتجربة . . والوجدان .

الحلم :

الحلم على خمسة أوجه :

١ ـ حلم غرزى : وهو هبة من الله عز وجل للعبد ، يعفو عمن ظلمه . ويصل من قطعه ، ويعطى من حرمه ، ويحسن إلى من أساء إليه .

٢ ـ حلم تحالم : به يكظم غيظه رجاء الثواب . وفى قلبه الكراهية .

٣ ـ حلم كبر : لا يرى المسىء أهلاً لأن يجاريه .

٤ ـ حلم مذموم : رياء وسمعة . وهو حاقد .

٥ ـ حلم مهانة وذل .

يقول العارف المسلم :

يا زمن . . . وفيك كل الزمن ! كيف ؟ يقول ذلك وهو يصلى الظهر مثلاً ، بينـ غيره فى مكان آخر . . يصلى . . وغيرهما يهتف : الله أكبر .

وغيرهم يقول : سمع الله لمن حمده .

وفى نفس اللحظة هناك من يسلّم .

وهم جميعًا بالصلاة يعبدون الله تعالى فى كل لحظة حسب وقت الصلاة . . بتغير المطالع .

الكافرون .. النافرون من الحق :

لا يلتزمون بالمحجة . . فلزمتهم الحجة .

لا يقتلون النفس بالسلاح ، بل بالشهوات .

أما المؤمنون فهم : لا يشهدون مجالس اللهو ، ولا يشهدون للباطل ، تمكينًا لجبهة الحق . . وإضعافًا لجبهة الباطل .

يمرون باللغو . . . مروا كرامًا . . . يكرمون أنفسهم . . بشعورهم بتفاهة ما يرون وما يسمعون .

ومع ذلك فقد يزعم الكافرون ـ غرورًا ـ بأنهم سبقوا . وأنهم دائمًا فى المقدمة . ولكننا نقول لهم : إنه سباق تجرون فيه وحدكم . . من أجل ذلك تظنون أنه لا يلحق بكم أحد ؟ !!

أبو بكر رضى الله عنه :

كان أبو بكر رضى الله عنه صديقًا للرسول ﷺ . صداقة المجانسة والمؤانسة . . والتقارب فى السن .

ثم صار صديق العقيدة التى قد تكلف صاحبها حياته ، يقدمها . . لتبقى المبادئ .

ولذلك فداه بنفسه فى الطريق إلى الغار . . وفى الغار مع أنه لم يكن قد نزل من

القرآن ما يعمق هذا الإيمان والسر :

١ ـ الفطرة المنسجمة مع الحق .

٢ ـ شخصية الداعى .

أ ـ أهدافه .

ب ـ وسائله .

هذه الشخصية التى استقطبت من كل قبيلة ، ما يؤكد أنَّ الحكم لله . . وليس للقبيلة .

الشفاعة :

الشفاعة: موقف خطير . . والعظائم كفؤها العظماء ، وإذن . . فلا شفيع إلا : من أذن له الرحمن ، ورضى له قولاً .

أما أن يكون الشافع فى حاجة إلى شفيع كما يحدث فى الدنيا مزوِّر يشفع لمزوِّر فذلك مالا يكون !

إن بعض الناس يتصور « الشفاعة » وساطة بين العبد وربه ، وليست كذلك ، والمؤهل لها من عمل صالحًا . . مصلحًا ، فوجاهة الدنيا . . لن تكون من أسبابها . والمهم هو العمل . (وأحسن من عقد المليحة . . جيدها) .

المعركة مع الشيطان :

﴿ **لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ** ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧] .

لم يذكر من الجهاد : فوق . . وتحت . . ويعنى ذلك : أن من لزم مكانه الأدنى من ربه الأعلى . . لن يستطيع الشيطان أن يدخل عليه .

وقوله : ﴿ **صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ : يحصن بوسوسته من على سجادة الصلاة وداخل الحرم . . لأن الصفقة رابحة ـ لو نجح فى إغواء هذا الصنف .

أما المنحرفون . . فهم جاهزون . . بل قد وقعوا فعلاً شباكه . وانتهى منهم!

منغصات الحياة :

قالوا : ستٌّ يضنين . . بل يقتلن :

١ ـ انتظار المائدة .

٢ ـ دمدمة الخادم .

٣ ـ السراج المظلم .

٤ ـ الوكف من أول الليل إلى آخره .

٥ ـ وخلاف من تحبه .

٦ ـ النظر إلى بخيل .

معنى المفردات :

دمدمة الخادم : غضبه .

والوكف : مطر ينزل قطرة قطرة .

إنَّ الجوع صارخ من الداخل يقض مضجعك ! وقد قالوا : أجمل صوت عند جائع : صوت المقلاة . وأجمل ريح : ريح الشواء .

والمفروض فى الخادم أنه يعين سيده لا أن ينكد عيشه

من مجالس الصحابة :

عن سعيد بن أبى بردة ، عن أبى بردة ، عن أبيه ، قال : صلينا المغرب مع رسول الله ﷺ ، ثم قلنا : لو جلسنا حتى نصلى معه العشاء . . قال : فجلسنا . . فخرج علينا ، فقال : « **ما زلتم هاهنا ؟** » قلنا : يا رسول الله : صلينا معك المغرب، ثم قلنا : نجلس حتى نصلى معك العشاء .

قال : « **أحسنتم أو أصبتم** » . قال : فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيراً ما يرفع رأسه إلى السماء . فقال : « **النجوم أمنة للسماء . فإذا ذهبت النجوم ، أتى السماء ما توعد . وأنا أمنة لأصحابى ، فإذا ذهبت ، أتى أصحابى ما يوعدون ، وأصحابى أمنة لأمتى ، فإذا ذهب أصحابى أتى أمتى ما يوعدون** » .

هذا واحد من مجالس الصحابة رضوان الله عليهم . حافل بالدروس والعبر .

شاهد فى نفس الوقت بما كانت تشى به تلك المجالس من بركة وبر .. الأمر الذى يتقاضانا التنقيب عن مثل هذه المواقف ، لنقيس عليها حياتنا اليوم .. فى محاولة لتسديد خطانا على الطريق على ضوء ما تدل عليه من آداب تؤكد أنه كان من تدبير الله تعالى لحفظ دينه وكتابه أن بدأ الإسلام بمثل هذا الطراز الفريد من الرجال، الذين تحملوا تبعات هذه البداية .. وما كان فيها من تبعات وتضحيات .. شاهدة بأن هذا الدين لو بدأ بنا نحن اليوم لما وصل إلى الحياة اليوم .. ثم .. كيف كان الرسول ﷺ فى حياة هؤلاء الرجال الكرام ... كيف كان نبعًا رائعًا صافيًا .. سرى فى قلب كل صحابى ، فكان الصحابة به نهرًا يتدفق بالحياة .. يمد هذه الحياة بالرى والخصب والنماء .

وقفات :

بين يدى الحديث الشريف

ويتقاضانا الوفاء لسلفنا الصالح .. ولتاريخنا هذا المجيد يتقاضانا أن نقلب صفحاته اليوم .. استنباطًا للدروس التى نجدد بها ما أبلى الزمان من حياتنا .. بقدر ما نرد به كيد من أراد النيل من هذا الجيل الذى ندين له بالحياة .

وأول ما يطالعنا هو : أن الراوى هو سعيد بن أبى بردة ، عن أبيه ، عن جده ، وإذن .. فنحن أمام صورة لتسلسل الرواية بين الآباء والأبناء فى إطار أسرة تتعاون على البر والتقوى .. وتواصيها بالحفاظ على الأمانة .. ثم نقلها إلى الأجيال من بعدها نقلاً تبقى به الدعوة دائمة العطاء .

وإذا كان بعض الآباء اليوم حراصًا على أن تخلفهم ذرياتهم فى نفس الوظيفة .. مهما ترتب على ذلك الحرص من أثرة يحرم بها صاحب الحق من حقه .. إذا كان الأمر كذلك .. فإنَّ سلفنا الصالح كانوا حراصًا على أن يكون الابن قناة من قنوات العلم ، يتم عبرها نقل هذا العلم إلى المستقبل .. مهما كانت وظيفته .

المهم هو العلم والأخلاق .. يتسلح بهما النشء ولا علينا بعد ذلك ما يكون

مادام ذلك طريق الجميع إلى الصحبة المباركة فى الدنيا والآخرة .. وفى جنات عدن.

وذلك قوله عز وجل : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ [غافر:٨].

الإصلاح .. وما يترتب عليه من خلود فى الجنة .. وليست هى التى يحصل بها الولد على وجاهة فى الدنيا .. ثم هو فى الآخرة .. وصدق القائل :

العلم عن آباء صدق ونورثه إذا شئنا بنينا .

قد صلى الرفاق صلاة المغرب .. كان هذا الاقتراح من أحدهم بالبقاء لصلاة العشاء لتحقيق أملين :

صلاة العشاء فى المسجد جماعة .

وبالذات .. مع رسول الله ﷺ .

كان ما ووفق على الاقتراح : فالأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف ، إذا كان الصحابة رضوان الله عليهم : كانوا أرواحًا مؤتلفة ... فأين هذا الائتلاف على ناس اليوم الذين لا يكادون يخرجون من ...... حتى يهربوا إلى دور السمر فأرواحهم هناك ... ومتعتهم هناك !! وكانت قلوب الصحابة معلقة بالمساجد .. بخاصة فى صحبة رسول الله ﷺ .

رآهم ﷺ .. ظهرمن سؤاله : « أنتم هاهنا ؟ » ظهر مدى سروره بمشهدهم ، لا الاستفهام المفعم بالإعجاب والتقدير لهم . إذا كان هذا التقدير وذلك الإعجاب ؟

فالمشهد الفريد صورة من صور التعلق بالمسجد ، وبالذات وفيه رسول الله ﷺ .

ثم هو من ناحية أخرى : هروب من فتن الحياة الدنيا .. إيثارًا لبيت الله على كل متاع ، وهو عنوان محبة رسول الله ﷺ .. وتفضيله على ما سواه وبالتالى : كان هواهم تابعًا لهواه .

لاحظ شك الراوى .. الذى قال : « أحسنتم .. أو أصبتم » لتظهر لك مدى... ؟؟ الاحتياط .. حتى سمعنا من آثار ذلك نبأ ذلك الرجل الذى اعتذر عن الحديث مما كذب على حمله !

تعلق هؤلاء الصحابة بالمسجد يعنى : يظل القلب موصولاً بالله تعالى . . ويعف اللسان فلا يكون فاحشًا متفحشًا ، به تفر خواطر السوء . . من حيث لا مجال لها فى هذا الجو الطهور .

إعادة تركيب النفس لتستأنف الحياة من جديد أكثر ما تكون إقبالاً بها وتسخيراً لها .

ولاحظ نظره ﷺ إلى النجوم فى السماء . . وما فيه من عظم الأنظار إلى مشاهد الكون . . التى تجعل النفس أكثر تفتحًا . . وأعظم تفاؤلاً .

بالإضافة إلى أن هذه المحسوسات تجعل المعانى المجردة أكثر رسوخًا وتمكنًا إلى جانب كونها فى باب التربية وسيلة من وسائل الإيضاح .

النجوم أمنة السماء ، فالنجوم مادامت باقية . . فالسماء باقية ، فإذا انكدرت النجوم . . وتناثرت فى القيامة . وحنت السماء . . فانفطرت ، وانشقت ، وذهبت .

والرسول ﷺ أمن لأصحابه مادام فيهم حيًا ، فإذا ذهب . . جاءت الفتن والحروب والردة . وتنافر القلوب .

والصحابة أمان لهذه الأمة . فلما ذهبوا . . ظهرت البدع . وظهر الأعداء ، وقد حدث كل هذا . . فكان معجزة له عليه الصلاة والسلام .

أجل : لقد كان ﷺ أمانًا لهذه الأمة ، يقرأ لهم سطور المستقبل ليتفادوا أسباب الاختلاف ، وكذلك كان الصحابة أمانًا لهذه الأمة .

لقد رباه الله تعالى . فربى الصحابة . الذين ربى الله بهم الأمة ، فقد كان وجودهم وجودًا للقرآن الكريم . . من حيث كانوا حراسة دائمة ، القيمة أن تنال ، وسلاحهم الماضى . . ما أخذوه فى قلوبهم من بركة النبوة وتأثيرها فى النفوس .

ويعنى ذلك أن وجوده ﷺ يكون ضمانًا وأمانًا لا مجرد الوجود المادى . . وإلا فقد كان فى « حنين » و « أحد » ومع ذلك هزموا ولكن المراد : وجوده متبعًا . وأسوة حسنة .

كذلك الصحابة لم يكونوا أمانًا وضمانًا لمجرد وجودهم وإنما لما كانوا يتمتعون به من خلال سامية .. تركت آثارها وانطباعاتها فى أنفس الأمة . ويعنى ذلك أن القيم التى تمثلها الصحابة .. ما دامت باقية فينا .. فستبقى أمتنا رغم أنف الحاقدين .

ضرورة أن يكون الرسول رجلا :

يقول علماؤنا ما ملخصه :

١ ـ البلاغ عن الله تعالى يتطلب : القوة ، والاحتمال ، والجلد . فإذا كان «النبى» امرأة واستضعفت أو اغتصبت صار الأمر مشكلة أعفانا الله تعالى منها .

٢ ـ المرأة لا تعدل عدل الرجال ، وقد تبين أنَّ حكم المرأة يميل إلى الشطط .

٣ ـ مسؤولة عن راحة الطفل ، بينما زوجها نائم .. فهى مشغولة بإعداد الجيل الجديد .

٤ ـ تضعف عن اتخاذ القرارات الصارمة ، مثل القصاص حيث تميل بها انفعالاتها .

٥ ـ حال المرأة مضطرب بين : حمل .. وإرضاع .. ونفاس .. وخلل فى النوم ـ فكيف تستطيع أن تكون قائدًا ، كيف وربع عمرها حيض ونفاس ؟ !

التداوى بالأعشاب :

لاحظ العلماء بعض الحيوانات فى الغابات يكون غذاؤها الطبيعى : الفواكه والبقول .

ولكنها ـ وعند المرض . مثل المغص ، وتعفن الجروح ، تترك غذاءها الطبيعى ، ثم تتجه إلى شجرة معينة .

اتضح أن عصاراتها تحتوى على مواد قاتلة للطفيليات التى تسبب المغص والإسهال .

وفى دراسة أخرى قام بها الدكتور « ريتشارد رانجهام » من جامعة هارفارد لاحظ أن القرود الجريحة فى تنزانيا تختار شجرة اسمها العلمى « اسبيليا » لتتداوى بها ... واتضح بالتحليل أن خلاصات تلك الشجرة فيها مضادات حيوية قاتلة للبكتيريا

والفيروسات .

واكتشفت مجموعة أخرى من الباحثين أن قرود الشمبانزى التى تدخل فى معارك مع ثعابين الكوبرا تحصن نفسها بمضغ أنواع من الحشائش تحميها من تأثير السموم .

وفى الكويت لوحظ أن حيـوان الوارا حينما تلدغه الثعابـين . . يبحث عن نبات شوكى اســمه (Heliotropum ramosismum) ليحك جلده فى أشـواكه حتى يدمى فيحميه ، ذلك من الأثر القاتل لسم الثعابين .

ووجد بالفحص المعملى أنَّ هذا النبات بالفعل يبطل النشاط المناعى الكبدى الذى يؤدى إلى النزيف الداخلى القاتل والناتج من لدغ الثعابين .

والسؤال : من علّم تلك الحيوانات . . هذا الطب العجيب ؟

وسبحان من علم آدم الأسماء كلها . . . وألهم الطير . . وأوحى إلى النحل . . وقال للنار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم . . فكانت لفورها .

وتلك آيات شاهدة على عجائب إلهامه .

هناك «هرمون» خاص بالرجال و«هرمون» خاص بالنساء ، حتى قالوا : لو جئت برجل قوى . ثــم حقنته بهرمــون الإناث ، يقل ضبطه وحــزمه ويصير رجـلاً ليِّنًا . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالمرأة .

الداعون إلى المساواة ظـالمون، بل هم أعدى أعدائها ، فلو قـيل للرجل : احمل منها لكان جـوابه : لا . ولو قيل له : اطبخ . . لقـال : لا . ولو قيل له : أرضع طفلاً لقال : لا .

ولذلك كانت لها النفقة . . هذا الراتب الثابت فى عنق الرجل : أبًا ، أو زوجًا، أو ابنًا ، أو أخًا .

أكل الميتة :

يجوز أكل الميتة . . اضطرارًا ، أما التداوى بالمحرم . . فلا يجوز ، لماذا ؟

١ ـ لأن الشبع يتم بالأكل . . أما التداوى فقد لا يكون هناك شفاء .

٢ ـ ربما كان الشفاء فى غير المحرم . . لا فى هذه الميتة بالذات .

أما فى حالة الجوع : فإن الشبع متيقن بالأكل .

وصدق الله العظيم : ﴿ **فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** (٣)﴾ [المائدة : ٣] .

النظر بنور الله :

قال الشافعى : مررت يومًا برجل واقف فى فناء داره ، أزرق العينين ، ناتئ الجبهة ، فقلت فى نفسى : هذا أخبث ما يكون فى الفراسة ، وسألته : هل منزل ؟ قال : نعم . . وأنزلنى . . فما رأيت أكرم منه .

وبعث إليَّ بعشاء طيب ، وعلف دابتى ، وفراش ولحاف ، فقلت : علم الفراسة دل على دناءة هذا الرجل . . وأنا لم أشاهد منه إلا الخير ، فهذا العلم باطل .

ولما أصبحت قلت للغلام : أسرج الدابة ، فلما أردت الخروج ، قلت له : إذا قدمت مكة ، ومررت بذى طوى . . فاسأل عن منزل محمد بن إدريس .

فقال الرجل : أخادم أبيك أنا ؟

قلت : ماذا تقصد ؟ قال : فأين ثمن الذى تكلفت لك البارحة ؟ قلت : وما هو ؟ قال : اشتريت لك بدرهمين طعامًا . وإدامًا بكذا ، وعلف دابتك بكذا . واللحاف بكذا .

قلت : يا غلام : أعطه . . فهل بقى شىء ؟ ! قال : كراء المنزل . . فإنى وسعت عليك وضيقت على نفسى !!

قال الشافعى : فعظم اعتقادى فى الفراسة !!

﴿ ... **جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً** ... ﴾ .

جعلها دابة تدور ، حول نفسها . . لينشأ الليل والنهار . ثم حول الشمس لتنشأ الفصول . وهى مع جموحها ، فنحن مستقرون عليها ، لا تلقى بنا . . ولا تقلقنا .

ولو دام الليل . . لتجمدت . . ولو دام النهار . . لاحترقت ، فكان من رحمته تعالى أن يداول بين الليل والنهار . . وهو معنى من معانى تذليلها .

ثم اقرأ قوله تعالى : ﴿ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ .

الأرض تعطى . . بلا توقف . . ولا تكتم فى باطنها شيئًا من رزق الله تعالى.

ولكن الإنسان هو الذى يظلم . . يكتم الحق وشواهده بين يديه فى الأنفس والآفاق .

يمثّل ذو اللب فى نفسه
مصائبه قبل أن تنزلا
فإن نزلت بغتة لم ترعه
لما كان فى نفسه مثّلا
رأى الهم يفضى إلى آخر
فصيّر آخره أولا
وذو الجهل يأمن أيامه
وينسى مصارع من قد خلا
فإن بدهنه صروف الزمان
ببعض مصائبه . . أعولا
ولو قدم الحزم فى أمره
لعلّمه الصبر عند البلا

أسباب تخلف المسلمين فى رأى « النورسى » :

تنحصر فى ثلاثة [عند الدعاة] :

١ ـ محاولة الدعاة سحب الماضى على الحاضر مع الفرق بينهما .

كما أن الدعاة لا يشفعون دعاواهم بالأدلة التى هى ملحة الآن .

٢ ـ لا يميز الدعاة بين الأهم والمهم . . ولا يدركون سلم الأوليات .

٣ ـ البلاغة هى : مراعاة مقتضى الحال . . وهم يتكلمون بلسان الماضى . . فتظل الفجوة واسعة بين الداعى والمدعو .

والسبب الرئيسى فى تخلف الأمة هو المعاصى :

هرب واحد من بنى مروان [بنى أمية] إلى بلاد النوبة بعد ظهور بنى العباس . . فجاءه ملك النوبة ، وسأله عن سبب مجيئه ، فقال : ولِىَ الأمر غيرنا . . فاستجرت بك ، فقال له : أنتم تزعمون أن دينكم حرم الخمر . . فَلِمَ شربتموها ؟

فقال : إنما يفعل ذلك رعاع الناس مما لا خلاق لهم ، فقال : وتخرجون إلى الصيد فى طلب عصفور ، فتأخذون أموال الناس ، وتفسدون زروعهم ، فقال : إنما يفعله الجهال ، قال : « لا » والله بل بارزتم الله بالذنوب . . فسلبكم الملك !!

من بلاغة القرآن :

يقول تعالى فى سورة يونس: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ... ﴾ [يونس : ٤٢]، وفى سورة محمد : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ [الآية : ١٦] ، جاءت آية يونس بالجمع ﴿ يَسْتَمِعُونَ ﴾ ، وفى سورة محمد جاءت بالإفراد ﴿ يَسْتَمِعُ ﴾ لماذا ؟

فى الأولى : لم تكن قضية المستمعين معه هى النظر إليه ، ولكنها كانت بالدرجة لأولى : القرآن ، والقرآن مما يستمع إليه .

أما فى سورة محمد : فقد كان القوم منافقين . . فهم لم يحصل منهم سماع . . حتى يكون لهم حزب مستمع !!

ناس ... مذاهب :

قال بعض الصالحين : لأننى غير قادر على مجاملة كل أصدقائى فى مناسبات حياتهم . . فسوف أصفّيهم . . ولا يبقى لى منهم إلا القليل . . بحيث يتسع الوقت لمجاملة العاقلة ، ثم كان من عادته ؛ أنه إذا أساء إليه أحد ظنه كلبًا يعوى ، وهل يلتفت أحد للكلب العاوى . . أو يرد عليه ؟

إنه رجل صدق . . فكيف يضيع عمره فى رد مقالات السفهاء .

إنما يعد للكلب السوء . . كلب يعادله . . . يستعان بالسفيه . . على مثله .

ولأن الدهر لا يخلو من أذى ، قيل : من عاتب الدهر طالت معتبته ، وليس من العدل .. سرعة العزل ، أى لا تتعجل بالعتاب قبل أن تعرف العذر .

لمحات ... قرآنية :

﴿ **وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ [النور : ٢٨] ، فى الوقت الذى يغضب فيه بعض الناس لو استأذنوا ، فقيل لهم ارجعوا .. فى هذا الوقت نرى رجالاً عقلاء إن قيل له : ارجع .. لا يرجع فقط ، وإنما يعود راضيًا .. سعيدًا .

وكيف ؟ لأن الآية الكريمة تقول بعد ذلك : ﴿ **هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ** ﴾ فهو يرجع إذن على رجاء أن يحصل على التزكية !!

فى سورة الشعراء [١٢٣] يقول عز وجل : ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ** ﴾ بالتأنيث ، وفيها أيضًا : ﴿ **كَذَّبَ أَصْحَابُ الأَيْكَةِ** ﴾ بالتذكير .ويقول عز وجلّ : ﴿ **وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ** ﴾ ، ﴿ **وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ** ﴾ .

يقال : أرْبِعوا على أنفسكم ، بكسر الباء ، « **أعذر الله إلى امرئ حتى بلّغه الستين** » الستون هى : معترك الموت .

والمعنى : أن الله تعالى إذا أرخى للمرء فى أجله حتى بلغ الستين من عمره .. فقد أبقاه مدة كافية لإزالة كل أعذاره ، فلم يبق له بعد هذا العمر المتطاول أن يعتذر ويقول : لو أخرنى الله تعالى لفعلت وفعلت ﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ** ﴾ [فاطر:٣٧] .

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

عبد الله بن الأرقم رضى الله عنه : من مُسلِمة الفتح .. وحسن إسلامه.

وظيفته :

كان كاتبًا للرسول ﷺ . ولأبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما ، وتولى بيت المال لعمر وعثمان ، وهذه مؤهلاته .. وهى قليلة .. ولكنه بلغ فى إتقانها الغاية .

وهذا شأن المتقين .. المتقنين عملهم .. يبذلون قصارى جهدهم فى إنجازه . حتى يبزوا غيرهم ، ثم يعذر فيما قصر فيه .

وكأنما أحس بعقدة النقص إزاء من سبقوه إلى الإسلام ، فضاعف جهده ليسبقهم، فجاء بالمعجزات ، فعوض ما فاته .

ويكفى ابن الأرقم شرفًا أنه نال ثقة عمر رضى الله عنه ، وكان عمر كثير الظن بالناس ، لاحقدًا عليهم . . وإنما هو حذر العواقب وغيرة على الحق .

ولأن يخطئ فى العزل أهون من أن يخطئ فى التولية ؛ لأن العزل يترتب عليه ضرر فرد ، أما التولية فهى ضرر أمة بسبب فرد واحد .

وحتى حين يعزل . . فإنه لا يحقد ولا يشنع . . وإنما يعطف على المعزول ليحمى سمعته ، وهو يخاف على المال ، لا بخلاً به ، ولا لتوزيعه على الأنصار والمحاسيب ، ولا لشراء الذمم ، ولا لكسب معركة انتخابية ، وإنما لتدعيم الحق . . حين يعطى . . وحين يمنع على سواء .

فلو لم يكن عبد الله بن الأرقم أهلاً . . ما ولاه . ولو لم يكن أمينًا . . ما أبقاه ولولا أنه صورة لعمر عاشق القيم . ما بقى طول خلافة عمر واليًا على بيت المال .

ولكن يجب أن نعلم أنه لم يرفضها :

١ ـ لشك فى حلها . . فالعهد أنها حلال فى هذه المرحلة الذهبية

٢ ـ ثم إنه متحقق من عدل عثمان رضى الله عنه، لايضع المال إلا فى مصرفه .

لقد كان عياله فى حاجة إليها . . ولن يكون بها غنيًا ، ولن يكون الرفض لشعوره بأن هناك من هو فى حاجة إليها . . لأن عثمان رضى الله عنه عادل ، وإنما رفضها منطلقًا من فطرته التى عبر عنها فى قوله : إننى أعمل لله . وإذن . . فأجرى عليه سبحانه وحده .

خلف الوعد :

من وعد فأخلف . . لزمته ثلاث مذمات :

ـ ذم اللؤم .

ـ ذم الخلف .

ـ وذم الكذب .

وصدق القائل : خلف الوعد . . خلق الوغد !

وقد تسمع كلامًا يقطر عسلاً . لكنه لا يُحقق : جعجعة ، ولا ترى طحنًا : طاحونة : تنوِّم الحارس . . تنومه . . ولا تطعمه .

ولخطورة هذا الصنف الكذوب اللعوب . . كان خلف الوعد شعبة من النفاق . . والمخلف مشمول بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

وقد نوه الشعراء بالوعد وإنجازه . . والتحذير من خلفه :

ألا إنما الإنسـان غـمد لقـلبه
ولا خير فى غمد إذا لم يكن نصل
ولا خير فى وعد إذا كـان كاذبًا
ولا خير فى قول إذا لم يكن فعـل

من صور الحمق :

كان لـرجل جاريتـان مغنـيتان : واحـدة محسـنة . . إذا غنت شق قـميـصه ! ومسيئة . . إذا غنت . . قعد يخيطه !

قال لجليسه يومًـا ـ من فرط نشوته : لماذا لا تشق قميصك يومًـا إعجابًا بها ؟ ! فقال له : وأقعد عريانًا !

فقال : أخيطه لك غدًا ! فما كان جواب صاحبه إلا أن سخر منه قائلاً : سأشقه غدًا !!

وهكذا عاشـق الدنيا : إنه أبدًا فى نار تلـظى . . لا يموت فيها ولا يحـيا ، كم سيلقى . . كم سيشقى .

ومما يزيد فى عذابه ما يحس به حين يرى مثل هذا التحدى ، وهذه السخرية من رجل نأى بنفسه عن هذا العبث .

دخل رجل على الشعبى . وهو جالس مع امرأته .

فقال : أيكم الشعبى ؟

فقال الشعبى : هذا .. وأشار إلى امرأته !!

فقال له الرجل : ما تقول أصلحك الله فى رجل شتمنى فى أول رمضان .. هل يؤجر ؟

قال الشعبى : إن كان قال لك : يا أحمق .. فإنى أرجو له الخير !!

لقد أراد الرجل الأول أن يفرض عبثه على رفيقه .. فرفض .. ساخرًا .

أما الشعبى فقد لقن الأحمق درسًا لا ينساه .. بل لقد ذبحه .. ولكن بغير سكين !!

بعض الناس : محلك سر ! كما يقولون فى العسكرية ، وهم كما يقول شيخنا الغزالى .. كبندول الساعة ، يدور حول نفسه ، وفى ذات الدائرة .

وهم كما وصفهم « ابن عطاء الله » : كحمار الرحى .. فى قوله : (لا ترحل من كون إلى كون .. فتكون كحمار الرحى يسير .. والمكان الذى ارتحل إليه هو نفسه المكان الذى ارتحل منه ، ولكن ارحل من الأكوان إلى المكون ، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢]) .

يقول عز وجل : ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧) وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ (٤٨) وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٤٩) فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾ [الذاريات: ٤٧-٥١] ، دع الكون من بدائع ذراته وروائع مجراته فارًا إلى خالقه سبحانه وتعالى .

فقه العمل وأخلاقياته :

فى مؤتمر حول (هندسة التكنولوجيا النووية) طالب الباحثون المصريون نقلها إلى مصر ، لكنَّ بعض الباحثين الأوروبيين تحفظ قائلاً : (إنَّ أمن التكنولوجيا النووية المتمثل فى المفاعلات سيكون مهددًا إذا ما نقلت إلى مصر . أو غيرها من دول الشرق الأوسط .

وعلل ذلك : بأن تلك الأقطار ليست ملتزمة بقيم العمل وأخلاقياته ، الأمر الذى يفتح الباب واسعًا أمام التسيب والإهمال ، وهما من الأمور شديدة الخطورة؛ لأنه يؤدى إلى التسريب النووى بكوارثه التى لا تخطر على بال) .

ورحم الله الشيخ الغزالى حين نبه إلى هذا الفقه . . الذى يعود بأمتنا كما كانت، وكما يجب أن تكون شاهدة على الناس .

بل إن الله تعالى يسخر رجالاً ممن لا يدينون بالإسلام ليكون شاهدًا بحقية هذا القرآن .

وقف العالم الأوروبى فى مؤتمر علمى كبير يقرر ما يلى : أن الإنسان إذا وصل به النوم إلى المرحلة الثالثة من مراحله . . فإن الروح تفارقه تمامًا كما تفارق الروح الميت .

وقد تأكد لى ذلك بعد بحث على مدى ٤٠ عامًا ، وعلى آلاف الأفراد ، وعندئذ قام شاب مسلم ، وقرأ قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** (٤٢) ﴾ [الزمر : ٤٢] .

ولما ترجمت الآية للرجل أقسم أن هذا لا يمكن أن يكون كلام بشر . . إنه ليس من عند محمد . . وأنا أريد أن أدخل فى دين محمد . . ثم ذهب إلى المنصة وأعلن إسلامه !!

برح الخفاء : وضح الأمر .

برّح به الضرب : اشتد عليه .

المبراح : الأرض المكشوفة .

قلب معلق بالمساجد :

كان بعض العابدين يقول لأصحابه : إذا لم تجدونى فى المسجد . . فأنا فى المقبرة !

متفرقات :

أجمل شيء : هذا العالم . . لأنه صنعة الله .

فى الإسلام . . يجعل الزوج من زوجته ملكة : تحتفظ باسمها ، لها ذمتها المالية الخاصة .

التذكار : شكل من أشكال اللقاء .

والنسيان : شكل من أشكال الحرية .

ليست قيمة الإنسان فيما يبلغ إليه . . ولكن فيما يَتوُق البلوغ إليه !

الأشجار : أشعار . . تكتبها الأرض للسماء . . ولكننا نقطعها . . لتصنع منه الورق . . لندون فيه فراغنا .

المرشح الخطيب :

سحر المجتمعين ببيانه . . ولكن منافسه قام وقال : مهمتى أن أفعل ما قاله صاحبى !!

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

عندما استقبل الفضيل صديقه ـ وهو بمكة ـ ووجده سمينًا . قال له : ما هذا يا أهل الزهد !

قال : من فرحى بالإسلام !

وهكذا كان فرحهم ؛ بما يسعدهم فى أخراهم . . لا بما يقتنى الناس فى دنياهم .

وكان من دعاء عكرمة ، يقسم فيقول لا والذى نجانى يوم بدر . يعنى : لم يقتل . . وأبقاه الله تعالى حيًا ليسلم . . فهو سعيد جدًا . . سعيد بإسلامه .

ولما قال ﷺ لعمر : « **لا تنسانا يا أخى من دعائك** » مرتين . . قال : نهى خيرلى من حمر النعم !

فى التوبة ... والاستغفار :

سمع الأصمعى رجلاً يقول : يا رب ، أستحيى أن أدعوك . . وأنا عاص لك .

ولكن . . إلى من ألتجئ .

فقال له الأصمعى : يجيب الله لك . . لحسن سؤالك !

وكان رجل يستحيى أن يسأل الله الجنة . . ويكتفى بطلب المغفرة .

وقال أحد العصاة : اللهم إنى عصيتك . . لكننى أحب من يطيعك !

لا تحسد الأغنياء : لا تحسدهم إلا إذا طغوا . . قال تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ ﴾ .

معاوية والشباب :لم تلهه هموم الخلافة ، فقد صعد المنبر ، وأمسك بخصلة شعر . . ونعى على الشباب هذه العادة .

ولكنا لا نعتبر . . وما زال الأعداء يمكرون بنا ، لما عجزوا عن إشاعة الفاحشة . . نشروا الصور العارية ، وكل من يستجيب لهم ويعصى الله تعالى معصية فهو فى نفس الوقت يعمل على تقويض مملكة الإسلام ، وتدعيم مملكة اليهود .

راتب الخليفة :

لما ولى عمر رضى الله عنه الخلافة . . استشار : فقال له علىّ رضى الله عنه : لك غداء وعشاء . فوافق عمر .

ولما سئل عن حقه فى بيت المال قال:(ما أصلحنى. وأصلح عيالى بالمعروف) .

ففرضوا له : حلة فى الشتاء . . وحلة فى الصيف . . وراحلة للحج والعمرة ، ودابة يقضى بها حوائجه . . ويستخدمها فى جهاده .

ولما علم يومًا أن عامله سقاه لبن ناقة من مال المسلمين الذى هو مال الله تعالى انزعج ، وقال له : ويحك ! لقد سقيتنى ناراً !!

وهكذا . . وبهذه البساطة وفر على الأمة نفقات ديوان يعج بالموظفين ، وبهذه الحساسية . . كان قدوة لمن معه . . ولو رتع . . لرتعوا !!

لا يخبر القرآن بمحالات العقول . . بل إنه يخبر بمحاراتها ، أى بما حارت فيه العقول . . فلم تفهمه .

بمعنى : أنه لا يخبر بما ينفيه العقل . . بل بما يعجز عن فهمه ، فالعيب فى

الإنسان .. لا فى القرآن .

تقدير العلماء :

قال طالب العلم : ما طرقت باباً على عالم قط .. حتى يخرج لوقت خروجه ! عندئذ تكون أبعد عن النقطة التى فيها هذا المنتصف « ووقت العشاء إلى منتصف الليل» رواه مسلم ٦١٢ .

وإذن : اسمع إلى الأحكام تحملها الرواة .. إليك .. عنكا ، واعلم ـ هُديت ـ بأنها حجج تكون .. عليك .. منكا .

القاضى بكار بن قتيبة :

سأل وفداً من « الرملة » بفلسطين : ما حال قاضيكم ؟

قالوا : عفيف !

فضرب كفًّا بكف وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون !

أيقال قاضٍ عفيف .. فسدت الدنيا !

يقول المعلق : (يرى العفة أمرًا بدهيًّا لا ينص عليه فى جواب ، وكأنما كان عفيفًا بين فاسدين .. تميز هو عنهم بالعفة !!

قال يومًا : ما حللت سراويلى على حلال قط [يعنى : أنه لم يتزوج] .

فقال أحد الحاضرين : ولا على حرام أيضًا ؟

فصاح غاضبًا : يا سبحان الله !! والحرام يذكر كأنه أمر يتوقع !

وكان قاضيًا بمصر .. وقدم عليه رجل من أهل البصرة كان رفيقه فى طلب العلم هناك ، فأكرمه واحتفى به ، لكنه شهد عنده مع مصرى فى قضية ، فتوقف فى الحكم .

لماذا ؟ لقد أكل يومًا مع صديقه البصرى أرزًا فى سمن وعسل ، فنفد العسل من ناحية « بكار » ففتح من جهة صاحبه هذا حتى جرى العسل نحوه ، فقال البصرى متضاحكًا :[أخرقتها لتغرق أهلها] فعلمت أنه يهزأ بالقرآن ، وبقى ذلك فى نفسى . حتى رددت شهادته .

كان يحافظ على الصلاة . وهو فى السجن ، وحين تأتى صلاة الجمعة كان يغتسل ، ويلبس ثيابه ويجيء إلى باب السجن ، فيرده السجان قائلاً أعذرنى أيها القاضى. فما أقدر على إخراجك . . فيصيح متجهًا إلى السماء : اللهم فاشهد . . لقد صنعت ما علىّ !

ولما طال محبسه استأذن تلاميذه من « ابن طولون » أن يأذن لهم بالسماع منه . فأذن لهم ، فكان يحدثهم من طاقة المحبس ، وهم من حوله يسمعون . ويكتبون .

مرض عمرو بن العلاء ، فعاده بعض أصحابه ، وقال له : أريد أن أساهرك الليلة ، فأجابه : أنت معافى . وأنا مبتلى ، فالعافية لا تدعك أن تسهر ، والبلاء لا يدعنى أن أنام ، وأسأل الله أن يهب لأهل العافية الشكر ، ولأهل البلاء الصبر .

يقول الخيام :

لبستُ ثوب العيش لم أستشر
وحرت فيه بين شتى الفكر
وسوف أنضو الثوب عنى ولم
أدرك لماذا جئت ؟ أين المفر ؟!

قال قائل :

ألقاه فى اليم مكتوفًا وقال له
إياك إياك أن تبتل بالماء

وعلى الفور أجابه من يقول :

إن حفَّه اللطف لم يمسسه من بلل
ولم يبال بتكتيف وإلقاء !

غسق الليل :

غسق الليل هو : منتصفه ، وأشد ما تكون ظلمة الليل فى منتصفه ؛ لأن الشمس عندئذ تكون أبعد عن النقطة التى فيها هذا المنتصف .

[ووقت العشاء إلى منتصف الليل] رواه مسلم فى كتاب المساجد (٦٢١) .

وإذن : فلو طهرت الحائض فى الثلث الأخير من الليل . . لا تصلى العشاء .

البراء بن مالك :

هو شقيق أنس بن مالك رضى الله عنه . خادم رسول الله ﷺ ، كانت أمنيته الوحيدة أن يموت شهيداً ، وقد حمَّلته الأمنية مسؤولية أن يشهد كل الغزوات سعيًا إلى تحقيق الأمل الأكبر !

وفى حروب الردة . . كاد مسيلمة أول المعركة أن يأخذ بزمام المبادرة . . وسرى شىء من الخوف فى صفوف المجاهدين ، ونادى خالد رضى الله عنه : تكلم يا براء!! فصاح بهذه الكلمات : يا أهل المدينة ، لا مدينة لكم اليوم ، إنما هو الله . والجنة .

ومع أنه كان مستجاب الدعوة . . إلا أنه آثر أن يدفع ثمن جنة لم يشأ دخولها مجانًا . . فقال لرفاق السلاح : ضعونى على المِخفَّة . . . واقذفوا بى فى الحديقة .

ففعلوا . . . فأعمل فى المرتدين سيفه . . ثم كسر باب الحديقة . . . من الداخل فاندفع المسلمون . . . ومنهم « وحشى » . . قاتل حمزة رضى الله عنه . والذى صمم على أن يقتل مسيلمة تكفيراً عن ذنبه . . وقد كان . . وسَقط مسيلمة الكذاب غير مأسوف عليه بسيفٍ قتل بالأمس سيد شباب أهل الجنة .

أما البراء : فقد انجلت المعركة عن جسده . وفيه بضع وثمانون طعنة ، وظل قائد الجيش خالد بن الوليد يُشرف على تمريضه بنفسه شهرًا كاملاً ، حتى أصبح معافى ، أصح جسمًا ، وأقوى عزمًا .

من مظاهر الذكاء : دقة الحيلة . . . وسرعة البديهة .

دقة الحيلة التى تكون مثل شعاع الفجر . . يتسرب . . مخترقًا حجب الظلام . . رقيقًا . . رفيقًا . منطلقًا من معرفة بطبيعة الإنسان :

أ ـ قدمت امرأة على « عبد الله بن جعفر » ومعها دجاجة مشوية . . ثم قالت له كانت هذه الدجاجة أعز علىّ من ولدى ، فأردت أن أدفنها فى أكرم مكان . .

الموضوع الصفحة

تم الصف والإخراج الفني
بمركز الصفا للكمبيوتر
مصر. منية سمنود. دقهلية
ت: ٠٥٠٦٤٩٢١٧٨ محمول: ٠١٢٧٥١١٠٠٢

•• الفهرس ••



نزهة في عقول الآخرين

الدكتور. محمود محمد محمد عمارة

الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان ـ المنصورة

٠٥٠ / ٢٢٥٧٨٨٢

نزهة في عقول الآخرين

تأليف

الدكتور محمود محمد محمد عمارة
الأستاذ بجامعة الأزهر

مكتبة الإيمان
بالمنصورة ت ٢٢٥٧٨٨٢